الأقلام

الجزء التاسع ـ السنة الاولى

المحرم ١٣٨٥هـ

مايس ١٩٦٥ م

ان مواد العدد ترتب لاعتبارات فنية
لا علاقة لمكانة الكاتب أو أهمية البحث بها

الأقلام
مجلة فكرية عامة
تصدرها شهريا
وزارة الثقافة والارشاد
بغداد - العراق

المراسلات باسم: سكرتير التحرير. الاشتراكات: دينار واحد داخل العراق و ٧٥ فلساً للطلبة، دينار ونصف خارج العراق

حقيقة التراث السياسي العربي الاسلامي

«الجانب الدبلوماسي»

الدكتور فاضل زكي محمد

تمهيـــد :

لم يقتصر ما اصاب العرب في العصور الحديثة على التسلط الاجنبي السياسي والاقتصادي وما اعقبهما من تجزئة وتدهور في الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حسب ، وانما امتد ذلك أيضا الى التعريض بتراثهم وباصالته وحتى بدورهم الكبير في خدمة الحضارة الانسانية . ولقد بلغ هذا التعريض بالتراث العربي الاسلامي الى الحد الذي أخذ فيه بعض الكتاب من امثـال كالرمون ليقول : « ان المدنيـة العربية ليست سوى كلمـة خداعة ... » ومن امثال كوفين ليبين : « ان الشريعة الاسلامية ... قد حفظت في تضاعيفها شرورا اجتماعية تئن منها الانسانية . »

فهل هذا حقيقة ؟ وهل يكفي بالنسبة لنا نحن العرب ان نجيب ان امثال هؤلاء الكتاب اما ان يكونوا متعصبين أو أن يكونوا جهلاء بحقيقة التراث العربي الاسلامي .

الواقع ان مثل هذه التعميمات واجاباتها لا تكفي لامة تريد ان تنهض نهضة حقيقية شاملة . انها تستدعي فينا جميعا وعلى مختلف اختصاصاتنا ، ان نبحث وندقق ونسبر غـور تراثنا من جميع جوانبـه باسلوب علمـي موضوعي ، لكي نقف على حقيقته وكنوزه ، ولكي نبني نهضتنا الحديثة بوحي ويقبس منه .

ان البحث والتقصي في التراث لا يعني الاقتصار على ناحيته الاقتصادية دون ناحيته الفكرية . ذلك لان البحث في مقومات تراثنا الحضاري يستدعي منا ان نبحث في كل جوانبه الروحية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية .

ونحن اذ نلقي بعض الضوء على تراثنا السياسي في جانبه الدبلوماسي نأمل من المعنيين في هذا الحقل بصورة خاصة والمعنيين بشؤون حضارتهم

وتراثهم بصورة عامة ان يؤدوا ما عليهم من جهد وكل ذلك لـكي نصل أهدافنا كاملة ولـكي تكون خططنا في النهضة قائمة على اسس حقيقية ونابعة من واقعنا وتراثنا وحضارتنا ٠

المفهوم العربي الاسلامي للدبلوماسية :

في الوقت الذي كان الفكر السياسي يسير سيرا متعثرا في اوربا ابان القرون الوسطى كان هذا الفكر في الشرق العربي يتجدد في معالمه ويتبلور في مفاهيمه ٠

والواقع فان الدبلوماسية التي وصلت في أساليبها وفنونها وأغراضها المتنوعة اوجها في العصور العباسية ، كان العرب قد مارسوها قبل تلك العصور ومنذ عصر الجاهلية بالذات ٠

ذلك ان طبيعة العرب في حب الاسفار ، وما أحاط بهم من ظروف اجتماعيـة واقتصادية وجغرافية كان قد دفعهم الى ممارسة التجارة والى الاجتماعات في الاسواق والاندية لشـهود المواسم الثقافية والدينية ، فكان على أثر ذلك أن قامت العـلاقات والارتباطات بين بعضهم البعض أولا ثم امتدت هذه العلاقات والارتباطات تدريجيا مع الاقوام والشعوب الاخرى مبتدئة بتلك المجاورة لهم ٠ ولعل من بين أسباب تكوين العلاقات مع الغير ، وقوع بلادهم في مركز استراتيجي وعلى الطرق الرئيسية بالذات الامر الذي دفعهم الى الاتصال بالغير والى اقامة العلاقات الدبلوماسية ٠

ومع ان أغلب المصادر في مآثر العرب الدبلوماسية قد أصابها التلف أو الضياع أو البعثرة الا ان ما هو متوفر على الرغم من قلته وتبعثره هنا وهناك ، يشـير الى عناية العرب الاقـدمين بتأليف السفارات الى الاقاليم المجاورة والى اهتمامهم باختيار من هم أهل للرسالة والسفارة ٠ وكانوا يتلمسون في رسلهم وسفرائهم المعـرفة والخلق وسرعة البديهـة والذكاء والصبر ٠ ومما يؤيد هذا الاهتمام ما رواه لنا الواقدي في توصية لاحد الرسل تقول « احفظ شيئا ، انتهز الفرصة ، فانها خلسة ، وبت عند رأس الامـر لا ذنبه ٠ واياك وشفيعا مهينـا فانه اضعف وسيلة ، واياك والعجز فانه اوطأ مركب ٠ وعليك بالصبر فانه سبب الظفر ٠ ولا تخض الغمر حتى تعرف القدر(١) ٠٠٠ ومن الامثلة على السفارات في عصر الجاهلية سفارة عبدالمطلب بن هاشم الى ابرهة للمفاوضة على رد ما أخذ من ابل كان قد استولى عليها جيش الحبشة(٢) ٠

واذا كانت الدبلوماسية العربية القديمة قد اقتصرت في الاغلب على مفاهيم تجارية وودية في عصر الجاهلية فانها مرت بتطورات جذرية بظهور التعاليم الاسلامية ٠ فكان اول ما عمله الاسلام ان وحد العرب في دولة عربية اسلامية ٠ وقد سبب هذا التحول في حياة العرب السياسية الى ان تنتظم

الدبلوماسية في قواعد والى ان تدخل ميدان العلاقات الدولية السياسية وبذلك أصبحت وسيلة فعالة من وسائل تنفيذ السياسة الخارجية للدولة العربية الاسلامية التي وطد دعائمها وأركانها الرسول المؤسس محمد (ص) ٠

فالذى يسبر غور لدبلوماسية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين يجد أن الدبلوماسية آنذاك قد خرجت عن الحدود التى رسمت لها فى عصر الجاهلية ٠ وفى الحقيقة فان المفهوم التجاري للدبلوماسية الذى حدد نطاق الدبلوماسية فى العصر الجاهلى قد تطور بعد ذلك الى مفهوم سياسي واجتماعي ٠ ذلك ان الدبلوماسية في عهد النبى والخلفاء الراشدين أصبحت وسيلة فعالة لنشر تعاليم الاسلام ، واداة لتنظيم الاجتماعات والمؤتمرات وعقد المعاهدات[٣] والمهم فى الامر ان المعاهدات كانت لا تقتصر على نشر تعاليم الدين الاسلامى والتمكين له والدفاع عنه وحسب ، وانما كانت تعقد لاغراض الهدنة وفداء الاسرى وتبادل المعرفة وتحقيق المصالح المشتركة أيضا ٠

لقد أسدت الدبلوماسية للدولة الاموية خدمة كبيرة فى تثبيت أركان الدولة وتعاليمها الاسلامية ٠ ففى النطاق الاسلامى ، ظلت الدبلوماسية تستخدم من قبل الامويين كوسيلة للدخول فى دين الله أو دفع الجزية ٠ وفى ما خلا ذلك ، فقد كانت الدبلوماسية وسيلة لتنفيذ سياسة الدولة الخارجية ٠ فكانت هى السبيل الى دفع الحرب وعقد المحالفة ٠ وكانت هى السبيل لتثبيت شروط الهدنة مع الامم التى تدخل معها الحرب ٠

وبدخول العصر العباسي مرت الدبلوماسية الاسلامية بتطورات جديدة ٠ ولعل أهم ما يجب أن يذكر فى صدد هذه التطورات هو أن الدبلوماسية فى هذا العصر بلغت درجة طيبة من التقدم بحيث أصبحت تخضع لقواعد دقيقة وتنتظم في أصول واضحة[٤] ولاشك ان علو شأن الدولة وازدياد ارتباطاتها والتقدم الذى حصل فى عهدها كان له دخل كبير فى هذا التطور وهذا ما جعلها أن تسدى فوائد جمة وتحقق أغراضا متعددة ٠ وكان من بين السبل التي استخدمت فيها الدبلوماسية في العصر العباسي الدور الملحوظ الذى لعبته فى توثيق العلاقات الثقافية والتجارية ٠ فكانت الوفود والسفارات المنظمة تخرج من بغداد[٥] وهى تضم أهل الفكر والصناعة والتجارة والفن حاملة معها العطايا المقدمة من لدن الخليفة ٠ وكانت تنهى مهمتها بعقد معاهدة بين الدولة العباسية وبين الدولة الموفد اليها تلك الوفود والسفارات ٠

كما عملت الدبلوماسية فى هذا العصر على جمع كلمة المسلمين أيام المحن وتوثيق الصلة بينهم للوقوف صفا واحدا أمام العدو[٦] وقد برز مثل هذا الدور أيام بدأ الانحلال يدب بين ظهرانى الدولة[٧] ٠

وثمة دور بارز آخر للدبلوماسية فى هذا العصر هو استخدامها كوسيلة لتحقيق التوازن الدولي ٠ ولقد استدعى تحقيق مثل هذا التوازن قيام سفارات مستمرة بين بغداد وبيزنطة وسفارات مماثلة بين قرطبة

والقسطنطينية • ذلك ان الدولة الفرنجة المناوئة لبيزنطة كان قد اضطرها الامر الى تأمين وتوثيق الصلات مع الدولة العباسية • ولكن الدولة العباسية آنذاك كانت هي الاخرى تبحث في الوسائل التي تحد من قوة دولة الامويين في الاندلس التي اخفقت في القضاء عليها مما دعاها الى أن تفكر من ناحيتها في التحالف مع دولة الفرنجة المتاخمة للاندلس لكي تضعف من شوكتها وتحد من توسعها • وتحقيقا لهذه الموازنة في السياسة الدولية وجدنا السفارات بين بغداد والفرنجة تعقد أواصر الصداقة في سبيل مصالحها المشتركة والتي توجت بالاخير الى تبادل السفارت بين هرون الرشيد وشارلمان(٨) لعقد تحالف يؤمن جانب دولة الفرنجة وسيطرتها على الاماكن المقدسة دون البيزنطيين وجانب العباسيين أزاء الامويين في الاندلس •

لقد برهنت الدبلوماسية في أن تلعب دورا كبيرا حتى أواخر أيام الدولة العباسية • مما يلاحظ أيضا وبجانب ما تقدم ان الدبلوماسية في العصر العباسي كانت قد خضعت لطابع منظم لا يختلف كثيرا عما أصبح هو سائدا في العصر الحديث •

مقومات الدبلوماسية العربية الاسلامية وخصائصها :

من المهم جدا عند دراسة مقومات الدبلوماسية العربية الاسلامية وخصائصها أن نقف أولا وقبل كل شيء على حقيقة هي : أن الدولة العربية الاسلامية قامت على فلسفة ورسالة حضارية • وهذه ناحية مهمة تختلف فيها الدولة العربية الاسلامية عن غيرها من الدول وخاصة تلك التي عاصرتها ذلك أن فلسفة المجتمع في المفهوم الحضاري العربي الاسلامي تقوم على خير وسعادة الانسان وان الدولة ان هي الا اداة لتحقيق هذا الخير وهذه السعادة • وهذه الفلسفة ذاتها هي التي حددت مسؤولية الدولة في الداخل وأسلوب علاقاتها في الخارج • والآن فان فلسفة العلاقات الدبلوماسية التي سارت عليها الدولة العربية الاسلامية طيلة عهودها ما عدا الفترة الزمنية المعينة في أواخر عهد الدولة العباسية وما بعدها حين ابتعدت الدولة عن رسالتها نتيجة لضعفها وانقسامها ـ ما هي الا ركن أساسي من أركان الفلسفة العربية الاسلامية العامة •

على هذا النحو يمكن لنا أن نتفهم مقومات الدبلوماسية العربية الاسلامية وخصائصها ، دونما الوقوع في الخطأ والارتباك الذي وقع فيه بعض الكتاب وعلى الاخص المستشرقين منهم في زمننا المعاصر •

فالرسالة الحضارية العربية الاسلامية الانسانية لما لها من الفاعلية والغنى الفكري هي التي فتحت أمام الدولة العربية الاسلامية باب الاتصال مع غيرها من الدول ، وهي التي حملتها رسالة نشر المبادىء الانسانية • وهذه المبادىء الانسانية بعينها هي التي فتحت أمام الدولة طريق الايمان بفكرة الاخذ والعطاء مع الشعوب الاخرى وهي بعينها التي جعلت سياسة

الدولة بناء على خلوها من التعصب والانعزال ، أن تكون سياسة مرنة فى اقامة العلاقات مع غيرها • وهذه ناحية مهمة تمثل لنا خاصية أساسية لم يقف على كنهها بعض الكتاب في الشؤون الدبلوماسية وخصوصاً المستشرقين الذين لم يروا فى الدبلوماسية العربية الاسلامية غير الحرب وغير دار الحرب ؛ مما دعاهم أن يقيموا حاجزا منيعا بين دار الحرب ودار الاسلام وهو ما ينافي حقيقة أهداف الدبلوماسية العربية الاسلامية اصلا• ذلك أن قيام فلسفة الدولة على نشر القيم الحضارية والانسانية ، كان قد فرض عليها سبيل التعاون مع الدول التى تعمل على نشر هذه القيم حتى ولو كانت تلك الدول غير اسلامية • ومثل هذا السبيل ، بعبارة أخرى، يجعل من الدبلوماسية العربية الاسلامية أن تكون أساسا قائمة على فلسفة العلاقات السلمية • والدليل على ذلك ما يؤيده لنا التاريخ من عقدالمعاهدات والاتفاقيات والوفاء بها مع العالم غير الاسلامي • أما الحرب ، فهى فى المفهوم العربى الاسلامي تكون شرعية فى أحوال معينة : مثل حالة دفع الظلم وحالة القضاء على الفتنة وحالة الدفاع عن النفس واخيرا وليس اخرا حالة حماية القيم الانسانية والحضارية التي تضمها التعاليم الاسلامية من أي متصد لها •

ومما تقدم نفهم ان الدبلوماسية العربية بعد أن مرت بفترة من النمو والتطور أصبح لها نظام تهتدى به فى اقامة العلاقات مع الغير • وهذه هي ناحية مهمة لا يمكن اغفالها • والذى يقرأ تاريخ هذه العلاقات بامعان يجد أن الاجتهاد والممارسة الطويلة قد خلقت نظاما متقدما فى أصول الدبلوماسية وقواعدها • من ذلك الاصول فى اختيار السفراء ، والاصول فى ارسال البعثات الدبلوماسية ، والاصول في التشريفات والاستقبالات ، والاصول فى الامان والحصانات والاعفاءات للدبلوماسيين من الرسوم والكمارك •ولا يبالغ المرء اذا قال أن الكثير من هذه الاصول قد اقتبست منها أوربا ، ولما تزل هذه من الاصول المتبعة فى وقتنا الحاضر •

ففي اختيار السفراء مثلا كانت هناك شروط لمن يصلح للسفارة • ومن هذه الشروط أو الصفات المطلوب توفرها في السفير ما كان يتصل بالثقافة وسعة الاطلاع ورجاحة العقل وحسن التصرف(٩) والفطنة ، ومنها ما كان يتعلق بحسن الهندام والقيافة • فقد كان لابد للسفير الذى يروم النجاح في عمله كممثل لبلاده أن يكون عالما بتراثه وشريعته عارفا بتاريخ بلاده وفلسفة أمته • وكان يفضل في السفير أن يكون ممن يتوفر فيهم « تمام القد وعبالة الجسم ، حتى لا يكون متيناً ولا ضئيلا ••• »(١٠) يملأ العيون المتشوقة اليه فلا تقتحمه ، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره(١١) ومن هنا نفهم أن مقياس اختيار السفراء كان يقوم علىأهليتهم وكفائتهم لتولى المهام الدبلوماسية • ومن هنا نفهم أيضا انه لم يكن هناك فرق أو تمييز فى الاختيار بسبب الاعتقاد أو الدين ، وبهذه الصورة شغل

منصب السفارة شخصيات لامعة من موظفيها ومفكريها وأدبائها وعقلائها ممن اشتهروا بسعة الاطلاع والمركز الاجتماعي المرموق ·

ومما يجدر ذكره ايضا ان البعثات الدبلوماسية العربية الاسلامية كان يتحدد عددها تبعا لاهميتها ومنزلة رئيسها[١٢] · وكان استقبال الممثل الدبلوماسي وحاشيته يخضع لاعراف وقواعد تليق بمكانة دولته · من ذلك مثلا ارسال وفد استقبال الى الحدود لاصطحاب السفير ومرافقته الى العاصمة · ثم يعقب ذلك ايواء السفير وحاشيته في قصر للاستراحة لفترة معينة ايضا ، وقبل ان يحظى بمقابلة الخليفة · اما سفراء الدولة العربية الاسلامية فكانوا يزودون عادة بخطابات اعتماد ينشئها موظفون متخصصون يعملون في ديوان خاص كان يطلق عليه ديوان الرسائل · اما المخاطبات فكانت تخضع لاصول ايضا · من ذلك مثلا ابتداء الرسالة بتقليد (من ·· والى ··) مع ذكر الالقاب · اما الخطابات المتبادلة بين رؤساء المسلمين فكانت يتوجها عادة عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ويعقب ذلك عادة عبارة « اما بعد ·· » وتختم الرسالة عادة بعبارة للشكر والثناء اللائق بالمقام - ومن الطريف ان المخاطبات الدبلوماسية كانت تكتب على ورق من نوع معين وبحبر خاص ·

وما يجب ان لايخفى بجانب كل ما تقدم ان اوراق الاعتماد كانت تقدم في حفل للاستقبال ، ويقرأ السفير اعتماده من قبل الخليفة والمهمة التي ارسل من اجلها والرغبة في التعاون امام رئيس الدولة المرسل اليها باللغة العربية ، ويعمل المترجمون على ترجمتها الى لغة البلد المرسل اليه[١٣] · ثم يعقب ذلك الرد على خطاب الاعتماد · وبانتهاء حفل الاستقبال يأتي دور المفاوضات التي كان يعقبها عادة عقد الاتفاقات والمعاهدات ·

وتحتل مسألة حرمة السفراء وحصاناتهم مكانة عالية عند ضيافتهم للديار العربية الاسلامية · من ذلك مثلا التأكيد على سلامة السفير وامنه وحريته وأمواله · فيذكر لنا أبو يوسف في كتابه « الخراج » ان السفراء حفاظا على مقامهم وامنهم ، كانوا يصدقون فيما يصرحون · فهو يقول « ان الولاة اذا ما لقوا رسولا يسألونه عن اسمه ، فان قال انا رسول الملك بعثني الى ملك العرب ، وهذا كتاب معي ، وما معي من الدواب والمتاع والرقيق هدية له ، فانه يصدق ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال[١٤] ومن يطلع على كتاب سير الخلفاء والولاة يجد كيف ان منح الحصانة الدبلوماسية للسفراء بسبب طبيعة اعمالهم واداء واجباتهم على الوجه المطلوب كان قد أقر من قبل الجميع · فيؤكد لنا الشيباني في كتاب « السير الكبير » ان السفير لايمكن ان يعمل من دون مثل هذه الحصانة[١٥] فهو يقول ويشاركه في ذلك جمهور آخر من الفقهاء المسلمين بان الحصانة لاتنتهك حتى ولو ارتكب السفير جريمة ··[١٦]

واذا كانت الحرمة الشخصية والاعفاء من القضاء الجنائي كانتا قد

اقرنا من قبل الدولة العربية الاسلامية فانها كذلك قد اعفت الدبلوماسيين من الرسوم الكمركية • والواقع ان الحرية المعطاة الى الدبلوماسيين في ادخال واخراج الامتعة من دون رسم كانت واسعة بحيث شجعت البعض من سفراء الدول الاجنبية ، كبيزنطية مثلا ، ممارسة التجارة(١٧) ويذكر لنا بعض الثقاة ان السفراء كان يسمح لهم باخراج كل ما يشاؤون ماعدا ما يتعارض مع امن الدولة كاخراج الاسلحة مثلا •

آثار الدبلوماسية العربية الإسلامية

ذكرنا فيما تقدم مفهوم وخصائص واهداف الدبلوماسية العربيـــة الاسلامية • والسؤال الذى يمكن ان يثار هنا هو ما هي آثار الدبلوماسية العربية الاسلامية ، واى جواب على مثل هذا السؤال يجب ان لايغفل عن ذكر ما عرفه ومارسه العرب والمسلمون من اصول ونظم وقواعد والتي يتفق اغلبها مع ماهو معمول به من قبل اغلب دول العالم اليوم وخاصة الدول الغربية(١٨) •

ويأتي في مقدمة الاصول التي اتبعها العرب والمسلمون صفة التمثيل التي كانت تمنح الى الرسول والسفراء • والواقع ان السفراء خاصة كانوا يمثلون رئيس الدولة في الاحتفالات والتعازي وكانوا ينطقون ويفاوضون عنه ويبرمون العقود والاتفاقيات والمعاهدات • ومن هنا نجد ان صفة التمثيل كان قد ادركها ومارسها العرب في العصور المتوسطة من قبل ان تمارسها الدول في العصور الحديثة • الا ان الفارق بينهم وبين ماهو مطبق اليـــوم هو ان التمثيل ظل عندهما تمثيلا موقتا • ومن هذا النوع من التمثيل ظهر في العصور الحديثة التمثيل الدائم الذى فرضته الحاجة الناجمة من تطور ظروف واحوال الدول •

ان سفراء الدول العربية الاسلامية « يشبهون اليوم السفراء فـوق العادة الذين يوفدون بمهمة رسمية ينتهي عملهم التمثيلي بانتهائها »(١٩) •

وليس ما تقدم فحسب فان الدبلوماسية العربية الاسلامية لم تقتصر اثارها على نشر فكرة التمثيل وتطبيقها وانما تعدتها الى ممارسات اخـــرى ومن بينهـــا تأليفهم لجهاز دبلوماسي يرتبط في مخابراته واتصـــاله بديوان الرسائل الذي كانت تصدر عنه التوجيهات والكتب الى الدول الاجنبية وكان يدير شؤونه اشخاص عرفوا بكفائتهم وقوة اسلوبهم وسحر بيانهم • وهذا بالذات ما يدعونا الى ان نعلم ان اللغة الدبلوماسية الخاصة كان يؤكدعليها في التعامل مع الدول • اضف الى ذلك ان هذا الجهاز الدبلوماسي كان يتكون من السفراء الذين يمتازون بعلمهم وفضلهم ومكانتهم المرموقة في المجتمع •

اما الموظفون الدبلوماسيون المرافقون في السفارات فكانوا همالاخرون يختارون من ابرز موظفي الدولة وكانت تدفع لهم الرواتب والنفقات وكانوا يرتدون الملابس الخاصة التي تليق بالظهور امام رؤساء الدول وكبـــار المسؤولين(٢٠) •

وثمة ناحية مهمة اخرى تستحق الاشارة هنا وهي الاصول الخاصة بالبروتوكولات وصيغ المعاهدات والاتفاقات والتي تركت اساليبها ومضامينها قواعد لا يزال يطبق أغلبها في يومنا الحاضر • ويأتي في مقدمة هذه الاثار بما له علاقة في هذا الصدد ، وثائق الاعتماد التي كان يزود بها رئيس البعثة والتي كانت تحرر باسم رئيس الدولة • والجدير بالذكر ان الدولة العربية الاسلامية قد عملت على اعطاء الدبلوماسيين مكانة عالية وكانوا يستقبلون وفق احتفال رسمي مهيب • كذلك فان ما يستحق الاشارة ما كان يمنح الى الدبلوماسيين من جوازات (اوراق الطريق)(٢١) • معينة يذكر فيها اسم الدبلوماسي ولقبه وعمله ومهمته ويرجى فيها تسهيل مهمته وانتقاله واستقباله •

اما بشأن المعاهدات فقد جرت العادة ان يخول المبعوث التوقيع على الاتفاقية او المعاهدة بالاحرف الاولى ، ريثما تحصل المذاكرة والمصادقة النهائية عليها من قبل الحكومة ورئيس الدولة • ولا يخفى ان مثل هذه الطريقة لاتزال متبعة في وقتنا الحاضر •

وما يجب ان يذكر عن اثار الدبلوماسية العربية الاسلامية ايضا دورها في تثبيت قواعد الحصانات الدبلوماسية • والواقع ان ما يسمى حديثا بالحصانة « كان يطلق عليه العرب » « بالامان » والمقصود بذلك ان الدولة تعمل كل ما بوسعها للمحافظة على شخص السفير وزوجه واولاده واعوانه واتباعه(٢٢) • والمهم ان نعلم ان الاهتمام بالامان يعود تاريخه الى عهد مؤسس الدولة العربية الاسلامية محمد (ص) وانه بعد الممارسة الطويلة اصبح عرفا وقاعدة يجب الاخذ بها من قبل المسؤولين في الدولة(٢٣) •

والاهم من كل ما تقدم احترام الدولة العربية الاسلامية لحرية عبادة الرسل والسفراء والاجانب • وهذه ميزة عالية من ميزات الدبلوماسية العربية الاسلامية التي يحق فيها للعرب والمسلمين ان يفخروا بمبادئهم التي تقوم على التسامح واحترام الاديان(٢٤) •

تلك هي مآثر الحضارة العربية الاسلامية في الدبلوماسية • ومنها نفهم كيف ان لهذه الحضارة دوراً كبيراً في تثبيت قواعد وأصول الدبلوماسية المعروفة لدينا اليوم •

مصادر البحث

الكتب العربية

١ ــ طه حسين : على هامش السيرة • الجزء الاول •
٢ ــ الحسين ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرسالة او السفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٤٧ •
٣ ــ محمد حميدالله الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة •
٤ ــ القلقشندي : صبح الاعشى •

٥ ــ صلاح الدين المنجد : فصول في الدبلوماسية الجزء الثاني ·
٦ ــ ابن الجوزي : المنتظم · الجزء الثامن ·
٧ ــ يعقوب ابو يوسف : الخراج · القاهرة ١٣٥٢ هـ ·
٨ ــ الماوردي : أدب الوزير ·
٩ ــ عبدالله عنان : السفارات السلطانية والخلافية ·
١٠ــ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد مدينة السلام ، القاهرة ١٣٤٩هـ ·
١١ــ نظام الملك : سياسة نامة ·
١٢ــ محمد كردعلي : الاسلام والحضارة العربية ·
٣١ــ الماوردي : الاحكام السلطانية ·
١٤ــ الارمنازي : الشرع الدولي في الاسلام ·

الكتب الاجنبية

(1) A. Vasiliev: Byzance et les Arabs.
(2) Larisse et Rambaud: Hisoire Géenarale.
(3) M. Hamidullah: Muslim Conduct of the state.
(4) M. Khadduri: War & Peace in the Law of Islam.
(5) Feridun: Musha'at as Salatin (Studies on Islamic Diplomacy).

الابحــاث والمقالات

1. Hans Kruze: The Islamic Doctrine of International Treaties, The Islamic Quarterly, Oct. 1954.
2. A. Bokhari: Parlaments, Priests and Prophets, Foreign Affairs, Apr. 1957.
3. Herve Laevenir: Diplomatie Médiévale, Le Monde Diplomatique, Juillet, 1956.

(١) انظر « رسل الملوك ومن يصلح للرسالة او السفارة » لابن الفراء تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ص(٢٨) ·

(٢) انظر « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، جزء١ ، ص(١٤٢)

(٣) للرجوع الى التفاصيل انظر مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الرشيدة للدكتور محمد حميدالله الحيدر آبادي ــ القاهرة (١٩٤١)

(٤) كان السفراء ، مثلا ، يزودون بكتب واوراق اعتماد تشبه كثيرا وثائق الاعتماد التي يقدمها السفراء والممثلون الاخرون الى الملوك والرؤساء في عصرنا · انظر في هذا الصدد « رسل الملوك ومن يصلح للرسالة او السفارة » مصدر سبق ذكره ، ص(١٣١) ·

(٥) أصبحت بغداد في اوج عصر العباسيين المركز الذي تخرج منه وتاتي اليــه الوفـــود والسفارات من البلدان المختلفة · ومن بين تلك البلدان بلاد الروم والصين والبلغـــار وبلاد الصقالبة وغيرها ·

(٦) لعبت السفارات الدبلوماسية دورا كبيرا في جمع الشمل وخاصة في رص الصفوف امام هجمات الصليبيين ومن هذه السفارات السفارة التي بعث بها الناصر صلاح الدين ميمونا الى اخيه ملك اليمن وكذلك السفارة التي بعثت الى يعقوب بن يوسف ملك تونس تأمينا للتعاون والمساعدة المتبادلة في المهام المختلفة · انظر في هذا الصدد صبح الاعشى للقلقشندي جزء (٧) ص(٣٤٢) ·

(٧) يؤكد القلقشندي ان الدبلوماسية في اواخر ايام الدولة العباســـية كانت تلعب دورا رئيسيا في توثيق العلاقات بين الخليفة في بغداد وامراء الولايات المختلفة ، المصدر السابق الجزء (٦) ص(٥٢٦) .

(٨) ارسل الامبراطور شارلمان سفارة الى الخليفة هرون الرشيد سنة ٧٩٧م ورد عليه هرون الرشيد بسفارة مماثلة عام ٨٠١م ثم عاد شارلمان فارسل سفارة ثانية عام ٨٠٢م وقابله هرون الرشيد ايضا بسفارة اسلامية ثانية عام ٨٠٧م وقد كانت السفارة الاولى وما قابلها لاجل تقوية أواصر الصداقة ، اما الثانية فكانت لغرض عقد تحالف يؤمن مصلحة الطرفين ضد مناوئيها دولة بيزنطة ودولة الامويين في الاندلس .

(٩) يذكر لنا ابن الفراء على لسان رسول المعتصم قوله (ابان المثول امام احد ملوك الروم) ان للخلفاء خدما يتصرفون في انحاء الخدم لكل طائفة مذهب يجتبون له ويحتملون عليه ولا يكلفون سواه ، ولا يراد منهم غيره . فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس الســـلاح ويقود الجيوش ومنهم من يعد للقضاء فهو يلبس البردات والدنيات . ومنهم مثلي من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك ويتحمل رسائلهم الى ملك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر . فلولا ثقتهم بي وعلمهم بمناصحتي وصدقي فيما أورد وأودي صادرا او واردا ، لما رأوني أهلا للتوجه فيما توجهه فيه اليك وقليل لمثلي هذا الرزق مع هذا التحمل وهذا المحل من الخلافة وهي من الجلالة على ماهي » انظر ابن الفراء ، مصـــدر سبق ذكره ، ص(٣٥)

(١٠) انظر ابن الفراء ، ص(٢٠)

(١١) من اقوال الخليفة عمر بن الخطاب ، اقتبست من قبل ابن الفراء ، المصدر الســـابق ص(٢٠) .

(١٢) نذكر على سبيل المثال ان بعثة (سفارة) قتيبة بن مسلم الى بلاط امبراطور الصين سنة ٩٦هـ كانت قد بلغت (١٣) شخصا . وان عدد اعضاء السفارة كان قد ارتفع فيما بعد حتى زاد في العهد العباسي على الـ (١٥٠) عضوا . انظر في هذا الصدد ابن الجوزي المنتظم ، الجزء (٨) ص(٦٤) .

(١٣) يذكر البعض من الكتاب العرب والمسلمين من امثـال القلقشندي في كتابه « صبـح الاعشى » ان السفراء كانوا يحملون احيانا ترجمة لاوراق الاعتماد بلغة البلد المستقبل .

(١٤) انظر كتاب « الخراج » لابي يوسف ص(١٨٨–١٨٩) .

(١٥) انظر الامام محمد بن الحسن الشيباني في كتابه « شرح الشرخسي على السير الكبير » جزء (٤) ص (٦٦–٦٧) كذلك ابو يوسف في كتابه « الخراج » مصدر سبق ذكره ، ص (٢٢٣) .

(١٦) انظر ابو يوسف المصدر السابق ، ص (٢٢٤–٢٢٥) : حيث يحدد لنا نوع الجريمـة كجريمة الزنا والسرقة وما يشبهها .

(١٧) كانت بيزنطة تسمح لسفرائها بالقيام بالتجارة .

(١٨) انظر صلاح الدين المنجد ، فصول في الدبلوماسية ، ص (١١٠)

(١٩) المصدر السابق ص (١١٠)

(٢٠) انظر ابن الفراء : رسل الملوك ــ الباب الثامن عشر .

(٢١) طبق امر منح الجوازات الدبلوماسية الخاصة منذ القرن السادس الهجري .

(٢٢) بالرغم من اخذ العرب بهذا المبدأ واضطرار دول الفرنجة بالاخذ بمبدأ المثل . الا انه مع هذا فان رسل العرب وسفرائهم كانوا يتعرضون للاذى من حين لاخر . انظر في هذا الصدد « شذرات الذهب » ص (٣–١٣) .

(٢٣) انظر كتاب الخراج ، مصدر سبق ذكره ، ص (٢٢٣) .

(٢٤) انظر المنجد ، مصدر سبق ذكره ص (١٤٣) .

القومية العربية في شعر الجارم

الدكتور احمد الحوفي

(١) قضى الشعراء في العصر الحديث ردحا من الدهر يتجاوبون باهازيج الوحدة الاسلامية ممثلة في الخلافة العثمانية ، وارّث حماستهم للخلافة انهم وجدوا الدول الغربية تكيد أعظم الكيد للاسلام وشعوبه في حملاتها على تركيا وعلى الولايات الاسلامية الخاضعة لها .

وهالهم ان الدول الاوربية تبيت الشر للخلافة ، وتتطلع الى اقتسام ولاياتها ، وتحرض المسيحية منها على الاستقلال والانفصال . وقد تكشف هذا في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م اذ اجتمع لحل مشكلات تركيا في البلقان ، لكنه لم يسفر الا عن تمزيق الولايات وابتلاعها .

وقد بدأ تحقيق المطامع بان احتلت انجلترا جزيرة قبرص ، واحتلت الروسيا بعض ممتلكات تركيا على البحر الاسود واضطرت تركيا الى التخلي عن رومانيا والصرب . ثم في سنة ١٨٨١م احتلت فرنسا تونس . وبعد ذلك بعام واحد نصبت انجلترا أحابيلها لاحتلال مصر ، غير عابئة بمعاهدة لندن ١٨٤٠م ثم هاجمت ايطاليا طرابلس سنة ١٩١١م واجبرت تركيا على التخلي عنها سنة ١٩١٢م لتتفرغ لثورات في البلقان عاتية فكان الرد الطبيعي على هذا العدوان المتكرر ان يؤيد المستنيرون الخلافة ، وان يناصروا آل عثمان ، وان يتهموا اوربا ـ صادقين ـ بأنها تجددها حربا صليبية ثانية ، وانها لا تصوب ضرباتها لتركيا وحدها ، بل تصوبها الى الاسلام ممثلا في الخلافة الاسلامية ، وفي بني عثمان . ولم يجد الساسة والادباء في ذلك الوقت تنافيا بين العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية ، بل قد وجدوا في ارتباطهم الاسلامي سلاحا يفلون به الاستعمار الاوربي الطاغي . تتبين هذا في مصر وسورية وفي العراق الا على ألسنة قلة من الادباء كانت لهم منازع فردية جامحة .

(٢) لكن العرب المستنيرين لم ينسوا في هذا الخضم انهم أصحاب قومية يجب ان تنفرد وقد بدأ نزوعهم هذا يستعلن منذ أواخر القرن التاسع عشر مطالبا بحقوق العرب ، ومثيرا عزائمهم مسلمين ومسيحيين الى ان يتحدوا ليكون لهم كيان خاص في الخلافة العثمانية ، ويدركوا الغبن النازل بهم ونشأت جمعيات شتى لتحقيق هذا الغرض ، منها جمعية حفظ حقوق

الملة العربية سنة ١٨٨١م والجمعية التي انعقدت بباريس سنة ١٨٩٦م من شباب العرب والترك ، ودعت الى ان يحكم الولايات العربية حكام من العرب مستقلون في ظل الخلافة العثمانية .

ثم صدر الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م فحقق للعرب بعض ما يريدون اذ انتخب من الاقاليم العربية نواب يمثلون العرب بالاستانة ، وكان عددهم يزيد على ربع أعضاء المجلس . ورأى أحرار العرب في الدستور كفالة لحريتهم ، فانطلقت السنتهم من عقالها ، وانفلتت أقلامهم من أغلالها ، وتنفس الذين كانوا مختنقين بالارهاب والاستبداد ، فتيقظ العرب ، وازداد ادراكهم لحقوقهم المسلوبة ، وأدركوا انهم ورثة مجد يجب ان يبعثوه ، وصدرت صحف عدة في العواصم العربية كان لها تأثير عظيم في ايقاظ الرأي العام ، وبث الروح القومي العربي .

ثم تبين العرب ان أقطاب العهد الجديد يسيرون في الحكم كسابقيهم ، فيعززون قوميتهم التركية ويقاومون العناصر الاخرى ، وجعلت الصحافة التركية تكشف عن نوايا الاتراك ، وتنال من العرب ، فانبرت الصحف العربية ترد على التهجم بمثله ، ونظم الشعراء من الترك ومن العرب قصائد ، وكان في هذا الصراع اذكاء للقومية العربية .

ونجم من هذا الشعور ان انفض العرب عن الاتحاديين ، وان شرعوا ينشئون جمعيات عربية جديدة في عواصمهم بالقاهرة ودمشق وبيروت وبغداد ، وفي الاستانة نفسها ، لتعزيز شأن العرب ، والدفاع عن حقوقهم ، وتسويتهم بالترك في الوظائف والاعمال .

وكان لهذه الجمعيات أثرها القوي في بعث القومية العربية ، وايقاظ الشعور القومي والدعوة الى حكم عربي داخلي ، والى تعاون العرب على ما فيه خيرهم ، وناصرتها جرائد شتى بالاقطار العربية .

ومنذ ذلك الوقت ترددت فكرة القومية في الشعر الحديث ، خافتة الصوت ، مبهمة الغاية في أول الامر ثم قوي صوتها ، واتضحت أهدافها بعد ذلك . والحق ان الفضل في انشاء الجامعة العربية القائمة وفي استهلال الوحدة العربية المنشودة ، يرجع الى الادباء قبل ان يرجع الى الساسة ، لان الادباء يصدرون عن نفوس مبرأة من المطامع الشخصية ، ويعبرون عن آمال الشعب ، اما الساسة فكثيرا ما كانت تسيطر عليهم اهواؤهم وشهواتهم الخاصة ، ومخاوفهم من الوحدة فصاروا يقفون بالفكرة أو يرجعون بها الى الوراء أكثر مما يدفعونها الى الامام .

كان الجارم من الشعراء الذين لهجوا بالوحدة العربية ، ودعوا الى ضرورتها ، وشدة الحاجة اليها فطالما آزر الوحدة ، وطالما أشاد بها ، وكثير ما حيا بوادرها ، وتغنى بآثارها .

(١) فهو يذكر وحدة الدم ووحدة التاريخ ووحدة الوطن في قوله :

بني العروبة ان الله يجمعنا   فلا يفرقنا في الارض انسان

لنا بها وطن حر نلوذ بـــه — اذا تناءت مســـافات واوطــــان
غدا الصليب هلالا في توحدنا — وجمع القوم انجيـــل وقـــرآن
ولم تبال فروقا شتتت امما — عدنان غسان او غسان عدنان
اواصر الدم والتاريخ تجمعنا — وكلنا في رحـــاب الشرق اوطان

وهذه الابيات تعبر عن عقيدة الشاعر في وحدة العرب ، لان الله قد جمعهم فلن يستطيع الاستعمار ولن تستطيع الاهواء ان تفرقهم ، وهم اخوة جرى في عروقهم دم واحد ، واقاموا في وطن واحد ، واشتركوا في تاريخ واحـد ، ولن يتنافروا لاختــلاف الدين ، لان السماحة التي يدعـو اليها الاسلام ، والمسيحية ، والاخوة التي تربط المسيحيين بالمسلمين ، والوحدة العربية القديمـة العهد جعلت الهـلال والصليب رمزين مختلفين مظهـرا ومتآلفين حقيقة .

ويردد الجارم وحدة الجنس والتاريخ في قوله لسكان العراق ممثلين في بغداد :

بغـــداد يا بلد الرشيد — ومنـــارة المجـــد التليـــد
يا سطر مجـــد للعـــرو — بة خـــط في لوح الوجـــود
يا مغـــرب الامل القديـ — ـم ومشـــرق الامـل الجديد
بغـــداد انا — وفد مصـ — ـر — نفيض بالشوق الاكيـــد
اهلـــوك اهلـــونا وابنـــا — ء العشـــيرة والجـــدود
بين القلـــوب تشـــوف — كتشوف الصـــب العميـــد
حتى يكـــاد يحـــب نخـ — ـلك نخـل اهلي في رشـيد
شطت منازلنا ومـــا احـ — ـتاج الفـــؤاد الى بريـــد
الرافـــدان تمازجـــا — في الحب بالنيـــل السعيد
وتعـــانق الظـــلان ظـــل — الطـــاق والهـرم المشـــيد

وهو في هذه الابيات لم يقتصر على تصوير ما بين السكان من حب متبادل ، بل اضفى هذا الحب على غير الاناسي ، فالنخل في رشيد يحب النخل في بغداد ، ودجلة والفرات مغرمان بالنيل والهرم وايوان كسرى يتعانقان متحابين ، وهو يريد بهذه الصور ان يؤكد ما بين البلدين من حب صادق لانه قديم منبعث عن روابط وثيقة ، حتى ان الماء والنبات والجماد تستجيب لبواعثه . ولست أدري لم جعل الرافدين يتمازجان في الحب بالنيل ، وجعل ظلي الهرم والايوان يتعانقان ، ولم يجعل النخل متحابا ، بل جعله يكاد يتحاب ؟ ولاشك ان (يكاد) جيدة في موضعها لولا ان الصورة التي يرسمها هذا البيت لا تنسجم مـع الصورتين اللتين في البيتين التاليين ، لان الحب هنا يكاد يتحقق ، والحب هناك واقع ومحقق .

واذ كانت فلسطين فلذة من قلب العروبة عدا عليها الافاكون من الصهاينة ، حزن العرب جميعا ، وعبر الشعراء عن حزن الامة العربية . وان الجارم ليأسى لنكبة فلسطين اسى يسيل دموعه ، ويعتصر قلبـه ،

ويذكره بمشيئة انها من قبل ، هي نكبة العرب في الاندلس . ويتحسر على عهد صلاح الدين ويجهر في وجه الصهيونية وأعوانها بان يردوا الى العرب تراث آبائهم ، لانهم دخلاء افاكون ، وينذرهم بان اغتصابهم لفلسطين كارثة لا قبل لنا بان نصبر عليها :

قلبي وفيض دموعي كلما خطرت	ذكرى فلسطين خفاق وهتـــان
لقد أعاد بها التاريخ اندلســـا	اخرى وطاف بهـا للشـر طوفان
ميراثنا في فتى حطين اين مضى	وهـل نهايتنـا يتـم وحرمان
ردوا تراث ابينا ما لـكم صـلة	به ولا لـكم في امرنا شـــان
مصيبة يرم الصبر الجميل بهـا	وعز فيها على السلوان سلوان

والاحظ ان هذه الفكرة مبرأة من التعصب الديني ، لانه في مناجاته سكان الحجاز بنى الصلة على الدين والنسب معا ، وفي مناجاته لسكان العراق بناهـا على النسب والتاريخ والدين واللغة وفي مناجاته لسكان السودان اقام المحبة على وحدة الدم والدين والوطن ، فلم يجعل الدين وحده دعامة من دعائم القومية .

٢ – ويشيد الجارم باللغة العربية ، لانها رابطة من روابط القومية العربية ، يكفل وحدة الثقافة ويحقق التفاهم ، ويوحد الوجدان . ولهذا هش لانعقاد المؤتمر الطبي العربي بالقاهرة سنة ١٩٣٩ يوم الوقوف بعرفة ورحب بأعضائه في قوله :

ايها الوافدون من امم الشـــر	ق واشـــباله الاباة الصيـــد
اهبطـــوا مصركم بها من قلوب	شفها حبكم وكم من كبـــود
قد رأينا في قربكم يوم عيـــد	قرنتـــه المنى الى يوم عيـــد
ان مصـــرا لـكم بلاد واهـــل	ليس في الحب بيننـا من حدود
جمعتنا الفصحى فما من وهـــاد	فرقت بيننـا ولا من نجـــود
يصل الحب حيث لا تصل الشمـ	ـس ويجتاز شامخات السدود

وكذلك نوه بالمسائل الثقافية التي تقرب بين الاخوة وتصلهم بصلات الود والوفاء ، وتسفر بينهم فتعلم بعضهم أحوال بعض .

فقد تنبه الى اثر الاذاعة القوى في ايقاظ العروبة وتقويتها ، ومدها بغذاء موصول في قوله :

تعالى نطـــير بريش الاثير	ونعلو بـــه حيثما يعتـلى
نمر كما مر طيف الخيال	الم لمامـــا ولم يحلـــل
فبينا نحدث اهل الحجـاز	اذا صوتك العذب في الموصل
نحيى بنى العرب الاوفياء	ونسمعهم غـرد البلبـــل
اولئك قومي بناة الفخـار	وزين المحـافل والجحفـل
ولولا الاذاعة عاش الـكرام	حماة العروبة في معـــزل

٣ – ولم ينس الجارم ان الاسلام وشيجة من وشائج العروبة ، ناظرا الى انه دين الـكثرة ، والى انه دين وحضارة وثقافة وآداب ومجد وتاريخ ،

ولا شك في ان الانصارى يشكون المسلمين في كثير من هذا • قال الجارم في مناجاة سكان الحجاز :

يا جيرة الحرم المزهو ساكنة — سقى العهود الخوالي كل منسكب
لى بينكم صلة عزت اواصرها — لانها صلة القرآن والنسب

وقال لسكان العراق :

سموت الى بغداد والشوق نحوها — يساورني حينا وحينا اساوره
كلانا ناى عن اهلـه وعشـيره — ليلقـاه فيها اهلـه وعشائره
حبيب الى نفسي العراق واهلـه — وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
ديار بها الاسلام ارسـل ضوءه — فسار مسير الشمس في الافق سائره
ومدت بها الآداب ظلا على الورى — تساوت بـه آصـاله وهواجره
تجلى بها عهـد الرشيد وعـزه — وزاهر ملـك الفاتحين وباهره
اذا شئت مجد العرب في عنفوانه — فهـذي مغانيه وهذي منـائره

وردد الفكرة في قوله لسكان السودان :

ان جزت يوما الى السودان فارع له — مـودة كصـفاء الـدر مكنـونا
عهـد له قد رعينـاه باعيننـا — وعـروة قد عقدناها بايدينـا
طـل العروبة والقـرآن يجمعنـا — وسلسل النيـل يرويهم ويروينا

٤ ـ على ان من دعائم القومية العربية وحدة الوجدان والمشاعر ، والمشاركة في الافراح ، ومقاسمة الآلام والاتراح ، لان العرب اخوة لا مناص ان يتقاسموا السراء ويتآزروا في الضراء • وقد صور الجارم هذه المشاركة في عدة صور ، وكان حفيا بتكرار تصويرها بين المدن والانهار والجبال والاشجار والآثار يريد ان يؤكد الود بين الشعبين بأنه ماثل في النبات والجماد ، فلابد ان يكون بين الاناسي أقوى وأعمق ، لانه استجابة للفطرة لا يحول ولا يزول • قال الجارم :

تذوب حشاشات العواصم حسـرة — اذا دميت من كف بغداد اصبـع
ولو صدعت في سفح لبنان صخـرة — لدك ذرا الاهـرام هـذا التصدع
ولو بردى انت لخطـب ميـاهه — لسالت بوادي النيل للنيل ادمـع
ولو مس رضوى عاصف الريح مرة — لباتت لـه اكبـادنا تتقطـع

ورجع هذا في قوله :

لبنـان مذ حلت ذراك ركابنـا — حلت من الدنيـا باكـرم ساح
الارز فيك ونخل مصر كلاهمـا — اخـوان في الاتراح الافـراح
والنيل منـك فلو بكيت لفـادح — غمـر الشطوط بدمعه النضاح

ورده في قوله :

حمامة وادي الرافدين ابعثي الهوى — حنينا فما احلى الحنين وما اشـدى
ففي النيل أرواح ترف خوافق — تقاسـمك التاريخ والدين والودا
ظماء الى ماء بدجلـة سلسل — تود بنـور العين لـو رأت الوردا
اذا مست البأساء اذيال دجلـة — قرأت الاسى في صفحة النيل والكمدا

وان طرفت عين ببغداد من قـــذى | رأيت بمصــــر اعينا ملئت ســــهدا
افاء على الفصـــحي توثق عقـــده | وشدت على الايمان اطرافه شـــدا
لنا في صميم المجـــد خـــير ابوة | زهينا به اصـــلا وتاهت بنا ولدا

وقد استطاع الجارم ان يصور الفكرة الواحدة ثلاث صور ، لكنها متشابهة الالوان والظلال ، وان اضاف الى الصورة الاخيرة ما ليس في سابقتيها ، اذ رجع هذه المشاركة الى وحدة اللغة والنسب •

على انه في هذا التصوير متأثر تأثرا واضحا بشوقي في قوله يحيى مبايعيه بامارة الشعر من أقطار العروبة سنة ١٩٢٧ ، اذ وصف المهرجان بأنه عكاظ اجتمعت فيه العروبة — التي عبر عنهــا بالشرق — ثم ختم القصيدة بتصوير وحدة الشعور العربي في السراء والضراء ، والسخط على الاستعمار والجهاد للخلاص من اصفاده :

يا عكاظنـــا تألف الشرق فيــــه | من فلســـــطينه الى بغـــدانه
رب جـــار تلفتت مصـــر توليـــ | ـــه سؤال الـكريم عـــن جيرانه
بعثتنـــي معـــــزيا بمـــــآسي | وطنــــي او مهنئــــا بلســــانه
كان شعري الغناء في فرح الشـــر | ق وكـــــان العزاء في احــــزانه
قد قضي ان يؤلفنــــا الجـــــــر | ح وان نلتقـــــي على اشــــجانه
كلمـــا ان بالعـــــراق جـــريح | لمس الشـــرق جنبـــه في عمـــانه
وعلينـــا كمـــا عليكم حـــديد | تتنزى الليـــــوث في قضـــبانه
نحـــن بالفكـــر بالديار ســـواء | كلنـــا مشفق عـــلى اوطـــانه

٥ — على ان العرب يرتبطون بتاريخ موحد مجيد ، يعتزون به ويباهون ، اذ كانوا في سالف عهدهم سادة الدنيا ، وزينة الارض ، بطولة وسماحة ونخوة وكرما وحضارة ، هم حراص على بعث هذا المجد العريق ، على رفض الذل والانفة من الاستعمار ، والانطلاق من القيود الى منفسح العزة المجد • لهذا يفاخر الجارم بمجد العرب العريق ، ويقرن اوله باول الدهر ، ويباهى ببطولتهم في عدة صور ، فسيوفهم روعت الدنيا ، وحطمت عرش كسرى وقيصر ، وعزماتهم كانت تطير بهم الى ميادين الحرب كأنها خيل تركض بهم ركضا ، وهم في نار الحرب المشتعلة جن لا يعبأون بنار • ويخايل باخلاقهم ونظمهم ، فهم الذين علموا الناس المساواة الحقة ، وهم الذين شهروا سيوفهم لنصرة الحق ، وهم الذين هدموا صروح الشرك واقاموا صروح التوحيد ، وهم الذين حكموا العالم بالعدل والرحمة فكانوا بالسلم كالملائكة ، وهم الذين اضاءوا للعالم طرق العلم والثقافة ، وكانت أقلامهم تواكب سيوفهم •

ثم يعقب على هذا بتفضيلهم على الامم التي سبقتهم كالفرس واليونان والرومان ، ويأسف ان وحدتهم وقوتهم ذهبت بها الاحقاد والاضغان • يقول الجارم :

انى كتاب الى الاجيـــال تقرؤه | له التغني بمجد العرب عنـــوان

مجد على الدهر مذ كانت اوائله | ودولة لبني الفصحى وسلطان
صوارم ريعت الدنيا لو ثبتها | وحطمت صولجانات وتيجان
الناس عندهم ابناء واحدة | فليس في الارض سادات وعبدان
تراكضوا فوق خيل من عزائمهم | لهم من الحق اسياف وخرصان(١)
وكلما هدموا للشرك بإذخة | اقيم للدين والقسطاس بنيان
في السلم ان حكموا كانوا ملائكة | وفي لظى الحرب تحت النقع جنان(٢)
اقلامهم سايرت اسياف صولتهم | للسيف فتح وللاقلام عرفان
فاين من شرعهم روما وما تركت | واين من علمهم فرس ويونان
كانوا اساتذة الآفاق كم نهلت | من فيضهم امم ظمأى وبلدان
كانوا يدا ضمت الدنيا اصابعها | ففرقتها حزازات واضغان

ويباهى باجداده العرب في قوله :

اين عمرو فتى العروبة والاقـ | ـدام اوفى مجاهد بالعقود
شمري يحطم السيف بالسيـ | ـف ويرمي الصنديد بالصنديد
لم يكن جيشه لدى الزحف الا | قوة العزم صورت في جنود

الى ان يقول :

ملكوا الارض لم يسيئوا الى شعـ | ـب ولم يحكموه حكم العبيد
هم جدودي واين مثل جدودي | ان تصدى مفاخر بالجدود

ولم ينس في وصفه الصحراء بين مصر والسودان ان يستطرد من وصفها الى الاشارة بعز العرب ، وعدلهم في حكمهم ، وبطولتهم في حروبهم ، وبسطة ملكهم ، وفضلهم على العالم :

صحراء فيك خبينا سر عزتنا | فافصحي عن مكان السر واهدينا
انا بنو العرب يا صحراء كم نحتت | من صخرك الصلد اخلاقا اوالينا
عزوا وعزت بهم اخلاق امتهم | في الارض لما اعزوا الخلق والدينا
منصة الحكم زانوها ملائكة | وجذوة الحرب شبوها شياطينا
كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم | وبعدها ملأوا الآفاق تمدينا
ان كبرت باقاصي الصين مئذنة | سمعت في الغرب تهليل المصلينا

توجيه

كان الجارم داعية من دعاة القومية العربية ، كان حريصا على ان يحققها العرب ، وحريصا على توجيههم الى الوسائل التي تكفل سيرهم الى الهدف الموحد ، من ذلك انه هتف بالعرب ان يجدوا في التسلح بالعلم ، وان يوحدوا المناهج الدراسية أو يقربوا بينها ، لينشأ فتيانهم متلائمين في ثقافتهم متوافقين في ميولهم ، واهاب بالعرب ان يعنوا اعظم العناية بلغتهم لانها عنوان وحدتهم يقول :

بني العروبة مدوا للعلوم يدا | فلن تقام بغير العلم اركان
جمعتم لشباب الشرق مؤتمرا | بمثله تزدهى الفصحى وتزدان

---

(١) الخرصان : جمع خرص وهو القناة أو السنان . (٢) جنان : جن .

فقربوا نهجهم فالروح واحـــدة وكلهم في مجـــال السبق اقران
وحببوا لغة العرب الفصاح لهـــم فـــان خذلانها للشرق خـــذلان
قولوا لهـــم انها عنـــوان وحدتهم وانهـــم حولهـــا جنـــد واعوان

واهاب بالعرب ان يثبوا الى تحقيق آمالهم وثبا ، وان يطيروا الى العلا طيرانا ، ليستعيدوا مكانتهم الاولى ، حضارتهم الزاهرة ، ضرب لهم مثالا من مصر الجادة في نهضتها ، حتى لقد استعادت عصر العروبة الذهبي :

امة العرب آن ان ينهضي النســ ـــر فقـــد طـــال عهد الرقـــود
صفقي بالجنـــاح في اذن النجـــ ـــم ومدى فضل العنان وسودى
واعيـــدي حضارة زانت الدنـــ ـــيا فكم ودت المنى ان تعيـــدى
انما المجـــد ان تريدي وتمضي ثم تمضـــي سباقة وتريـــدى
لا ينال العـــلا سوى عبقـــري راسخ العزم كالصفاة جليـــد
قد اعدنا عهـــد العـــروبة في مصر وذكـــرى فردوسها المفقـــود

ويقول في حفز العزائم أيضا :

يا امـــة العرب اركضي ملء العنان ولا تهيدى
سودى فآمـــال المنـــى والعبقرية ان تسودى
هذا أوان العدو لا الـــ ابطـــاء والمشي الوئيـــد
المجـــد ان تتوثبـــي واذا وثبت فلا تحيدي
وتحلقي فوق النجـــو م بلا شـــبيه أو نديد
واذا شدا الـــكون المقا خر كنت عنوان النشيد
لا تخطئي حد العـــلا ما للمعالي من حـــدود
من يصطد النمر الوثو ب يعف عن صيد الفهود

ويهتف بالعرب ان يعتصموا بوحدتهم ليراهم العدو جماعة في فرد ، وفردا في جمـــاعة ، ويحثهم على ان يجددوا آمالهم واعمالهم ، والا يقنعوا بمطلب ينالونه • ثم يذكرهم ببطولتهم وبانهم ابناء الحروب الفوهـــا والفتهم ، واستحلوا غبارها فكان في افواههم الذ من الشهد وأطيب من المسك ، ويعقب على هذا بان لقاء القوة بالقوة لا مفر منه اذا لم يكن في الحلم نفع للحليم • وانه ليلمح بهذا الى ان واجب العرب ان يحاربوا للذود عن وحدتهم اذا ما اضطروا الى الحرب :

اولئك ابناء العروبة ما لهـــــم عن الفضل منأى او عن المجد منزع
هم في ظلال الحق جمع موحـــد وعند التقاء الرأي فرد مجمـــع
وقد يدرك الغايات رأي مـــدرع اذا ناء بالامر الـــكمى المـــدرع
لهم امل لا ينتهي عنـــد مطلب لقد ذل من يعطى القليل فيقنـــع
غبار رحى الهيجاء في لهواتهـــم من الشهد احلى او من المسك اضوع
اذا لم يكن حلـــم الحليم بنافـــع فان صدام الجهل بالجهل انفع

ولما أعلن انتهاء الحرب الـــكبرى في مايو سنة ١٩٤٥ استقبل الجارم هذه البشرى بالابتهاج والتأييد ورسم صورا لامانيه ، ومن هذه الاماني

أن يسترد العرب عزمهم واستقلالهم :

ليت شعري ماذا سنجني من النصـ ـــر وهل تصدق الليالي الوعـــودا
وهل الاربـــع الروائـــع كـــانت حلمـــا. ام مواثقنـا وعهـــودا(٣)
وهـــل العـــرب تسترد حماهـــا وتنـــاجي فردوسهـــا المفقـــودا
وترى في السلام مجـــدا طريفـــا جاء يحيي بالامس مجدا تليـــــدا

ابتهاجه بالجامعة العربية :

ثم تحقق الحلم ، واستهلت الجامعة العربية سنة ١٩٤٤ فابتهج الجارم ايما ابتهاج وتغنى ببهجته في قصيدة طويلة تحدث فيها عن يقظة الشرق ، ونهضته الجديدة ، ووحـدته المباركة ، واتفاقه في السياسة العامة ، وهو يريد بالشرق الامة العربية التي وقعت ميثاق الجامعة ، وكثيرا ما كان الشعراء يطلقون كلمة الشرق وهم لا يريدون به الا الوطن العربي :

صحا الشرق وانجاب الكرى عن عيونه وليس لمن رام الـكواكب مضجـــع
اذا كان في احـلام ماضيه رائعـــا فنهضـــته الـكبرى اجـــل واروع
توحد حتى صار قلبـــا تحوطـــــه قلوب من العـــرب الـكرام واضلع
وارسلهـــا في الخافقـــين وثيقـــة لهـــا الحب يملي والوفاء يوقـــع
لقد كان حلما ان نرى الشرق وحدة ولـــكن من الاحـــلام ما يتـــوقع
اذا عـــددت راياتـــه فهـــي رايـــة وان كثرت اوطانه فهي موضـــــع
فليست حدود الارض تفصل بيننا لنا الشرق حد والعروبة موقـــــع

لكن هذه الجامعة الوليدة في حاجة الى يقظة واعية ، وعيون ساهرة ، وقوة حامية ، لان الدول الغربية كانت تحسبها جامعة صورية فاذا هي جامعة حقيقية عملية ، واذا هي تمهيد لوحدة أقوى وأصلب وأعظم • وهو في هذه المناسبة يذكر العرب بأن الدول الاوربية قد تنمرت وفغرت أفواهها لتثأر لنفسها من غزوات العرب الماضية • ولا يقتصر على التذكير ، بل يشفع اليه حماسة يقتبسها من الماضي ، وفخارا يستمده من الحاضر ، لتعظم ثقة العرب بانفسهم وقوتهم ، فلا يضعفهم تهديد الغرب ولا وعيده :

تنمر الغرب واحمرت مخالبـــه وارهفت نابهـــا للفتـــك ذؤبان
ثارات طارق الاولى تؤرقهـــــم وما لـــــا تترك الثارات نسيان
تيقظ الليث ليث الشرق محتدما فأرتج منه الثرى واهتز خفـــان
غضبان رد الى اليافوخ عفرتـــه ومن يصاول ليثا وهـــو غضبان
لقد حمينا اباة الضيم حوزتنـــا من ان تباح ودناهم كمـــا دانوا

اما بعد : فقد كانت الوحدة العربية حلما من أحلام الادباء ، وامنية من أماني الساسة ، ثم أراد الله لها ان تصير حقيقة توشك ان تتحقق ، ولـكن بعد ان مات الادباء الذين ناجوها ، وقضى الساسة الذين ناغوها ، فليتهم عاشوا حتى رأوها وهي تبشر بالشروق السعيد •

---

(٣) الحريات الاربع في ميثاق الاطلنطي •

موسيقى الأدب

الدكتور بدوي طبانة

(١)

وتلعب الموسيقى دورا كبيرا في الأدب سواء أكان أدبا منظوما أم أدبا منثورا . والموسيقى في الاسلوب من أهم خصائص الفن الادبي ، بل هي في مقدمة ما يميزه من لغة التخاطب التي يتفاهم بها الناس في حياتهم اليومية . وهي في الوقت نفسه عامل كبير من عوامل التأثير في نفس القارئ والسامع ، ذلك التأثير الذي يعد أهم الغايات التي يرمي اليها الفن الأدبي ، ويسعى الاديب ما وسعه السعي في سبيل تحقيقها .

وتأثير الموسيقى في نفس مستقبل العمل الادبي يبدو أكثر وضوحا عند السامع ، الذي يجد في متعة الاذن بالانصات الى الاصوات الشائقة مثل الذي يجد في متعة العين بالمناظر الفاتنة ، ومتعة الذوق بالطعوم الممتازة .

ولكل حاسة من حواس الانسان لذة تصل الى أعماق النفس ، وتؤثر في القلب ، حتى لقد ذهب بعض الباحثين الى أن « كل صناعة تعمل باليدين فان الهيولى الموضوعة فيها انما هي أجسام طبيعية ، ومصنوعاتها كلها أشكال جسمانية الا الصناعة الموسيقية ؛ فان الهيولى الموضوعة فيها كلها جواهر روحانية ، وهي نفوس المستمعين ، وتأثيراتها كلها روحانية أيضا ، وذلك أن ألحان الموسيقى أصوات ونغمات ، ولها في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصناع في الهيوليات الموضوعة في صناعتهم . فمن تلك النغمات والاصوات ما يحرك النفوس نحو الاعمال الشاقة والصنائع المتعبة ، وينشطها ويقوي عزماتها على الاعمال الصعبة المتعبة للأبدان والتي تبذل فيها مهج النفوس وذخائر الاموال ، وهي الالحان المشجعة التي تستعمل في الحروب ، وعند القتال في الهيجاء ، ولاسيما اذا غني معها بأبيات موزونة في وصف الحروب ، ومديح الشجعان .. ومن الالحان والنغمات أيضا ما يسكن سورة الغضب ، ويحل الأحقاد ، ويوقع الصلح ، ويكسب الألفة والمحبة[١] .

والى أثر الصوت في النفس ، وبعد عمله في القلب أشار الشاعر الأعمى بشار بن برد في قوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشـقة والأذن تعشق قبل العين أحيـانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعـين توفي القلب ما كانا

وشبه صوت صاحبته بتلك التشبيهات الجميلة التي لا يحس روعة جمالها الا المبصرون :

وكـأن رجـع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكـان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

فقد وجد ذلك الشاعر الذي حرم متعة النظر الى من يهوى ما يتشهى فيما يسمع من حديث حبيبه ، وفي صوته العذب الرخيم .

وتلك صورة مما تفعل الموسيقى في نفس السامع ، وما تهز من مشاعره تلك المتعة التي يحسها في تعاقب المقاطع المنغومة ، وتواتر الالفاظ ذوات الرنين الموسيقي .

والمتعة هنـا لا تختلف عن تلك المتعة التي يجدها في الالحان التي تصدر عن الآلات الموسيقية ، وفي الغناء الذي يترنم به الحذاق من المغنين والمجيدات من القيان ، وفي الالحان التي يسمعها من تغاريد الطيور . وهي كما قدمنا لا تختلف في أثرها عن متعة النظر التي يحس بها المبصرون ، والتي عبر عنها عمر بن أبي ربيعة في قوله :

اني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا هم لي فيه الا متعة النظر

ومصدر تلك المتعة هـو ذلك الاتساق الذي يحس الانسان حلاوته ويجده في ذلك التكرار المتناسق للمقاطع والاصوات ، وفقا لنظام طبيعي يجده الانسان في الطبيعة من غير تدخل منه ، ثم يحدثه بصوته بفمه أو بلسانه ، أو بيده موقعا على بعض الآلات تقليدا للطبيعة أو محاكاة لها ، مراعيا التناسق بين الوحدات المؤتلفة في الانغام ، ليجد فيما يستطيع أن يصنعه بفمه أو بيده ما كان يجد في أصوات بعض الطيور ، أو في صفير الرياح ، وحفيف الاشجار ، وخرير المياه ، أو في غير ذلك مما كان يسمع في الطبيعة .

وهنالك ما يسوغ الى حد ما قول « شوبنهور » الذي قاله بعد تأمل ، وهو أن الموسيقى تكرار لعالم الحواس بأسره ، وأنها طريقة أخرى للتعبير عن الارادة أو الجوهر الباطن .. « فلاشك أن عالم الصوت له القدرة على التنوع الذي لا نهاية له . ولو كانت حاسة السمع لدينا مرهفة حقا لادركنا أن عالم السمع له أيضا القدرة على الامتداد الذي لا نهاية له ، وهو لا يقل عن عالم المادة في اثارة اهتمامنا وايقاظ انفعالاتنا ، وله بالقوة من المعنى ما لا يقل عن عالم المادة ، الا أنه بالفعل أقل ثباتا وأصعب استخداما . ولذلك فالموسيقى التي تعتمد على المواد الصوتية انمـا هي أقـل الفنون الانسانية تعليما ، وان كانت أكثرها صفاء وتأثيرا .. »

وتقوم لذة الاصوات على أساس فيزيقي بسيط ، فجميع الاحساسات لا تكون مصدر لذة الا حينما تقع بين درجات معينة من الحدة . ولـكن الاذن

تستطيع أن تميز بسهولة بين الاصوات التي هي في ذاتها غير شائقة ، ان لم تكن تحدث الضيق في النفس ، وبين النغمات التي لها جاذبية لا يغفل عنها الانسان ، ويصبح الصوت نغمة حينما تتكرر النبضات الهوائية التي تحدثه على فترات منتظمة • أما اذا لم يتحقق هذا التكرار المنتظم للموجات فان الصوت يصبح مجرد ضوضاء • وسرعة هذه الدقات المنتظمة تحدد مقام هذه الانغام ؛ والذي يميز صوتين من نفس المقام والحدة هو اختلافهما في مدى تعقيد الموجات في الهواء ، ولذلك كانت القدرة على التمييز بين الموجات المختنقة في الهواء المذبذب شرطا لازما للاحساس بالموسيقى فلكل موجة طولها الخاص • وما نسميه ضوضاء ليس الا خليطا من نغمات بلغ التعقيد فيها حدا بعيدا ، بحيث يتعذر على سمعنا أو انتباهنا التمييز بينها[٣] •••

وذلك الذي يقال عن موسيقى الاصوات واختلافها وتأثيرها في الآذان ، وعن الضوضاء التي تنجم عن الاصوات أو الدقات غير المنتظمة ، يقال مثله في الكلام وضروب التعبير •

فلغة التخاطب التي تجري بين الناس في محاوراتهم وحياتهم اليومية لا يقصد فيها الى النغم ولا الى التأثير ، وانما هدفها الافادة والافهام ، أما موسيقى اللفظ أو موسيقى العبارة في الادب ، أو ما نسميه لغة الادب ، فان الاديب يتحرى فيها الجمال ويبحث عنه ، لتمتاز لغته بوجه عام عن اللغة التي يستعملها سواد الناس •

وأهم مظاهر هذا الجمال تلك الموسيقى اللفظية التي تحدث ذلك التأثير الذي أسلفناه عن الموسيقى الصوتية ، بل ان موسيقى الالفاظ في حقيقتها ليست الا ضربا من ضروب الموسيقى الصوتية ، لان اللغة بوجه عام هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهذا هو التعريف العام للغة •

وتحتفظ لغة الادب بخصيصة التأثير عن طريق استخدام تلك الاصوات أو المقاطع والالفاظ التي تتكون منها استخداما يصبغها بالصبغة الموسيقية • وهذا من أبرز الدلائل على الفنية في التعبير الادبي • والفنية في ذات الاديب ، ذلك لان واضع اللغة لم يراع أي تناسق صوتي في الالفاظ ، ولا تحرى وصفا خاصا بدلالتها على المعاني التي أراد بها التعبير عنها • وانما اصطلح أصحاب اللغة على استعمال ألفاظ بعينها للدلالة على معان بعينها ، كائنة تلك الالفاظ ما كانت من حيث توافر ذلك التناسق أو فقدانه لان لها هدفا واحدا هو الابانة عن المعاني ، والكشف عن ضمير المتكلم بها كما يعرفها المجتمع اللغوي •

وهذا هو السبب في اختلاف طبقات الالفاظ حتى كان منها ما وصفه نقاد الأدب بالجزالة، وما وصفوه بالرقة أو السلاسة أو العذوبة أو السهولة • كما كان منها ما هو شديد الوقع على الاسماع ، وما وصفوه بالحوشية أو الوحشية •

على أنهم بالرغم من تلك الاوصاف التي يحس الانسان بمدلولها ، ويشعر بما يدل على الرضا في بعضها ، وما يجد من النفور من بعضها الاخر ، لم يستطع النقاد أو الخبراء بفن الادب أن يضعوا الحدود الفاصلة بين هذه وتلك ، وربما ورد في بعض أمثلتهم لضرب منها ما يمكن أن يتداخل في ضرب آخر ، والضربان كما يبدو على طرفي نقيض ، او أن بينهما فروقا وخلافا في الاقل ، ولولا تلك الفروق والاختلافات لم يكن ما يدعو الى ما حاولوا من التقسيم الذي صنعوه ، لان من شروط القسمة الصحيحة عدم التداخل بين الاقسام .

والسبب الحقيقي في ذلك الاختلاف هو موسيقى الالفاظ التي صعب عليهم تحديد حقائقها بالكلمات أو بالحدود والتعريفات . ولذلك كان حكم الذوق وحده هو الفيصل الاصيل بين لفظ ولفظ ، لانه أثر التأثر المتفاوت بين تلك الالفاظ .

ويتنازع هذا الذوق طرفان هما الاديب صاحب الادب وصانعه والناقد الادبي ، أو ثلاثة أطراف هي الاديب الذي منح القدرة على المفاضلة بين ألفاظ اللغة والتمييز بين أصواتها ومقاطعها ، وهذا شرط أولي فيه ، ثم الناقد ولابد أن يكون عنده من الذوق ما يستطيع به المفاضلة بين لفظ ولفظ ، والمفروض في هذا الناقد أن يكون ذا حظ عظيم من الخبرة بفن الادب ، والمعرفة الكاملة بمناهج الادباء وأهم خصائص هذا الفن وتقاليده المأثورة عن أعلامه في مختلف العصور . ثم المستمع أو القارىء الذي يستقبل هذه الاعمال الادبية ، وهو من غير شك يحس تلقائيا بمبعث نشوته من عمل أدبي ، وسبب نفوره من عمل أدبي آخر ، وان يكن القارىء أو السامع — في كثير من الاحيان — ليس على تلك الدرجة من الاحساس بالتفاوت الموسيقي بين الالفاظ التي يستعملها الادباء ، ولا تلك الدرجة التي بلغها النقاد الذين أصبحوا طائفة خاصة متميزة بين طبقات المجتمع .

واذا كان الجمال احدى الغايات التي يسعى الاديب لتحقيقها في فنه ، وكان أخص خصائص تعبيره ، فان عملية المفاضلة ، أو عملية الاختيار أو الانتقاء ، من أهم الجهود التي يبذلها في تصوير تجربته ، وهو فوق اندفاعه في طلب الموسيقى — مدفوعا بحاسته الفنية — يتتبع أعمال الذين سبقوه من الادباء الذين اعتبروا أئمة للفن الادبي ، وأصبحت اتجاهاتهم تقاليد ينظر فيها الذين يجيئون بعدهم ، ويقيس أكثر النقاد الادب الذي يعرض عليهم في ضوء تعاليمها ، وفي هدى أصولها التي أصبحت من أهم المقاييس عندهم .

وسواء أكان الادباء الاولون قد وقعت لهم تلك الموسيقى عفوا في خطواتهم الاولى التي وفقوا فيها الى أقل وحدة من وحدات العمل الادبي ، وفي تدرجهم نحو الصورة الكاملة للفن الادبي ، أم وقعت منهم قصدا في تقليد ما أعجبهم من موسيقى الطبيعة ، فلا شك أنها حظيت باعجاب الذين استمعوا الى تلك الكلمات الملحونة ، فاستمتعوا بها ، وأحسوا بنشوة

أخذت بألبابهم ، عبر عنها الشاعر القديم في قوله :

وحديث ألذه هـــو ممـا تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ماكان لحنا

ويرجع بعض الباحثين الى الحكماء استخراج كل فن من الفنون أو كل صناعة من الصناعات ، وكذلك يرجعون اليهم صناعة الموسيقى التي تعلمها الناس عنهم ، واستعملوها بحسب أغراضهم المختلفة ، وكذلك يجعلون لشيوع الموسيقى علـة دينية ، لـكثرة استعمالها في العبادات والطقوس الدينية ، فأصحاب النواميس الالهية كانوا يستعملونها في الهياكل وبيوت العبادات ، وعند القراءة في الصلوات ، وعند تقديم القرابين والدعاء والتضرع والبكاء ، كما كان يفعل داود النبي عليه السلام عند قراءة مزاميره ، وكما يفعل النصارى في كنائسهم ، والمسلمون في مساجدهم من طيب النغمة ولحن القراءة • وكل ذلك كان لرقة القلوب ، ولخضوع النفس وخشوعهـا ، والانقياد لاوامر الله تعالى ، والتوبة اليه من الذنوب والرجوع اليه باتباع النواميس كما رسمت(٣) •••

وسواء أكان الادباء الاولون من رجال الدين أم لم يكونوا من رجاله ، وسواء أمكن عدهم من طبقة الحكماء ام لم يمكن ، فانهم كانوا في جميع الاحوال هم الذين وضعوا أسس هذه التقاليد في الفن الادبي • ونحن نعرف أن فن الشعر بوجه خاص كان ينشد في المجامع والاسواق ، وكان الشعراء يترنمـون به بين أيدي السـادة والملوك ، والصلة بين الموسيقى والغناء لا يستطيع أحد أن ينكرها • وقد كان الشعر هو مادة الغناء والانشاد عند جميع الامم في جميع العصور بكل لغة من اللغات الانسانية •

ولاشك أن من أبرز خصائص الموسيقى والغناء ما يكون فيهما من ترديد الانغام وتكرير المقاطع والاصوات في توافق وانسجام • والترديد والتكرار سر من أعظم الاسرار في الاحساس بلذة النغم أو جمال الصوت ، يعرفه أرباب الموسيقى وأصحاب الغناء ، ويحسه الذين يتذوقونهما من الناس •

وكذلك الاحساس بموسيقية الالفاظ والتراكيب يهتدي اليها الادباء بفطرتهم ، وكذلك يهتدي اليها الخبراء بالفن الادبي ، والقادرون على ادراك ما فيه من جمال سببه ما اجتمع له من التناسق والانسجام •

ولـكن هذا الترديد يبدو أكثر وضوحا في العبارة المركبة التي تتعدد اجزاؤها وتترادف جملهـا على اللسان وعلى السمع ، فتتكرر فيها معـالم الموسيقى وتبدو واضحة للأدباء الذين يؤلفون القصائد من الشعر والفصول من الـكلام المنثور ، وتبدو كذلك لجمهور الذين يستمعون الى العمل الادبي أو يقرءونه • ولقد استطاع الدارسون أن يتبينوا في وضوح معالم الموسيقى في الاسلوب الادبي ، وأن يحصوا مظاهرها في فنون التعبير ، ويضعوا لهـا الالقاب المختلفة المميزة لـكل مظهر منها •

أما اللفظ المفرد فان موسيقاه لم يكن من اليسير تحديد المعالم الواضحة لها المبينة عن حقائقها ، والدالة على مبعث التأثير فيها أو أسرار موسيقاها .

أو بعبارة أخرى لم يستطع الباحثون عن مقاطع الكلمة أو حروفها التي تكسبها الموسيقى أو تسلبها اياها ، وتختلف اللغات بعضها عن بعض في نطق بعض الحروف ، والاحساس بخفة بعضها ، وثقل بعضها الآخر .

كما أن بعض مخارج الحروف المألوفة في لغة من اللغات قد تكون ثقيلة على أصحاب لغة أخرى . بل قد يكون من العسير عليهم النطق ببعض الحروف التي تكون في لغة أخرى ولا تكون في لغتهم كحروف الضاد والظاء والصاد والقاف والعين التي ينطقها أهل العربية بيسر سهولة لانها مألوفة عندهم ، ويصعب على غيرهم من أصحاب اللغات الاخرى النطق بها . وحرف (الخاء) ينطقه بعضهم بسهولة ، ويعجزون عجزا تاما عن نطق حرف (الحاء) مثلا ، ويضطرون الى ابداله هاء . ولقد حاولت هذا بنفسي مع بعض الاجانب وأعيتني الحيل في تمكينهم من نطق حرف الحاء ، الذي كانوا ينطقونه خاء . وكانوا من كبار السن ، ولا تفسير لذلك الا أنهم لم يعودوا نطق هــذا الحرف منذ صغرهم كما عوده أبناء العربية . وكذلك بعض الحروف المألوفة في لغات أجنبية يتعذر على المتكلم العربي النطق بها ، لعدم وجودها في لغته كالحرف (P) مثلا ، وقد روى أحمد بن فارس(٤) قال : حدثني علي بن أحمد الصباحي ، قال : سمعت ابن دريد يقول : حروف لا تتكلم بها العرب الا ضرورة ، فاذا اضطروا اليها حولوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف من مخارجها . فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء مثل « پور » اذا اضطروا فقالوا « فور » . قال ابن فارس : أما الذي ذكسره ابن دريد في « پور » و « فور » فصحيح ، وذلك أن « پور » ليس من كلام العرب ، فلذلك يحتاج العربي عند تعريبه اياه أن يصيره فاء .

كذلك لم تألف العربية البدء بحرف ساكن ، ولا الجمع بين ساكنين ، ولا الوقوف على متحرك ، ولذلك يصعب على أهلها ذلك ، وان كان مألوفا في غيرها من اللغات ..

(للبحث صلة)

●

المصادر :

(١) رسائل اخوان الصفاء : القسم الاول ١١٤ .

(٢) الاحساس بالجمــال : تخطيط لنظرية في علــم الجمال : جورج سانتيانا ٩٦ .

(٣) فصل في أن أصل صناعة الموسيقى للحكماء ، من رسائل اخوان الصفاء ١/١١٥ .

(٤) ابن فارس : الـكتاب الصاحبي ٢٤ .

كتب العرب في الموسيقى

عبد الكريم العلاف

للعرب مؤلفات قيمة في الموسيقى بلغ بعضها الذروة في التأليف وكانت ولا تزال من المصادر المعتبرة في تاريخ الموسيقى وتطورها وقد يكون كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وكتاب مروج الذهب للمسعودي من أكثر الكتب بحثا وكتابة عن اشتغال العرب في الموسيقى ،

وهذا بيان شامل بأسماء المؤلفات وأصحابها الذين عنوا بالموسيقى العربية عناية كبرى ، وخلدوا لها ذكرا طيبا في العالم ،

١ ـ الخليل بن احمد الفراهيدي ،

مات في القرن الثاني للهجرة سنة ١٧٠ الف كتاب (الضروب والضروبات في الموازين) وكتاب في (النفحات) ٠

٢ ـ ابن العوراء ،

مات في القرن الثالث للهجرة ووضع مجموعة في الاغاني ٠

٣ ـ اسحق بن ابراهيم الموصلي ،

مات في القرن الثالث للهجرة سنة ٢٣٥ ويقال انه الف ثلاثة وثلاثين كتابا من بينها ،

(١) كتاب (الاغاني) التي لحنها ،
(٢) كتاب (معبد) ،
(٣) كتاب (تاريخ الاغاني) التي الفها الخليفة العباسي الواثق ،
(٤) كتاب (الاصوات والموازين) بالارقام التي تفسرها ،
(٥) كتاب (مغنيات ورواقصات الحجاز) ،
(٦) كتاب (الكبير للأغاني) ،
(٧) كتاب (البيان بالمغنين عند العرب) ٠

٤ ـ يعقوب بن اسحق الكندي ،

مات في القرن الثالث للهجرة سنة ٢٤٨ وله ست مؤلفات وهي :

(١) كتاب في (التلحين) ٠

(٢) كتاب (ترتيب الابعاد الصوتية) .
(٣) كتاب (العناصر الموسيقية) .
(٤) كتاب (الميزان الموسيقي) .
(٥) كتاب (الآلات الموسيقية) .
(٦) كتاب (اتحاد الموسيقى والشعر) .

وهذه الكتب محفوظة في المتحف البريطاني بلندن ، وقد نشر بعضها في الآونة الاخيرة .

٥ ــ موسى بن شاكر ،

واخوته وهم ثلاثة احدهم اسمه محمد مات في القرن الثالث للهجرة سنة ٢٥٠ وقد الفوا كتابا في العلوم الرياضية ضمنوه بعض الفصول في الموسيقى ،

٦ ــ أحمد بن محمد بن مروان السرخسي ،

مات في القرن الثالث للهجرة وله ثلاث مؤلفات في الموسيقى وهي ،
(١) (الكتاب الكبير) وفيه مقالان ،
(٢) (الكتاب الصغير) يحتوي على خمسة عشر فصلا ،
(٣) كتاب (المدخول في الموسيقى) .

٧ ــ ثابت بن قرة ،

مات في القرن الثالث للهجرة سنة ٢٨٨ له كتاب في الموسيقى ،

٨ ــ يحي بن علي المنجم ،

مات آخر القرن الثالث للهجرة سنة ٣٠٠ له رسالة في الموسيقى محفوظة في المتحف البريطاني بلندن .

٩ ــ عبدالله بن عبدالله بن طاهر المعروف بأبن أحمد ،

مات أواخر القرن الثالث للهجرة له كتاب في الموسيقى ،

١٠ ــ أحمد بن زكريا الرازي ،

مات في القرن الرابع للهجرة الف رسالة في الموسيقى واخرى في الغناء وهما في المكتبة الاهلية بباريس .

١١ ــ أبو النصر محمد بن طرخان الفارابي ،

مات في القرن الرابع للهجرة سنة ٣٣٩ له كتاب في الموسيقى منه نسخة خطية محفوظة في مكتبة ليد وله كتاب (المدخل) في صناعة الموسيقى محفوظ في مكتبة (نور عثمانية) بالاستانة برقم ٩٥٣ نقلت عنه نسخة بالفوتوغراف محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٥١ ويقال ان الفارابي اخترع الآلة المعروفة بالقانون(١) .

١٢ـ أبو الحسن علي المسعودي ،

مات في القرن الرابع للهجرة سنة ٣٤٦ له رسالة في الموسيقى ضمن كتابه (الزلف) ·

١٣ـ أبو الحسن البرمكي ،

مات في القرن الرابع له كتاب اسمه (لاعبات الطنبور) ·

١٤ـ أبو علي الحسين بن سينا ،

مات في القرن الخامس للهجرة سنة ٤٧٨ له فصل في الموسيقى في الرسالة الثانية عشرة في كتابه (الشفاء) منه نسخة محفوظة في مكتبة الشؤون الهندية بلندن ·

١٥ـ أبو منصور الحسين بن محمد بن عمر بن زيلع ،

له كتاب اسمه (الكافي) في الموسيقى ،

١٦ـ ابن الصلت بن عبدالعزيز العمري ،

مات في القرن السادس سنة ٥٦١ له رسالة في الموسيقى نسخة منها في مكتبة مدريد ،

١٧ـ اخوان الصفا :

لهم رسالة في الموسيقى استخرجت من كتابهم المسمى (رسائل اخوان الصفا) منها نسخ في كل من مكتبة باريس ومكتبة ليد ومكتبة غوتا الاهلية نسخة واحدة ·

١٨ـ محمد بن أحمد الحداد :

مات في القرن السادس له رسالة في الموسيقى وفي مكتبة مدريد الملكية نسخة منها ·

١٩ـ أبو عبدالله محمد الخوارزمي :

ويلقب بالكاتب وهو من رجال المعارف والموسوعات ، وقد تكلم في الموسيقى في كتابه المسمى (قاموس الاصطلاحات الفنية لنساخي الكتب) وكذلك في كتابه المسمى (مفاتيح العلوم) ومن الكتاب الاخير نسخة في مكتبة ليد الاهلية ·

٢٠ـ أبو الوفا :

له رسالة في الموسيقى عن الغناء وعن آلات النفخ والآلات الوترية ومنه نسخة في المتحف البريطاني بلندن ·

٢١ـ أبو محمد المنذري :

مات في القرن السابع للهجرة له كتاب اسمه (الترغيب) ·

٢٢ـ صفي الدين بن عبد المؤمن البغدادي :

ويعرف باسم صفي الدين الأرموي وقد عاش في عصر المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في منتصف القرن السابع للهجرة مات سنة ٦٥٦ وله كتاب اسمه (الأدوار) في علم الموسيقى وهو كتاب خطي محفوظ في مكتبة نور عثمانية بالاستانة برقم ٣٦٥٦ كتب سنة ٦٣٣ هجرية ونقلت عنه صورة بالفوتوغراف محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٦ (فنون جميلة) وله كتاب (الشرفية) وهو كتاب خطي محفوظ بمكتبة نور عثمانية السالفة الذكر وفي مصر نسخة منه محفوظ بدار كتبها .

٢٣ـ الكامل بن سبعين :

منسوب له كتاب (الأدوار في حل الأوتار) هو نسخة خطية محفوظ في دار الكتب المصرية وقد كتبت سنة ١٣٠٨ هجرية نقلا عن نسخة اصلية بخط عبد الله الشهروردي كتبت سنة ٧٢٧ هجرية ويوجد في آخر هذا الكتاب بضعة من أدوار العرب القديمة مدونة بالعلامات الموسيقية العربية (نوتة) وهذا دور منها كما ورد في الكتاب المذكور :

ـ[طريقة في نوروز]ـ

(ضرب الرمل)

(الصوت)

على صبكم يا حاكمين ترفقوا ... ومن وصلكم يوما عليه تصدقوا
ولا تتلفوه بالصدود فانه ... يحاذر ان يشكو اليكم ويشفق

على صبكم	يا سا	كمين	تر	ف	قوا	ومن وصلكم	يوما	عيه	تص	د	قوا
يه	يب	ي	يب	ي	ح	يه	يب	ي	ب	ي	ح
١٨	٦	٦	٦	٢	١٢	١٨	٦	٦	٦	٢	١٢
نوى	جهاركاه	سيكاه	جاركاه	سيكاه	دوكاه	نوى	جاركاه	سيكاه	جهاركاه	سيكاه	دوكاه

وقد ترجمت هذه العلامات بالاسماء الفارسية الموسيقية تنويرا للاذهان .

٢٤ـ شهاب الدين بن حجلة المغربي :

مات في القرن السابع وله فصل موسيقي هو الفصل الثامن عشر من

كتابه المسمى (ديوان الصبابة) اورد فيه بعض قصص مختصرة في المنشدين والمنشدات في العشق والغرام وعن غنائهم وآلاتهم ٠

٢٥ـ محمد الصلاحي :
له كتاب عن اباحة استعمال الآلات ٠

٢٦ـ محمد بن ابي بكر الشيرواني ٠
مات في القرن الثامن له نبذة نقلها عن رسالة (اخوان الصفا) محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس ٠

٢٧ـ أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون :
له رسالة في الموسيقى ضمن كتابه المسمى (العبر) ٠

٢٨ـ كمال‌الدين ابو الفضل جعفر بن ثعلب الارفوي :
له كتاب اسمه (السرور والفائدة) يبحث في الموسيقى محفوظة في مكتبة مدريد الاهلية ٠

٢٩ـ محمد بن جابر :
وهو عربي من غرناطة مات في القرن الثامن للهجرة سنة ٧٤١ له موجز على أصول الموسيقى العالمية محفوظ في (الاسكوريال)(٣) ٠

٣٠ـ محمد بن لاملي :
مات في القرن الثامن للهجرة سنة ٧١٦ وله كتاب في الموسيقى ٠

٣١ـ محمد بن أحمد بن جابر من البشرات(٤) :
مات في القرن الثامن للهجرة سنة ٧٤١ له كتاب في الموسيقى ٠

٣٢ـ محمد الشلبي :
هو عربي من اسبانيا له رسالة في الموسيقى محفوظة في (الأسكوريال) الآنفة الذكر ٠

٣٤ـ قطب‌الدين محمود بن منصور الشيرازي :
مات في القرن الثامن للهجرة سنة ٧١٠ هو فارسي الاصل له كتاب اسمه (درة التاج في عزة الديباج) اختص بقسم منه في الموسيقى وله كتاب شرح وبحث فيه كتاب (الشرفية)(٥) لصفي‌الدين بن عبدالمؤمن البغدادي ٠

٣٤ـ أبو الفرج علي بن الحسن :
مات في القرن الثامن للهجرة سنة ٧٢١ له كتاب في الموسيقى ٠

٣٥ـ لسان‌الدين بن الخطيب :
مات في القرن الثامن للهجرة سنة ٧٤١ له كتاب في الموسيقى ٠

٣٦ـ محمد بن عيسى أبو عبدالله حسن‌الدين بن فتح‌الدين الامباري :

مات في القرن التاسع للهجرة سنة ٨٣٨ له ثلاث مؤلفات وهي :

(١) (مقاصد الالحان) ·

(٢) (جامع الالحان) الذي يشرح كتاب (الادوار) لصفي‌الدين بن عبدالمؤمن البغدادي ·

(٣) (كنز الالحان) ويدعى معاصروه انه دون فيه مؤلفاته والحانه الموسيقية ·

٣٧ـ خضر بن عبدالله :

له رسالة في الموسيقى كتبت باللغة التركية محفوظة بدار الكتب في برلين ونسخة محفوظة في مكتبة (يكتابك)(٦) الخصوصية في الاستانة ·

٣٨ـ أحمد اوغلو شكرالله :

ترجم الى العربية كتاب (الادوار) لصفي‌الدين واضاف اليه واحدا وعشرين فصلا جديدا عن الآلات عند الاتراك وهذا الكتاب محفوظ في مكتبة (يكتابك) المشار اليه في الاستانة ·

٣٩ـ أحمد بن عبد ربه :

وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى (العقد الفريد) فيه بحث مسهب عن الموسيقى ·

٤٠ـ الشيخ شهاب‌الدين بن احمد الأبشيهي :

وهو صاحب كتاب (المستطرف) فيه رسالة عن الصوت الجميل ·

٤١ـ أبو بكر أحمد بن عفان المعروف بأبن دريج ،

له كتاب في الالحان أي مجموعة أغاني ·

٤٢ـ محمد بن عبدالحميد اللاذقي :

مات في القرن التاسع للهجرة سنة ٨٤٨ له رسالة (الفتحية) منها نسخة خطية محفوظة في مكتبة الاوقاف في بغداد ونسخة اخرى في مكتبة الدراويش (المولوية) في الاستانة ونسخة ثالثة بدار الكتب المصرية برقم ٧ وله كتاب آخر في الموسيقى في دار الكتب العثمانية في الاستانة ·

٤٣ـ محمد بن عبدالعزيز حفيد عبدالقادر بن غيبي :

له كتاب في الموسيقى اسمه (مقاصد الادوار) نسخة منه في مكتبة نور عثمانية برقم ٣٦٤٩ ·

٤٤ـ تقي الدين محمد بن علي المقريزي :

مات في القرن التاسع للهجرة سنة ٨٤٥ وله كتاب في الغناء ٠

٤٥ـ شمس الدين الصيداوي الدمشقي :

له كتاب (الانعام في معرفة الانغام وشرحه) منه نسخة في دار الكتب الاهلية بباريس ونسخة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٠ ٠

٤٦ـ محمد الجويني :

له كتاب مختصر في علم الموسيقى وهو نسخة خطية محفوظة في مكتبة نور عثمانية نقلت عنها صورة بالفوتوغراف محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٨ ٠

٤٧ـ شاه قباد بك عبدالجليل الحارثي :

له مجموعة رسائل في الموسيقى في المتحف البريطاني بلندن ٠

٤٨ـ عبدالباقي دده[٧] :

له كتاب فيه مباحث ودروس في الموسيقى وله كتاب يسمى (تحريرية) هو كتاب خطي كتبه بيده شرح فيه طريقة من طرائق العلامات الموسيقية لتدوينها وذلك من ابتكاره أساسها الحروف الهجائية ٠

٤٩ـ ميخائيل مشاقة :

له رسالة الشهابية في صناعة الموسيقى مهداة الى الامير شهاب طبعت في بيروت سنة ١٢٤٦ هجرية ٠

٥٠ـ محمد السفرجلاني :

له كتاب (السفينة الادبية) طبع في دمشق سنة ١٣٠٨ هجرية ٠

٥١ـ الشيخ عبدالغني النابلسي :

له كتاب اسمه (ايضاح الدلالات في سماع الآلات) ٠
طبع بمطبعة حجرية سنة ١٠٨٨ هجرية عن نسخة خطية للمؤلف ٠

٥٢ـ محمد أمين الديك :

له كتاب اسمه (نيل الارب في موسيقى الافرنج والعرب) طبع في القاهرة سنة ١٣٢٠ هجرية ٠

٥٣ـ الشيخ عثمان بن محمد الجندي :

له كتاب اسمه (روض المسرات) طبع في القاهرة سنة ١٣١٩ هجرية ٠

٥٤ــ محمد بن اسماعيل شهاب الدين :

له كتاب (سفينة الملك) طبع بمطبعة حجرية بالقاهرة سنة ١٠٨٨ هجرية ويضم هذا الكتاب ما ينوف على ٢٥٠ موشحا عربيا قديما بضروبها الموسيقية ٠

٥٥ــ درويش محمد :

له كتاب اسمه (صفا الاوقات في علم النغمات) طبع في القاهرة سنة ١٣٢٠ هجرية ٠

٥٦ــ أبو علي الفواتي :

له كتاب اسمه (كشف القناع في آلات الصناع) طبع في الجزائر سنة ١٣٢٠ هجرية ٠

٥٧ــ محمد كامل الخلعي :

له كتاب اسمه (الموسيقى الشرقي) طبع في القاهرة سنة ١٣٢٢ هجرية ٠

٥٨ــ عبدالكريم العلاف (كاتب هذا المقال) :

له ثلاثة كتب هي :

(١) كتاب اسمه (موجز الاغاني العراقية) طبع في بغداد سنة ١٣٥١ هجرية ٠

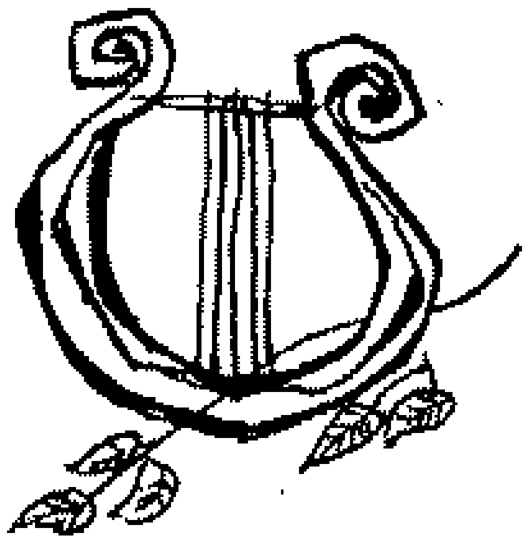
(٢) كتاب اسمه (الطرب عند العرب) طبع في بغداد طبعتين الطبعة الاولى سنة ١٣٦٤ هجرية والطبعة الثانية ببغداد أيضا سنة ١٣٨٢ والاخيرة جاءت مصورة ومهداة الى مطرب العراق الكبير الاستاذ محمد القبانجي ٠

(٣) كتاب اسمه (نيل المرام في قاموس الانغام) وهو كتاب خطي يبحث عن جميع الانغام الموسيقية الشرقية وخاصة (المقام العراقي) نشرت بحوث منه في مجلته (الفنون) التي انشئت سنة ١٣٥٢ هجرية يقابلها سنة ١٩٣٤ ميلادية ٠

وعلى ضوء هذه الكتب القيمة والآثار الثمينة المتعلقة بالمدونات الموسيقية العربية أقول :

ان كتب العرب الموسيقية احتوت الاصطلاحات العربية القديمة لتدوين الموسيقى ، ونزيد علما ان النغمات الموسيقية العربية القديمة أكثرها مشروحة شرحا كافيا بهذه الكتب ومزودة بالعلامات الموسيقية (النوتة) فضلا عن المعزوفات الموسيقية التي ألفها أبو النصر الفارابي التي دونها الاتراك بالعلامات الموسيقية الافرنجية العصرية فهي لاشك منقولة عن نسخ اصلية كتبت قديما بالاصطلاح العربي الذي كان معمولا به في عهد الفارابي ! ولم تمسها يد السوء رغما عن الحوادث التي كانت مليئة بالانقلابات والنكبات المتعددة

والفترة الزمنية الطويلة التي انطفأت فيها شعلة الموسيقى العربية النيرة واتلفت جل معالمها ! ولـكن الباقيات منها المحتوية على اجلى الاثار واوضحها موجودة فلنستمتع بها ونحافظ على كيانها فان ما فيها يعوض عن ما اندثر منها ولئلا تلحق يد الاهمال ما بقي بما تلف فيضيع علينا وعلى الاجيـال الآتية كل شيء ·



(١) الفارابي أول من ركب القانون هذا التركيب ولا زال عليه الى الان والفارابي اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ، ويحكى انه كان يوما في مجلس سيف الدولة الحمداني فسأله هل تحسن صناعة الغناء ؟ فقال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها واخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب عليها ضربا اخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج !!

(٢) اخوان الصفا جماعة من الفلاسفة الذين لخصـوا جميـع العلوم والمـعارف التي كانت معروفة في عصرهم في احدى وخمسين رسالة ·

(٣) الاسكوريال قرية في اسبانيا على بعد ٥٠٠ كيلومتر من مدريد فيها مكتبة مشهورة ·

(٤) البشرات بقعة جبلية في اسبانيا الجنوبية ·

(٥) سمي الشرفية لانه أهداه الى الامير شرف الدين هارون ·

(٦) يقال ان لدى الاستاذ رؤوف يكتا بك كثيرا من المخطوطات الموسيقيه العربية القديمة التي ابتاعها بكل غال ونفيس لا يوجد منها نسخة أخرى غير التي في حوزته ·

(٧) عبد الباقي دده كان في الماضي رئيسا لتكية (المولوية الواقعة في «يكى قبو») أي الباب الجديد والمولوية طريقة من الطرق الصوفية أسسها جلال الدين الرومي سـنة ٦٧٢ المدفون في مدينة قونية ·

الرقابة على المهن الطبية في الدولة
العربية الاسلامية

الدكتور داود سلمان علي

الرقابة على مهنة تدل على ارتقائها وعلى بلوغ المجتمع ـ الذي يضع القواعد والاصول لتنظيم مزاولتها لدفع الاذى عن أفراده وصيانة المهنة من الدخلاء عليها ـ مرحلة حضارية متقدمة ٠

ويمكن اعتبار الرقابة على المهن الطبية من أهم المظاهر الحضارية التي وصل اليها المجتمع العربي الاسلامي ٠

ولدراسة الموضوع يمكن تصنيف الرقابة عن المهن الطبيبة الى نوعين :ـ

١ ـ الرقابة المفروضة من داخل المهنة أي الشروط التي يضعها أفراد المهنة على الداخلين اليها ومن هو الاصلح لتعلمها ومزاولتها وبالتالي كيف تصان المهنة من الدخلاء ومن الذين ليس لهم جدارة في فروع هذه الصناعة ٠

٢ ـ الرقابة التي تفرضها السلطة على المزاولين للمهن الطبية للحفاظ على صحة المواطنين من سوء استعمال المتطبب ٠

يدخل في النوع الاول من الرقابة :ـ

أ ـ شروط انتقاء الذين يدرسون هذه الصناعة ٠

ب ـ اعدادهم وتدريبهم وتعليمهم وتنشئتهم على قواعد اكتسبت عبر العصور وأصبحت دستورا للمهنة ٠

جـ ـ امتحانهم فيما تعلموه وما أخذوه عن معلميهم ومقدار تشبثهم بآداب المهنة ٠ ويدخل في النوع الثاني من الرقابة :ـ

أ ـ اجازة المتطبب للعمل بعد التأكد من صلاحه علميا وعمليا ٠

ب ـ مراقبة أعماله وحسن قيامه وصحة تطبيق ما تعلمه وضمان وجود العدة اللازمة لديه ومنع من لا يثبت بانه اهل للقيام بواجبات الطبيب ٠ ولو رجعنا الى المراجع الطبية التي وصلتنا نجد فيها في باب الشروط المفروض توفرها في المدارس لهذه الصناعة ما يأتي ٠٠٠

يقول ابن ربن الطبري[١] وكتابه من اقدم المراجع في الطب العربي :

ان الذي يصلح من التلامذة للطب من كان حسنا ذاهنا ويجب عليه أن يكون وقورا رحيما جوادا رقيق الاطراف صبورا على التعب تاركا اللهو والعجب والحسد والكذب والغضب والنميمة والكسل عفيفا رفيقا .. » الى آخره .

ونجد في مرجع آخر متأخر عن الاول بأكثر من ثلاثمائة عام شروطا تكاد تكون في غاية التطرف ففي هذا المرجع[٢] يقول ابن هبل البغدادي :ـ

« ومما يستحب في متعلم هذه الصناعة ان يكون حسن الصورة والشكل محبوبا الى القلوب لا عبوسا ولا قطوبا تشتاق النفوس الى رؤيته وتهش الى محادثته » ثم يصف لونه وقوامه وعيونه ويديه وان يكون اسيل الخدين ثم يقول ... « اخلاقه محمودة متوسط فيما بين السرعة والبطء والجبن والتهور وان كان الجبان البطيء من الاطباء لنفسه خير من العجول المتهور » ... ثم يقول ... « ذكي الحواس مستيقظ الفطنة محبا للفضائل عاشقا للحكمة بالامور حسن الاخلاق طلق الشمائل عذب الكلام صادق اللهجة دين الضمير ، معروفا بالستر والعفاف . » هذا مختصر من فصل طويل فيه وصف دقيق يكاد ان يكون خيالا .

ويقول علي بن العباس المجوسي[٣] :ـ

« لا تبخلوا على من أراد تعلم هذه الصناعة من المستحقين لها بتعليمكم اياها لهم بلا اجرة ولا شرط ولا طلب مكافأة وصيروهم بمنزلة أولادكم وأولاد معلميكم وامنعوها من لا يستحقها من اشرار السفلة » .

وهذا خير دليل على ان الصناعة قد فرضت رقابة على الداخلين اليها .

ثم انهم وضعوا للمتعلم ما يشبه المنهج الدراسي وما يتوجب عليه دراسته لاستكمال معلوماته فيقول الرازي :[٤]

« ليس يكفي من أحكام صناعة الطب قراءة كتبها بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى ، الا ان من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبل التجربة كثيرا ومن زاول المرضى من غير ان يقرأ الكتب يفوته ويذهب عنه دلائل كثيرة ولا يشعر بها البتة ولا يمكن أن يلحق بها من مقدار عمره ولو كان أكثر الناس مزاولة للمرضى » .

ويقول المجوسي[٥] :ـ

« ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما للمارستانات ومواضع المرضى كثير المداولة لامورهم وأحوالهم مع الاستاذين من الحذاق من الاطباء كثير التفقد لاحوالهم والاعراض الظاهرة فيهم متذكرا لما كان قد قرأه من تلك احوال ومما يدل عليه من الخير والشر . »

واهتموا بتنشئة الطبيب على التمسك بالدين والاخلاق وآداب الطب التي توارثتها الصناعة الطبية منذ عهد ابقراط ليجعل الطبيب هذه الوصايا

دستورا للممارسة ورقيبا يضعه أمامه والقصة التالية اوردها القفطي[٦] عن حنين بن اسحق :ـ

وملخص القصة « عندما اشتهر حنين وسمع به الخليفة أراد اختبار مراعاته لآداب ممارسة الطب فطلب اليه ان يحضر سما قتالا واعدا اياه بالهدايا والعطايا فامتنع حنين من ذلك فخيره الخليفة بين الحياة الرغيدة والعيش المرفه وبين السجن والموت . ولم يفد ذلك وأصر على امتناعه فسجن سنة ثم جيء به مرة أخرى امام الخليفة الذي خيره بين النعيم وبين سيف الجلاد فقال حنين يا أمير المؤمنين انني تعلمت ما فيه فائدة الناس ولم ادرس سواه ولي رب يعطيني حقي يوم الحساب واذا أراد الخليفة ان يأتي ما يحاسب عليه فليفعل . حينئذ ابتسم الخليفة وقال انه دبر ذلك لاختباره والاطمئنان منه قبل ان يثق به . ثم سأل الخليفة حنين ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيته من صدق الامر منا في الحالين . قال حنين شيئان يا أمير المؤمنين ، قال وما هما . قال الدين والصناعة قال وكيف . قال الدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء . والصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس ولانها موضوعة لنفعهم ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الاطباء عهد مؤكد بايمان مغلظة ان لا يعطوا دواء قتالا فلم ار ان اخالف هذين الامرين الشريفين . »

وهذا برهان على تنشئة الاطباء لاحترام آداب مزاولة مهنة الطب .

وفي مرجع آخر نجد ما يدلنا على ما طلبوا من المزايا في الطبيب . فيقول ابن رضوان[٧] (توفي حوالي ٤٥٠ هـ) .

ان الطبيب هو الذي اجتمعت فيه سبع خصال :ـ

١ ـ ان يكون تام الخلق صحيح الاعضاء حسن الذكاء جيد الرواية ، عاقلا ، خير الطبع .

٢ ـ ان يكون حسن الملبس طيب الرائحة ، نظيف البدن والثياب .

٣ ـ ان يكون كتوما لاسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم .

٤ ـ أن تكون رغبته في ابراء المريض أكثر من رغبته فيما يلتمس من الاجرة . ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الاغنياء .

٥ ـ أن يكون حريصا على التعلم والمبالغة في منافع الناس .

٦ ـ ان يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والاموال .

٧ ـ ان يكون مأمونا ثقة على الارواح والاموال ، لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط الاجنة يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

وفي مرحلة أخرى من مراحل الرقابة التي فرضتها الصناعة على من يريد الانتساب اليها هو امتحان الطالب المتعلم لها فيما اكتسبه من علم

ومعرفة وقد وضعت شروط للامتحان تكاد تكون مشابهة للشروط في امتحان المتخرج في كلية طب في عصرنا هذا فكان المطلوب منه امتحان في العلوم الاساسية ثم امتحان في العلوم السريرية . فيقول الرازي(٨) :

« فأول مايسأل عنه التشريح ومنافع الاعضاء وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء فان لم يكن عنده ذلك فليس بك حاجة الى امتحانه في المرضى » .

ويقول ابن هبل البغدادي :(٩)

« مما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله ان ينظر فيما اذا انفق زمانه الماضي . ان كان في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة الكبراء من اهلها وطول ملازمتهم والقراءة عليهم والعلاج بين ايديهم والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حذاق الاطباء . وكثرة النظر الى معالجة الاستاذ فيشار اليه ويعول عليه وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته وهمته اذا خلا الى بيته لمطالعة الكتب . غير منشغل باللهو واللعب والشرب والسكر فان كان يتسبب اليه شيء من ذلك فلا ينبغي ان يوثق به ولا يعول عليه في هذه الصناعة .

وبقيت الحال من الاعتراف بالمتطبب منوطة بأهل المهنة والتجربة التي يمر بها الطبيب ليثبت نفسه من حسن تدبير وعلم وقير وأخلاق وأدب فيكون اهلا للثقة ويحتل مكانه في عالم الطب .

والنوع الثاني من الرقابة على مزاولة المهن الطبية هي التي نظمتها السلطة . سلطة الدولة وكما قلت سابقا تمثل حماية المواطنين من شر سوء الاستعمال . وحصل ذلك بالطرق الآتية :—

١ — باجراء امتحان لاجازة الطبيب والسماح له بالممارسة .

وقد وصلنا خبر ذلك فيما رواه ابن ابي اصيبعة والقفطي(١٠) :

« وكان الخليفة المقتدر أول من فرض على الاطباء تأدية امتحان للحصول على اجازة تخولهم ممارسة المهنة وأناط بسنان بن ثابت ان يقوم بامتحانهم وتثبيت من يصلح منهم ومنع من لا يصلح لضعف علمه والذي دعاه الى ذلك انه وصل اليه في عام ٣١٩هـ ان رجلا من أهل بغداد مات من جهل طبيبه وسوء تدبيره فأمر المقتدر محتسبه ابراهيم محسن بن بطحا بمنع جميع الاطباء عن ممارسة المهنة الا من امتحنه سنان وأجازه أو من سمح له بان يتصرف في فرع منها دون غيره وكتب له رقعة بذلك واحصى عدد الاطباء ببغداد فبلغوا قرابة الستين وثمانمائة ولم يحتاجوا لامتحان من اشتهر من الاطباء أو كان في خدمة الخليفة .

٢ — الرقابة على الطبيب في أثناء ممارسته المهنة . وقد جعلت هذه الرقابة جزءاً من الرقابة على جميع المهن في نظام يدعى الحسبة .

وقد ذكرنا كيف ان المقتدر أمر محتسبه ابن بطحا بمنع جميع الاطباء من ممارسة المهنة حتى يجتازوا بعد الامتحان وقد نظمت الرقابة أيام المقتـــدر .

ونظام الحسبة هذا عرفنا تفاصيله من الكتب التي الفت في الموضوع وأولها كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري المتوفى سنة ٥٨٩هـ (١٣٢٩م) وكتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الاخوة المتوفى سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٩م) فيقول الشيزري في الباب الاول « لما كانت الحسبة أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر واصلاحا بين النـــاس وجب أن يكون المحتسب فقيها . ويقول ابن الاخوة : هي أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين الناس . والمحتسب من نصبه الامام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية عن أمورهم ومصالحهم .

وفي هذه الكتب فصول خاصة من الحسبة على الاطباء والكحالين والمجبرين والجراحين(١١)(١٢) .

وينبغي على المحتسب ان يأخذ على الاطباء عهد ابقراط الذي أخذه على سائر الاطباء وينبغي ان يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال مما يحتـاج اليه في صناعة الطب وللمحتسب أن يمتحن الاطبـاء بما ذكره حنين في كتـــابه المعروف بمحنة الطبيب لجالينوس . أما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحق ـ عشر مقالات في العين ـ فيجب أن يكون عارفا بتشريح العين وعدد أمراضها وخبيرا بتركيب الاكحال وامزجـة العقاقير وعنده آلات الكحالة .

وأما الجراحيون فيجب عليهم معرفة كتـــاب جالينوس في الجراحات والمراهم وان يعرفوا التشريح واعضاء الانسان وكتاب الجراحة للزهراوي ومعهـم دست المباضع فيـه المدورات الراس والمدربات وفاس الجبهـة ومنشار القطع ومجرفة الاذن وورد الشلع ودواء الكندر القاطع للدم .

ولم اجد بابا خاصا في كتب الحسبة على الصيادلة الا اني وجدت ان التجاني الماحي(١٣) يقتبس من القفطي فيذكر بمناسبة الحسبة على الاطباء والصيادلة في ايام المعتصم قال زكريا الطيغوري ان الافشين طلب منـه ان يمتحن صيادلة معسكره حتى يعلم مبلغ أمانتهم وصدقهم فقص له زكريا القصة الآتية قال : ان يوسف لقوة الكيماني كان يدخل على المأمون فقال يوما للمأمون في حديث عن الصيادلة « فان ارتأى أمير المؤمنين ان يضع اسما لا يعرف ويوجهه الى جماعة من الصيادلة في طلبه » فوضع المأمون لفظ (شقطيثا) وكان اسما لاحد ضياعه وارسل الى دكاكين الصيادلة من يدعي ان الاطباء وصفوا له دواء بهذا الاسم . فذكر أكثرهم انه عندهم ومنهم من أعطى بذوره ثم قال زكريا انه لما سمع الافشـين ذلك قدم رسـلا وجههم بأسماء غريبة الى دكاكين الصيادلة يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الاسماء فكان من أصحابها من أخذ الثمن وأعطاهم شيئا من العقاقير ومنهم من أنكر

معرفة الاسماء فأمر الافشين بجمعهم فمن انكر معرفتها منهم ثبته ومن ادعى معرفته نفاه ثم نادى من معسكره بذلك وكتب الى الخليفة المعتصم يلتمس منه ارسال صيادلة غيرهم ممن اتصفوا بالامانة والذمة .

●

المراجــــع :

١ ـ ابن ابي اصيبعة . عيون الانباء من طبقة الاطباء ـ طبعة بيروت .
٢ ـ القفطي . تاريخ الحكماء . لايبزك ١٩٠٣ .
٣ ـ الشيزري . نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ القاهرة ١٩٤٦ .
٤ ـ ابن الاخوة . معالم القربة في احكام الحسبة ـ كمبرج ١٩٣٨ .
٥ ـ التجاني الماحي . مقدمة في تاريخ الطب العربي ـ الخرطوم ١٩٥٩ .
٦ ـ الرازي . كتاب المرشد . مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد ٧ ـ ١٩٦١ .
٧ ـ علي بن ربن الطبري . فردوس الحكمة . برلين ١٩٢٨ .
٨ ـ علي بن العباس المجوسي . كامل الصناعة الطبية ـ القاهرة .
٩ ـ بن هبل البغدادي . المختارات في الطب ـ حيدر اباد الدكن .

---

(١) فردوس الحكمة ص٥٥٨ الباب الثالث فيما يجب أن يكون عليه المتعلم للطب ـ طبعة برلين ١٩٢٨ .

(٢) المختارات من الطب . ص٦ ـ ج١ حيدر أباد الدكن .

(٣) كامل الصناعة . ص٨ ـ ج١ . طبعة القاهرة .

(٤) كتاب المرشد . مجلة معهد المخطوطات العربية ص١٩١ . مجلد ٧ ـ ج١ القاهرة ١٩٦١ .

(٥) كامل الصناعة . ص٩ ـ ج١ القاهرة .

(٦) اخبار الحكماء . ص١٧٦ .. ليبزك .

(٧) ابن أبي اصيبعة ـ ص١٠٢ ـ ج٢ .

(٨) محمد كامل حسين ـ طب الرازي ـ مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد ٧ ـ الجزء(١) ص١٣٥ القاهرة ١٩٦١ .

(٩) المختارات من الطب . (ص٥ـ٧) ج١ حيدر اباد الدكن .

(١٠) عيون الانباء ص٢٢٢ج ـ واخبار الحكماء ص١٣١ . القصة مذكورة أيضا في مقدمة تاريخ الطب العربي ـ التجاني الماحي ص١٠١ ـ الخرطوم ١٩٥٩ .

(١١) الباب السابع والثلاثون . ص٩٧ من كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ للشيزري ـ القاهرة ١٩٤٦ .

(١٢) الباب الخامس والاربعون . ص١٦٥ من كتاب معالم القربة في احكام الحسبة لابن الاخوة ـ كمبرج ١٨٣٨ .

(١٣) مقدمة في تاريخ الطب العربي ص١٠٣ الخرطوم ١٩٥٩ .

تأملات

انور خليل

الى أين تمضي ... ؟!
وأين المصير ... ؟
ودنياك مسرعة بالمسير
وهذا العثار ، وراء الخطى
يغطي العيون بلون التراب
ويضفي الشحوب
على أوجه ضافيات النقاب
على أنفس ترتوي بالسراب
وراء عباب القدر
ويمضي الزمان ،، حثيث الخطى
الى حيث تذوي الظنون .. ،
وينتحر الفكر .. من يأسه
وراء المنون ..
وراء جدار من المستحيل
من الغيب .. بحر الظنون الكبير
تحسر على شاطئيه العقول ..
وتجثو الفكر ..
وكيف العبور ،، وهذا العباب
بعيد المدى ،،

غائب في الضبـاب
تظـل العقـول •••
أســارى الذهول ••!!
وصرعى تجــول ،،
وتبقـى تجــول ••••
الى اللا نهـاية
وحيث الزمان الى غـير غـايه
يظل يعيـد فصول الروايه
وينسج للناس أحـلامهم
ويغـزل أوهامهـم
وحيث يظل ركاب البشر
يحث الخطى
وراء سراب ، بلا منتهى
تشـــاد الحضارات في ظله
ويسـتعبد الناس من أجله
ويقتتل الناس ، رهن الحروب
لأجــل البقـاء ••!!
وهل من بقـاء •• ؟!!
وهل من ثمـار لهذا الشـقاء
هـراء لعمرك هذا العناء
هـراء •• هـراء ••
وما الكون ،، يفتح أبوابه
اذا انفك باب
بـدا ألف باب
وهــذا الترابي نســل التراب
محال عليه بلوغ الخلود
وســير جميع شعاب الوجود
وفي قدميـه القيـود
هناك الســدود

هنــاك الحـــدود
ويستبسل العلم في مرتقـــاه
الى قمة لم تطأهــا الحيــاه
ويمضي مجدا الى غايتـــه
وترنو العيون الى رايتـــه ... ،
فيســـمو الطموح
ويغـــزو الفضاء ، بأقمـاره
وتلك الفتــوح
تحـــدث عنها باخبـــاره
وتلك اكتشافاته الرائعات
مجـــال انتصاراته
لغـــزو الفضاء بآياتـــه
وغـزو كواكبه النائيات
ومهما غزا عالما ، بعد عالم
ومهمـــا استطاع ومهما تعاظم
فهل يستطيع امتلاك الخلود .. ؟
وهل يستطيع امتلاك القدر .. ؟
وهل يستطيع بناء الوجود .. ،
على صـــور ،،
غير هـــذي الصور .. ؟!
وكـــون يدين لهذا الاله
يطوف به (الغزل) جم العياء ...
له كل حـــين مجال رحيب
فلا ينتهي من مــداه
وكـــون رحيب
يخـوض به العلم بحـراً ،، ..
بغـــير انتهـــاء ... !!

المسرحية العربية في العراق
في العهد العثماني

الدكتور علي الزبيدي

يظن المعنيون بالمسرح في العراق والبلاد العربية الشقيقة ان المسرحية دخلت حياتنا المعاصرة بعد قيام الحكم الوطني عام ١٩٢١ ، ويذكرون ان اول مسرحية الفها عراقي ومثلها عراقيون هي مسرحية ـ وحيدة ـ للمرحوم موسى الشابندر التي كتبت عام ١٩٢٨ أو ١٩٢٩ وطبعت في بغداد سنة ١٩٣٠ بتوقيع علوان ابو شرارة . وهو اسم مستعار اختاره المؤلف لنفسه لاغراض خاصة(١) .

لقد تحدث الذين يتذكرون احداث تلك الفترة في مناسبات شتى عن بوادر نشاط فني مسرحي ظهر في المدارس العراقيـــة التي فتحت في أوائل العشرينيات ، كما وصف الدليل العراقي المطبوع سنة ١٩٣٦م المظاهر الاولى للحركة التمثيلية في العراق وأشار الى الفرق التمثيلية التي تألفت في العراق قبل سنة ١٩٣٦ وذكر أسماء عدد من السادة الذين اشتركوا فيهما بما سنعود الى شرحه في هذا البحث(٢) .

ولم تذكر المقالات التي ظهرت في بعض الصحف والمجلات العراقية في أوقات مختلفة ما يخالف هذا لاعتقاد السائد عن زمن ظهور المسرح في العراق فقد ردده الاستاذ محمود العبطه والسيد أحمد المفرجي(٣) في مقالات مختصرة ذكرت بعض المؤلفين العراقيين(٤) وما يقال عن مقالات هذين السيدين يقال عن المقال الصغير الذي ظهر في مجلة بغداد قبل سنتين اذ لخص كاتب المقال ما أورده الدليل العراقي دون أن يضيف شيئا جديدا(٥) . لقد أكد هؤلاء الكتاب المعلومات القائلة بأن المسرح دخل العراق في أوائل العشرينيات ولم يذهبوا الى ما قبل ذلك التاريخ . لقد طرقت سمعي هذه الاخبار والاقوال وسردتها لطلابي ردحا من الزمن ... ولكني لم أكن مطمئنا الى صحتها ولقد تملكني شعور الحذر والشك الذي ينتاب الباحثين في مثل هذه الحالات فكنت أتساءل : ألا يجوز ان يكون العراقيون قد عرفوا المسرح قبل الحرب العالمية الاولى أو في أثنائها ؟ وكانت عندي أسباب تقوي هذا التساؤل منها ان الاتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون العراق آنذاك قد عرفوا المسرح ومارسوا التمثيل منذ أواخر القرن الثامن عشر . اما في القرن التاسع عشر

فكانت عاصمة العثمانيين قد شهدت نشاطا مسرحيا ملحوظا(٦) لقد كان العراقيون يذهبون الى اسطنبول للدراسة ثم يعودون الى بغداد • أليس من المحتمل اذن ان بعضهم قد شهد فن التمثيل في اسطنبول أو في دمشق وحلب ثم عاد ليقوم بوجه من وجوه النشاط التمثيلي في بغداد ؟

فاذا افترضنا أن اولئك العراقيين لم يزاولوا هذا الفن أفلا يجوز أن نفترض أن الاتراك الذين عملوا في العراق قد مارسوا أي نوع من أنواع النشاط التمثيلي في المدارس التركية القليلة في العراق ؟ هذه الاسئلة بقيت دون جواب اذ لم يستطع المسنون الذين سألتهم أن يتذكروا حدوث شيء من هذا القبيل •

ومع هذا فقد بقيت أرجح وجود المسرح في العراق أيام العثمانيين • لان العلاقات السياسية والتجارية ولاسيما الفنية ، كانت وثيقة بين بغداد والموصل وحلب ودمشق • وقد أشار الاستاذ عبد الكريم العلاف في كتابه بغداد القديمة الى هذه العلاقات الفنية وذكر بعض فرق الرقص والمسليات التي كانت تأتي الى بغداد من حلب فتقوم بالرقص والغناء وتقدم بعض المشاهد ذات الصبغة التمثيلية(٧) وكانت حلب والشام تعرف التمثيل في أواخر القرن التاسع عشر كما كانت بيروت سابقة في هذا المضمار(٨) فلماذا لا يمكن الافتراض أن هذه الفرق الحلبية أو الشامية ربما قامت بتقديم بعض المشاهد التمثيلية الساذجة في أثناء عملها في بغداد ؟

أضف الى هذا كله وجود علاقات ثقافية ودينية بين الكنائس والمدارس المسيحية في الموصل وبغداد والاوساط الدينية المسيحية في لبنان وروما وباريس • وكان بعض العراقيين يذهبون للدراسة في أوربا ثم يعودون للعمل والتدريس في المدارس المسيحية العراقية ، فلماذا لا نفترض أن اولئك الرهبان قد عرفوا التمثيل وحاولوا القيام بنشاط مسرحي في المدارس العراقية ولو في نطاق ديني ؟

هذه الاسباب ولاسيما السبب الاخير دفعتني الى الاتصال ببعض الشخصيات المسيحية المطلعة كالمرحوم روفائيل بابو اسحاق والاستاذ كوركيس عواد • وكم كانت دهشتي عظيمة حين أكد لي هذان الاستاذان الفاضلان أن رهبان وطلاب المدرسة الاكليركية في الموصل كانوا يقدمون المسرحيات التمثيلية الدينية والدنيوية على مسرح مدرستهم في أواخر القرن التاسع عشر • وكان عجبي أشد حين أخبرني الاستاذ كوركيس عواد وغيره من المطلعين أن السيد نعوم فتح الله سحار المتوفى في الموصل سنة ١٩٠٠م قد ألف مسرحية باللغة الدارجة اسمها (لطيف وخوشابه) وان هذه المسرحية قد طبعت في مطبعة الآباء الدومنيكان في الموصل سنة ١٨٩٣م في ثلاث وثمانين صفحة • وقد بحثت عن هذه المسرحية في أماكن مختلفة واستعنت ببعض مدرسي المدرسة الكلدانية التي انتقلت الى بغداد فباءت محاولاتي للعثور على نسخة منها بالفشل • وما يزال عدد من الذين وعدوني

بالمساعدة يبحثون عنها لتاكدهم من وجودها عند بعض اخوانهم في الموصل • وأملي وطيد بالحصول على نسخة منها في الوقت القريب • لقد مثل طلاب المدرسة الاكليركية هذه المسرحية على مسرح مدرستهم في مدينة الموصل قبل عام ١٨٩٠م وحضر الحفل التمثيلي عدد كبير من المدعوين • وقد روى الاستاذ كوركيس عواد نقلا عن السيد جبرائيل بيداويد أن التمثيل كان ناجحا وان المسرحية حازت اعجاب الجمهور حتى أن المطران عبد يشوع خياط المتوفى سنة ١٨٩٩م قد أعجب أشد الاعجاب بالمسرحية فأخرج حافظة نقوده ووزع ما فيها على الممثلين اعترافا بفضلهم وتقديرا لجهودهم ! وكان موضوع (لطيف وخوشابه) غراميا اجتماعيا : فقد أحب لطيف خوشابه وأحبته وصمما على الزواج فأصطدما بصعوبات ومشاكل مبعثها الفوارق الاجتماعية والخلافات بين عائلة الشابين العاشقين ولكن لطيف وخوشابه أصرا على الزواج وتغلبا على الدسائس التي استهدفت الايقاع بينهما ثم تزوجا في النهاية •

أن هذا الحديث الفني المسرحي الذي طواه النسيان لم يثبت ممارسة بعض العراقيين فن التمثيل آنذاك فقط بل حدد بداية التأليف المسرحي في أدب العراق المعاصر ودفع هذه البداية أكثر من ربع قرن الى الوراء • كانت تمثيلية ــ لطيف وخوشابه ــ اذن أول مسرحية عراقية ألفت ومثلت في العراق وسبقت التمثيليات التي ألفت بعد قيام الحكم الوطني بمدة طويلة • وليس هذا غريبا فقد دخل التمثيل في البلاد العربية منذ أواسط القرن التاسع عشر فليس من طبيعة الاشياء أن يتأخر ظهوره في العراق الى ما بعد الحرب العالمية الاولى •

لعل هذا الحدث الفني الذي قامت به المدرسة الاكليركية يفسر النشاط المسرحي الذي تميز به عدد من مدرسيها وطلابها بعد قيام الحكم الوطني وقبله : وكان القس سليمان صائغ رئيس تحرير مجلة النجم أشهرهم جميعا فقد ألف عدة مسرحيات باللغة العربية الفصيحة خلال العقد الثالث من هذا القرن • وقد جعلته مسرحياته في طليعة المؤلفين المسرحيين العراقيين فهو والاستاذ محمود نديم مؤلف مسرحية الفتاة العراقية التي مثلت في مدرسة البنات المركزية ببغداد سنة ١٩٢٥ والاستاذ الشابندر مؤلف مسرحية وحيدة •• أقول هؤلاء الثلاثة هم رواد الحركة المسرحية في العراق بعد قيام الحكم الوطني • أما الاستاذ نعوم فتح الله سحار الذي سبقهم بثلاثين سنة أو أكثر فكان الرائد المسرحي العراقي الاول بدون منافس • وقد قيل أن مسرحية لطيف وخوشابه لم تكن نتاجه الوحيد بل أنتج أو ألف تمثيليات أخرى ضاعت مخطوطاتها ولم يعثر عليها أحد • وليس من شك في أن صلة الموصل بحلب والشام واتصال الرهبان ببعضهم ومعرفتهم باللغات الاجنبية ، وعلاقتهم الثقافية بكل من روما وباريس ، كانت من جملة الاسباب التي عرفتهم على الفن المسرحي في أوربا وزودتهم

بثقافة فنية درامية مكنتهم من غرس بذورها لمواطنيهم في العراق .

ومن الجدير بالذكر هنا ان نشاط الرهبان لم ينحصر في الموصل ولم يقتصر على مدرسة مسيحية واحدة اذ سرعان ما انتقل النشاط المسرحي الى بغداد خلال العقد الاول من القرن العشرين . وكان طلاب مدرسة الكلدان وقسماوستها في بغداد مركز هذا النشاط الفني الجديد . وكان من أبرز أعمالهم في هذا المجال تمثيلهم مسرحية (سلستر!) التي سموها (الوطن) على مسرح مدرستهم في بغداد سنة ١٩٠٧م .

قالت جريدة الرقيب بتاريخ ١٥ رمضان ١٣٢٧هـ.

جرى الاحتفال ليلة الاربعاء بتشخيص رواية الوطن (سلسترا) في كنيسة الكلدان فكان باهرا فوق العادة . وأعجب عموم الحاضرين حسن التمثيل الذي قام به طلبة هذه المدرسة وتمام الاتقان بما هو فوق التصور .

والظاهر من اطلاق اسم (الوطن) على المسرحية انها كانت مترجمة وهذا يفسر اعجاب الجمهور بها كما قالت الجريدة .

وفي ٢٧ ربيع الاول من السنة نفسها ١٣٢٧هـ تحدثت جريدة الرقيب عن تقديم مسرحية أخرى في مدرسة السريان الكاثوليك ببغداد قالت الجريدة تحت عنوان (تشخيص رواية شهيد الدستور مدحت باشا) ما يأتي :

سيمثل شبابنا الوطنيون هذه الرواية التاريخية العصرية في مكتب السريان الكاثوليك مساء الخميس ٩ نيسان ١٩٢٥ رومي (١٩٠٧) ، من الساعة الاولى بعد المغرب . وهي الرواية الفريدة التي تمثل مقتل أبي الاحرار المرحوم مدحت باشا وتشخيص صورة انقلاب الحكومة باعلان الدستور . وتحتوي على خمسة فصول يتخللها تمثيل فكاهي هزلي باللغة الفرنساوية ، وأغاني رخيمة موقعة على الآت الطرب الشرقية . وتحوي هذه الفصول :

الاول : يمثل سجن مدحت باشا مؤسس الدستور وقتله خنقا في قلعة الطائف .

الثاني : يمثل حزن عائلته عند وصول الخبر اليها مع ذكر وصيته الاخيرة .

الثالث : اجتماع الاحرار في باريس برياسة البرنس صباح الدين بك وتقريرهم اعلان الدستور بواسطة الجيش وتبليغهم الامر الى نيازي بك .

الرابع : اتحاد نيازي وأنور في سلانيك على اعلان الدستور وكسر قيود الاستبداد واحتلالهما سلانيك ودار الحكومة باسم الدستور .

الخامس : وصول تلغراف حلمي باشا مفتش مقدونيا وتبليغات نيازي وأنور للمابين وانعقاد مجلس الوزراء وتقريرهم اعلان الدستور بعد جدال طويل . وفرار عزت باشا ، وحيرة تحسين باشا كاتب المابين ، واجتماع الشعب حول بيلدز واعلان ارادة مولانا السلطان بنشر القانون الاساس في جميع الممالك العثمانية .

ويعاد هذا التمثيل بعينه للسيدات نهـــار الاحد ١٢ نيســـان وقت الظهر .

قيمة بليت (بطاقة) الدخول في الدرجة الاولى مجيديان وفي الثانية مجيدي واحد . واستطردت الجريدة قائلة :

وليس بين محبي الادب من يتأخر عن مساعدة هذا التشخيص لمنفعة المكتب السرياني البغدادي[٩] .

هذان الخبران يدلان على نشاط المدارس المسيحية في تقديم المسرحيات للجمهور واهتمام الاوساط المثقفة بهذه الحركة الفنية الجديدة . والظاهر أن نوعا من الوعي الفني والسياسي قد انتشر في تلك الفترة وخاصـة بعـد اعلان الدستور العثماني فقد تنفس الناس الصعداء واتسع أمامهم مجال التفكير والتعبير والاقتباس من فنون الاجانب وعلومهم وشعر الناس بنوع من الحرية وغمرهم جو جديد لم يعرفوه من قبل . فكان ظهور التمثيل في بغداد واتجاهه الى السياسة بتقديم تمثيلية عن مدحت باشا دليـل عـلى الفوائد التي جناها الناس من اعلان الدستور واستبشارهم بعهده الجديد. وكانت الولايات العثمانية في البلاد العربية وفي العراق خاصة في طليعـة الجهات المؤيدة للدستوريين ولاسيما لمدحت باشا الذي ترك في العراق ذكرا طيبا ما يزال صداه باقيا الى الان . وكان ظهور فن التمثيل في سوريا ولبنان من عوامل نشر هذا الوعي الفني في البلاد العربية فقـد انتبـه الرأي العـام العربي الى هذا الفن وراح المثقفون والصحفيون في العراق يطالبون بضرورة العناية بنشر التمثيل . قالت جريدة الرقيب بتاريخ ١٨ رجب ١٣٢٧ تحت عنوان (الرقص بدل التمثيل) : كيف لا تنفطر قلوبنـا أسفا عـلى حالتهم (يقصد الاهالي) عندما نراهم بهذه الاحوال بينما جرائد سوريا تعلن عن تمثيل الروايات الادبية التي تروق في العين ويستحسنها القلب ، وتزداد فيها الآداب ، ويعتبر بها المعتبرون . ولعل ما نراه من الاهالي واقبالهم على هذه الملاهي لا يجعل لهم ميلا للنظر الى تلك (يقصد المسرحيات) .

٭

المسرحية في بغداد بعد الحكم الوطني :

والمرجح أن الاحداث السياسية التي تعاقبت على الدولة العثمانية قبيل الحرب العالمية الاولى ثم نشوب هذه الحرب واستمرارها مدة أربع سنوات حافلة بالكوارث جعل الظروف غير مؤاتية لتطور تلك الحركة المسرحية التي ظهرت طلائعها في الموصل وبغداد . فظـل التمثيـل محصـورا في المدارس المسيحية القليلة اذ كان البلد مفتقرا الى التعليم ولم يكن في العراق كله سوى بضعة مدارس . وكانت قلة المطلعين على هذا الفن وانعدام المختصين فيه من جملة الاسباب التي أدت الى جموده . ولو تهيأ للتمثيل بعض هؤلاء في الفترة

التي سبقت الحرب الاولى لكان من المحتمل أن يحدث في بغداد مثل ما حدث في دمشق والقاهرة فتنشأ بعض الفرق المحترمة التي تستطيع اخراج فن التمثيل من المدرسة الى المدينة ولما وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها وشبت الثورة العراقية وتمخضت أحداثها عن قيام ضرب من الحكم الوطني وأسست بعض المدارس في العراق عادت الحركة التمثيلية الى الظهور في تلك المدارس واهتمت بها بعض الاوساط الادبية . وكان لخروج عدد من العراقيين الى البلدان العربية والأجنبية واطلاعهم على وجوه النشاط الثقافي والفني والسياسي اثر ملحوظ في عودة الاهتمام بالمسرح في الوسط المدرسي على الاقل .

قال السيد فاضل عباس بهرام (وكان من أوائل الذين عملوا في التمثيل) في حديث صحفي نشرته جريدة الأيام البغدادية : تأسست أول فرقة في بغداد سنة ١٩٢٠ من السادة المرحوم المحامي عبدالرحمن خضر والسيد صالح السهروردي والسيد نوري ثابت صاحب جريدة حبزبوز .. الخ(١٠) . ويذكر السيد عباس عددا من الاسماء المعروفة آنذاك ولكن الظاهر أنه يخلط بين التواريخ والاسماء لان الاستاذ حقي الشبلي وهو رائد الحركة المسرحية في العراق يؤكد أن أول فرقة تمثيلية تأسست في العراق هي الفرقة التي ألفها الحزب الوطني عام ١٩٢١ وكان من جملة السادة الذين اشتركوا فيها على ما يذكر الاستاذ حقي الشبلي : احمد الراوي ونجيب الراوي وعبد الرحمن خضر وعبد الكريم خضر والسيد صادق البصام . أما النشاط التمثيلي الذي ظهر سنة ١٩٢٠ وأشار اليه السيد فاضل عباس بهرام في حديثه المذكور فربما كان المقصود به النشاط الذي أشار اليه كاتب المقال في مجلة بغداد . قائلا : وقد تبين في قيام نفر من هواة الفن عام ١٩٢٠ بتقديم مسرحية (النعمان بن المنذر)(١١) وقد اتسمت محاولتهم هذه بطابع سياسي كان (كما قالت المجلة) أول جذر سياسي في الحركة الفنية . ولكن الواقع أنه لم يكن أول جذر سياسي فقد اهتم العراقيون منذ بداية العهد الوطني بادخال السياسة في الفن اذ كان هذا هو الطابع المميز للحركة المسرحية العربية عامة . أما الدليل العراقي فيشير الى هذا الموضوع قائلا : « تألفت جمعية التمثيل العربي سنة ١٩٢٢ برئاسة محمد خالص حمادي ، فأقامت عدة حفلات تمثيلية في بغداد والبصرة ، ولكن فداحة خسارتها المالية قضت عليها آنئذ . وكان من فوائد هذه الجمعية أنها قضت على فكرة القرقوز القديم وغرست في الناس حب التمثيل الفني الحديث »(١٢) . مهما كان فان لهذه الاحداث الفنية الاولى أهمية كبيرة في تاريخ المسرح العربي في العراق ، لانها سجلت أول نشاط مسرحي قامت به شخصيات عراقية محلية . ولا شك في أن الاسباب التي مر ذكرها كاطلاع العراقيين على الحركة المسرحية في البلاد العربية والاجنبية بواسطة السفر أو النفي خلال الحرب الاولى كانت مبعث اهتمام المثقفين العراقيين بالمسرح

في أيام الثورة العراقية وبعدها بقليل . وكان لانبعاث الروح القومية والكفاح السياسي السلمي والمسلح ضد قوى الاحتلال والشر والاستعمار أكبر الاثر في دفع اولئك الشباب الى الاستعانة بفن التمثيل لتغذية الحس القومي والوطني وتقوية الوعي السياسي والثقافي في البلاد . وفي عام ١٩٢٣ تكونت ثاني فرقة تمثيلية في بغداد من طلاب مدرسة التفيض الاهلية وباشراف المدرس المرحوم عبد الوهاب علي شقيق المرحوم السيد حسين العاني مدير المدرسة السابق . وقد تكونت هذه الفرقة من السادة : خضر عبد الجليل وابراهيم حسن وفاضل عباس وكاظم صادق ورشاد داود الحمامي وسعيد خماس وفاضل صالح وبهاء الدين محمد علي وغيرهم - وقد أخذت هذه الفرقة أو اللجنة التمثيلية « تعمل على احياء هذا الفن في العراق . فأقامت حفلات كثيرة في أهم المدن العراقية سببت اقالة التمثيل من عثرته »(١٣) .

وقد سألت الاستاذ حقي الشبلي عمن اشترك في فرقة التفيض الاهلية هذه فذكر انه كان من جملة المشتركين فيها كما ذكر أسماء السادة صديق شنشل وعبد الرزاق شبيب وعارف اغا وبهاء محمد علي وتوفيق بابان وأحمد حقي الحلي وعوني الخالدي وخالد الجوربجي وبهاء عوني وخليل كنه وسالم مامو وعبد الحميد الدهان .

وقد مثلت فرقة التفيض عدة مسرحيات كان أهمها مسرحية (في سبيل التاج) ومسرحية (جزاء الشهامة) . ثم اشتركت مع فرقة المدرسة الجعفرية التي تألفت بعد ذلك بمدة وجيزة في انتاج تمثيلي مشترك سنة ١٩٢٥ . وقد تألفت سنة ١٩٢٤ فرقة تمثيلية أخرى باسم فرقة مكتبة التقدم التمثيلية ولكنها لم تستطع تقديم انتاج مسرحي يذكر .

وقد مهد هذا النشاط سبل النجاح للفرق المحلية والفرق العربية والتركية التي زارت العراق في تلك الفترة فصار الناس يعرفون فن التمثيل ويستمتعون به ويذهبون الى مشاهدته برغبة شديدة حتى كانت القاعات تغص بالمتفرجين فيضطر قسم منهم الى مشاهدة المسرحية واقفين .

ولعل أول فرقة زارت العراق فرقة المرحوم الفنان جورج أبيض التي قدمت الى بغداد سنة ١٩٢٦ فلاقت نجاحا منقطع النظير . وقد أحيت هذه الفرقة عدة حفلات تمثيلية في بغداد والبصرة كان لها الاثر الفعال في وضع الاسس الفنية الاولى للمسرح في العراق وتغيير نظرة الناس الى هذا الفن كما كان لها الفضل في رفع مستوى الفنانين العراقيين الذين كانوا يعملون في هذا المجال فقد اشترك الاستاذ حقي الشبلي بالتمثيل مع فرقة جورج أبيض فكان أول عراقي يمثل في فرقة عربية . وقد قام بدور (ابن اوديب الملك) في احدى الحفلات التمثيلية التي قدمتها الفرقة . ويذكر الاستاذ حقي الشبلي أن الاقبال على مشاهدة تمثيليات الفرقة كان عظيما . ولقد جادت السماء في احدى الليالي بمطر مدرار فكان الناس يخوضون في الماء والوحل للوصول الى القاعة والتمتع بمشاهدة المسرحية .

ولعل نجاح فرقة جورج أبيض واقبال الناس على المسرح كان في طليعة الاسباب التي دفعت الاستاذ حقي الشبلي الى تحقيق حلمه في تأسيس فرقة تمثيلية عراقية فاندفع في مطلع عام ١٩٢٧ وألف أول فرقة عراقية محترفة باسم (الفرقة التمثيلية الوطنية) وكان من جملة من اشتركوا معه السادة عبد الحميد فخري وعبود الشالجي وعبد الحميد الخطيب وصبري الذويبي وعثمان الشيخ سعيد ومحي الدين محمد وكرجي كاشي وسليم بطي وعبد الله العزاوي ومديحة سعيد وآخرون يصعب تعدادهم جميعا • وقد اشترك مع الفرقة بعض اخواننا السوريين والمصريين وهم المرحوم بشارة واكيم وعبد اللطيف المصري وعبد النبي محمد ومحمد المغربي وزوجته وعبد الحميد البدري ونور الدين المصري ومحمد الحمد المصري • وقد تجولت فرقة حقي الشبلي في العراق تدعو الى التمثيل وتقدمه للجمهور وكانت أول سفراتها الى الجنوب عام ١٩٢٨ •

لقد كان الاستاذ حقي الشبلي رائد التمثيل الحقيقي في العراق • صحيح أن التمثيل قد بدأ منذ العهد العثماني كما ذكرت وان فرقا مدرسية قد تألفت وعملت قبل تأسيس فرقته ولكن أحدا غيره لم يجرأ على تكوين فرقة محترفة تقدم المسرحيات في حدود الامكانيات الفنية والاقتصادية الهزيلة وفي وقت كان فيه أكثر الناس ينظرون الى الممثل نظرة احتقار واستخفاف •

لقد استطاع حقي الشبلي أن يفرض شخصيته الفنية وان يحقق الحلم الذي كان يداعب مخيلة الذين كانوا يدركون قيمة الفن المسرحي ويقدرون دوره العظيم في نهضة الامم • والتاريخ يسجل له هذه المأثرة ويقدر جهوده وتضحياته أحسن تقدير • لقد افتتحت الفرقة الوطنية تاريخ الاحتراف المسرحي في العراق ولو تهيأ لبلادنا آنذاك حكومة تدرك خطورة ذلك الحدث الفني لكان من المحتمل أن يحدث في العراق مثل ما حدث في البلاد العربية ولاسيما مصر ومثل ما حدث في تركيا اذ لم تكد حكوماتها تحس بظهور الاحتراف المسرحي في بلادها حتى سارعت الى تبنيه فساعدت رواده الاوائل وأسست المسارح الوطنية والفرق المسرحية القومية وشجعت أو نظمت حركة الترجمة ورعت المؤلفين والمخرجين • يذكر الاستاذ التركي (متن اوند) في كتابه عن المسرح والمسليات التركية المعاصرة أن ثورة مصطفى كمال لم تكد تنجح حتى بادرت الى تأسيس المسرح الوطني في اسطنبول وعينت المخرجين والممثلين كموظفين وهيأت لهم احدى قاعات القصور العثمانية ثم استقدمت الفنان المسرحي الشهير المسيو انتوان رائد المسرح الحر في فرنسا وكلفته بتنظيم الحركة المسرحية(١٤) •

أما في مصر فكان الاهتمام أشد فقد تأسست الفرقة الغربية منذ زمان بعيد وقدمت الحكومات المصرية المساعدات المالية والفنية لكثير من الفرق الحرة •

لقد تأسست الفرقة الوطنية عام ١٩٢٧ كما ذكرنا ومضت تقدم

المسرحيات للشعب في أصعب الظروف ، فلا مال ولا قاعة خاصة ولا مساعدات حكومية مالية ولا دعاية ولا تراث مسرحي أدبي وفني ولا احتراف • وعلى الرغم من هذا كله مضى الاستاذ حقي الشبلي وأعضاء فرقته يقدمون المسرحيات في بغداد والمدن الاخرى حتى غرقوا في الديون وكابدوا صنوفا من الاذى والاعتداء •

وفي أوائل عام ١٩٢٩ جاءت من القاهرة فرقة السيدة فاطمة رشدي وقدمت عددا من المسرحيات في بغداد ثم تم الاتفاق بين حقي الشبلي وادارة فرقة السيدة فاطمة على أن ينضم اليها فسافر حقي معهم الى مصر للعمل والتدريب ودراسة الفن المسرحي باشراف الفنان المعروف الاستاذ عزيز عيد • ومكث حقي الشبلي ما يقرب من سنة فسبب غيابه عن فرقته عددا من المشاكل أدت الى انفراط عقدها فقام عدد من أعضائها بتأسيس فرقة جديدة باسم (الفرقة التمثيلية العصرية) برئاسة محي الدين محمد في حين بقيت الفرقة التمثيلية الوطنية برئاسة الفنان العراقي المعروف الاستاذ عزيز علي •

وفي أوائل السنة نفسها اي ١٩٢٩ تشكلت فرقة ثالثة باسم (الفرقة التمثيلية الشرقية) برئاسة صبري شكوري وأحيت عدة حفلات تمثيلية في أوقات متفاوتة ثم تجمدت أعمالها الى أن انحلت بوفاة رئيسها عام ١٩٣٥ •

لقد كانت سنة ١٩٢٩ حاسمة في تاريخ الحركة التمثيلية ، اذ تأسست خلالها أيضا فرقة رابعة اطلق عليها اسم (جمعية احياء الفن) برئاسة كمال عاكف ولكن العمر لم يطل بهذه الجمعية فانحلت بعد أن قدمت حفلتين تمثيليتين فقط • وعاد حقي الشبلي عام ١٩٣٠ من مصر مع فرقة السيدة فاطمة رشدي في سفرتها الثانية الى العراق وبعد أن أحيت الفرقة عدة حفلات في بغداد والبصرة والموصل عادت الى مصر وتخلف حقي الشبلي لاسباب خاصة كان في طليعتها تصميمه على جمع شمل اخوانه الذين توزعوا على الفرقتين العصرية والوطنية فتكللت مساعيه بالنجاح وجمعهم في فرقة واحدة حملت اسم (فرقة حقي الشبلي) وعاشت هذه الفرقة حتى سنة ١٩٣٥ وكافحت كفاحا مريرا خلال تلك السنوات الخمس لتثبيت دعائم الفن المسرحي عن طريق خلق فنانين محترفين لا هواة والسعي لتأسيس مسرح دائم في بغداد • وقد أقامت الفرقة عدة مواسم مسرحية في بغداد على مسارح أعدتها خصيصا لذلك كان أشهرها (مسرح بغداد) سنة ١٩٣١ ومسرح التمثيل العربي سنة ١٩٣٣ • وقامت الفرقة برحلات فنية الى الالوية الجنوبية والشمالية قدمت خلالها عدة مسرحيات في مدن مختلفة • وكانت تعتمد على المسرحيات المطبوعة في مصر من عربية ومترجمة كما كانت تقلب بعض تلك المسرحيات الى اللهجة العراقية الدارجة رغبة في جذب أكبر عدد ممكن من الناس الى المسرح • وكان لتضامن أعضائها الفضل في النجاح الذي حققته في حفلاتها المتكررة • ولولا الخسائر المالية الجسيمة التي

تكبدتها وسفر حقي الشبلي الى فرنسا عام ١٩٣٥ لعاشت هذه الفرقة ولتمكنت من فتح المسرح الدائم الذي ما زالت بغداد تفتقر اليه حتى الان ٠ وقد نشطت الحركة المسرحية نشاطا ملحوظا خلال الثلاثينيات الاولى واستطاعت أن تكسب الجمهور وتنبه الرأي العام الى الفن المسرحي وأسهمت الفرق العربية والتركية التي قدمت العراق خلال تلك السنوات في تقوية هذا النشاط فبالاضافة الى فرقة فاطمة رشدي التي جاءت مرتين كما قلنا جاءت الى العراق فرقة الاستاذ (أمين عطا الله) المصرية عام ١٩٣١ ٠ وفرقة (أرطغرل بك) التركية عام ١٩٣٢ وفرقة الاستاذ يوسف وهبي عام ١٩٣٣ وشجعت هذه الحركة بقيام فرق عراقية اخرى فظهرت (فرقة المعهد العلمي) برئاسة عبد الحميد يوسف سنة ١٩٣٢ وقدمت بعض المسرحيات ٠ وعندما سد المعهد أبوابه حصلت فرقته على اجازة جديدة وحملت اسم (الفرقة التمثيلية العربية) فكان من أعضائها يحيى فائق وصفاء الدين الحيالي واسماعيل حقي وزكي سلامي وابراهيم فايق حسين وغيرهم ٠ واستأجرت هذه الفرق قاعة سينما رويال التي اعتادت الفرقة العراقية والعربية استئجارها كما استأجرت قاعات بعض الملاهي في فترة اغلاقها وقدمت فيها عدة تمثيليات كان أهمها عنتر للايجار ، كاترين ، وعبدالرحمن الناصر ٠ ولكن هذه الفرقة عجزت عن الاستمرار فانحلت ٠ وتأسست في عام ١٩٣٣ فرقة (ما بين النهرين) التي كان من أعضائها : أميل صبري، لويس ناصر، يوسف هرمز ولكن هذه الفرقة لم تستطع القيام بأي نشاط فماتت في المهد٠

اما عبدالله العزاوي فقد أسس فرقة جمعية انصار التمثيل سنة ١٩٣٣ وبقيت هذه الفرقة تعمل وتقدم التمثيليات العربية والعامية في مناسبات وأوقات متباعدة ٠ كما تأسست في تلك الفترة (فرقة بابل) برئاسة محمود شوكت واستمرت هذه الفرق تعمل كل واحدة على انفراد ثم اندمجت عام ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ في اتحاد فني تكون من الفرقة العربية (يحى فايق) والفرقة الشرقية (صبري شكوري) وفرقة انصار التمثيل (عبدالله العزاوي) ولم يكن هذا الاتحاد اتحادا بالمعنى الصحيح لان كل فرقة كانت تقدم انتاجها على حدة ٠ فقدمت فرقة بابل التي كان يؤلف لها السيد نديم الاطرقجي عدة مسرحيات كان من جملتها الاعتراف وابن الدلال والمنكوبة ٠ اما فرقة انصار التمثيل التي عملت على مسرح سينما رويال ومسرح الثانوية المركزية فقد مثلت مسرحيات عبدالستار افندي لمحمد تيمور وعصفور في القفص والصحراء ليوسف وهبي والذبائح لانطوان يزبك ويوليوس قيصر لشكسبير وهارون الرشيد لمارون نقاش ٠ لقد كانت هذه الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٢٨ــ١٩٣٨ فترة ذهبية في تاريخ الحركة المسرحية في العراق ، فقد ظهرت خلالها عدة فرق محترفة قدمت انتاجا مسرحيا متعدد الجوانب وتمكن بعضها من تأسيس مسارح اهلية خاصة ٠ ولم ير العراق بعد هذا نشاطا قويا من هذا النوع فقد اوقفت الحرب العالمية الثانية نشاط هذه الفرق ثم

قضت عليها . ولكن النشاط المسرحي لم ينقطع بل اتجه الى المدارس التي كثرت منذ ذلك الوقت حتى اذا عاد حقي الشبلي واسس فرع التمثيل في معهد الفنون الجميلة أخذ المعهد على عاتقه مهمة اعداد الممثلين والمخرجين وتقديم المواسم المسرحية التي اطلعت الجمهور العراقي على كثير من روائع المسرح العربي والعالمي .

وطبيعي ان يودي النشاط المسرحي الذي اشتد في الثلاثينيات الى تشجيع المثقفين والعاملين في المسرح على تأليف المسرحيات باللغة العربية الفصيحة وباللغة الدارجة فبرز عدد من المؤلفين الذين لم يخل انتاجهم من بعض عناصر النجاح وان كان ضعيف البنيان من الناحية الدرامية .

وكان في طليعة اولئك المؤلفين الاستاذ موسى الشابندر مؤلف مسرحية وحيدة والاستاذ جميل رمزي القبطان الذى الف عدة مسرحيات باللغة الفصيحة مثل ضحية العفاف والجندي الباسل وسليم بطي الذي كتب باللغة العامية عدة قطع تمثيلية نذكر منها المساكين ، طعنه في القلب ، الاقدار ، ونديم الاطرقجي الذي كتب مسرحية الحاجب المنصور والاعتراف وابن الدلال والمنكوبه وصفاء مصطفى الذي كتب بالعامية عنتر للايجار وكاترين والوطن والبيت وميلاد حب . وسندرس هذه المسرحيات ونبين خصائصها ومواطن القوة والضعف فيها في الفصول القادمة .

المسرح في الموصل بعد الحكم الوطني

عرفنا في بداية هذا الفصل أن المسرح ظهر اولا في مدينة الموصل ، وان الفضل في اظهاره وممارسته يعود الى اهتمام بعض الاوساط الدينية المسيحية ولاسيما المدرسة الاكليركية . فكان من الطبيعي اذن ان يتمهد الجو لظهور الحركة التمثيلية من جديد بعد قيام الحكم الوطني لان اهالي الموصل كانوا أعرف من غيرهم بهذا الفن وأسبق من غيرهم في ممارسته وتطويره .

وكان من الطبيعي ان لا ينحصر الفن التمثيلي في المدارس المسيحية ، لان هذه المدارس كانت تقيم الحفلات فيشهدها الناس بصرف النظر عن كونهم مسيحيين او مسلمين . ولهذا ما كاد يظهر الحكم الوطني حتى وجدنا مدينة الموصل سباقة الى العناية بالحركة التمثيلية . ولم يقتصر امر العناية بهذه الحركة على رهبان وتلامذة المدارس المسيحية ، بل تعداه الى الاوساط الاسلامية . فالموصليون المسلمون لم يتعرفوا على الفن المسرحي في المدارس المسيحية فقط ، بل شاهده بعضهم في دمشق وحلب ، لان شباب الموصل كانوا على اتصال دائم باشقائهم في سوريا ولبنان ، فتسنى لهم الاطلاع على الفن التمثيلي من هذا الباب ايضا . ولعلك ستندهش اذا عرفت ان أول حركة تمثيلية منظمة قامت في الموصل لا في بغداد ، وان هذه الحركة سبقت

مثيلتها في بغداد بعدة سنوات .

وكان من ثمرات هذه الحركة المبكرة انها دفعت بعض شباب الموصل المثقف الى تأليف المسرحيات التاريخية التي استقت موضوعاتها من تاريخنا العربي واتسمت بروح قومية واسلامية عالية . فكان شباب الموصل الغيارى في طليعة بناة الحركة المسرحية في العراق . كما كان لهم الفضل الاول في رفع هذه الحركة الى وجهة تجمع بين الاهتمام بالفن وبين توجيهه وجهة قومية تسعى لاحياء التراث العربي وتتخذ من المسرح وسيلة للكفاح القومي تصريحا وتلميحا وواسطة للدعوة الى مكارم الاخلاق ووسيلة لخدمة الحركة الوطنية في العراق .

وكان النادي الادبي الذي تاسس في مدينة الموصل سنة ١٩٢١م مبعث هذه الحركة التمثيلية ومركزها الفعال . ان التاريخ مدين للاستاذ الفاضل السيد عبدالمنعم الغلامي ، لان له الفضل الاول في تسجيل مراحل الحركة التمثيلية في الموصل ، وتفصيل ظهورها وتطورها في كتابه القيم ــ (أسرار الكفاح الوطني في الموصل). لقد زودنا الاستاذ الغلامي بهذه المعلومات التي لا تثمن في فصل خاص سماه (التمثيل في النادي الادبي) فاستوفى فيه اكثر ما يحتاجه الباحث في هذا الموضوع ، اذ كان هو نفسه من جملة شباب الموصل الذين اسهموا في دعم هذه الحركة التمثيلية الفنية والتضحية بالكثير من أجل نهوضها ودوامها .

قال الاستاذ الغلامي : ومن خطواته الاخرى ــ يقصد النادي الادبي ــ اهتمامه بأمر تمثيل الروايات لاهم احداث التاريخ العربي والاسلامي التي تبعث اليقظة في نفوس الشباب ، وتطلعهم على سير اجدادهم الماضين واخلاقهم القديمة من عفة وطهارة ، ووطنية وبسالة ، وتضحية ونجدة ، وانتصارات وتوسع في الارض لرفع راية الحضارة والدين ، وقال في موضوع آخر : ولهذا الغرض تألفت لجنة ادارية للتمثيل قوامها خمسة من اعضاء النادي الادبي وهم : الاساتذة الادباء معتمد النادي محمد رؤوف الغلامي وحسيب السعدي وفاضل الصيدلي واسماعيل الفرج وعبدالمجيد شوقي البكري . وكان من جملة مهام هذه اللجنة تنوير أفكار الجمهور بتمثيل روايات تاريخية يضعها النادي او تنتجها اللجنة ، وانتخاب الذوات الصالحين لفن التمثيل ، وتوزيع الادوار المسرحية عليهم حسب القابلية والاستعداد . وقد قررت اللجنة تمثيل مسرحية بعنوان (فتح عمورية) وعهدت الى الاستاذ عبدالمجيد شوقي البكري مهمة تأليفها ، والى الاستاذ فاضل الصيدلي بتنظيم الاشعار اللازمة لها .

وقد أتم الاستاذان المذكوران تأليف (فتح عمورية) وتليت فصولها أمام اللجنة فأقرتها بعد التنقيح وادخال بعض التعديلات عليها .

واختارت اللجنة عددا من أعضاء النادي ذكر المصدر أسماءهم ، فوزعت عليهم أدوار المسرحية ولكن بعض المصاعب حالت دون انجازهم الواجب

المطلوب منهم(١٥) فاضطرت لجنة التمثيل بعد أن تأخر العمل واشتدت المطالبة بتنفيذه الى اعفاء بعضهم من التمثيل ثم وزعت الادوار من جديد على السادة التالية اسماؤهم :

محمود حمدي الجراح ، نجم الدين عبدالله اليحى ، سعدالدين آل زياده . عبدالمنعم الغلامي ، علي أحمد النحاس ، قاسم فهمي الشماع ، جلال محمد بك ، نوري حسين اغا الجبوري ، نوري أحمد الجبوري ، يونس حسين اغا الجبوري ، رشيد عبدالله البكري ، فليح خيري حسن العثمان ، عبدالغفور الحاج أيوب ، ادريس اسماعيل الخياط ، أحمد الايوب الراوهجي ، محمود أحمد ، وهب النجار ، مهدي صالح ، بشير محمود الجراح ، والسيد عبدالقادر المفتي الموصلي .

وقد أتم السادة المذكورون واجباتهم المسرحية فجرى العرض في ٩ و١٣ و١٦ حزيران سنة ١٩٣٢ فلاقت المسرحية اقبالا عظيما من جمهور الموصل آنذاك . وقد ضاع نص مسرحية (فتح عمورية) لسوء الحظ ولكن الاستاذ الغلامي لم ينس الاحتفاظ بخطوطها العريضة فذكر لنا عدد فصولها وموضوعات تلك الفصول وذكر شخصياتها وموجز احداثها فاغنانا ـ جزاه الله خيرا ـ عن البحث والتنقيب : وهذا هو منهاج الحفلة التمثيلية كما ذكره المصدر :

١ ـ نشيد افتتاحي ينشده الممثلون .
٢ ـ الفصل الاول : في عمورية بعنوان حب غير متبادل .
٣ ـ الفصل الثاني : في السجن ـ حب غير متبادل .
٤ ـ الفصل الثالث : في السجن ـ فجر الامل .
٥ ـ الفصل الرابع : في دار السلام ـ الشهامة العربية .
٦ ـ الفصل الخامس : الحصار والفتح ـ صدق العزيمة .
٧ ـ الفصل السادس : المحاكمة ـ العفو عند المقدرة .

وكانت شخصيات المسرحية المهمة كما يأتي :

١ ـ الخليفة العباسي المعتصم بالله قام به السيد محمود حمدي الجراح .
٢ ـ الشاعر العربي أبو تمام مثله السيد نجم الدين عبدالله .
٣ ـ القائد الروماني سابينوس مثله السيد علي أحمد النحاس .
٤ ـ الفتاة العربية قام بدورها أحد الاعضاء .
٥ ـ ابن الفتاة العربية مثله الطفل بشير محمود الجراح(١٦) .

وكان موجز المسرحية كما لخصه الاستاذ الغلامي على النحو الآتي :

فتاة عربية جميلة وقعت في أسر قائد من قواد الروم (سابينوس) فاحبها وعرض عليها الزواج ، ولكنها لم تبادله الحب ورفضت الزواج منه بإباء وشمم ، وأغلظت له القول ، فسجنها في بلدة (عمورية) وأخذ في

تعذيبها حتى انه لم يتورع من قتل طفلها أمامها فأطلقت المرأة الصرخة الشهيرة (وامعتصماه) فرد عليها القائد الرومي متهكما : سوف يأتيك المعتصم على جواده الابلق وينقذك من يدي يا مجنونة ! ولما بلغ خبرها المعتصم نهض من ساعته غاضبا وأمر بجلب كل جواد أبلق من النواحي والبلاد ، وسار بجيش جرار على خيول بلق الى بلاد الروم فأكتسح الثغور ، وتوغل في البلاد حتى وصل عمورية (القرية القريبة من انقره) وحاصرها حصارا شديدا حتى تم له فتحها وانقاذ الفتاة العربية من أسرها وعاد الى بلاده مثقلا بالغنائم مكللا بالنصر فانشده أبو تمام قصيدته البائية الشهيرة وقد تخللت فصول المسرحية اشعار نظمها الاستاذ الشاعر فاضل الصيدلي ٠ والمسرحية تبرز عفة المرأة وغيرة الخلفاء المسلمين ونجدتهم ومضاء عزيمتهم وتضحيتهم ٠٠٠ الخ[١٧] ونحن وان كنا نقدر هذا العمل الفني لا نستطيع أن نبين القيمة الفنية أو الدرامية لهذه المسرحية لان نصها لم يصل الينا ٠ ولكن أسماء فصولها تدل على أن احداثها نظمت في تسلسل مسرحي مثير اضف الى هذا ان موضوع الفتاة الاسيرة التي يحبها آسرها ثم ينتقم منها لاعراضها عنه بقتل طفلها أمام عينها صالح جدا لتأليف دراما ناجحة وتنظيم مشاهد مسرحية تصطرع فيها العواطف والمصالح بصورة مثيرة مؤثرة ٠

والغريب ان فصول المسرحية بلغت ستة فصول ٠ وكان هذا أمرا غير مألوف في الفن المسرحي وهو يدل على جهل المؤلف ببعض شروط ومتطلبات التأليف المسرحي ٠ والمسرحية مدينة للقصة المثيرة التي رواها المؤرخون عن غزوة عمورية وقصيدة ابي تمام المشهورة وشاعرية الاستاذ فاضل الصيدلي ٠ وتأثير الدراما الرومانتكية التي ظهرت في القرنين الثامن والتاسع عشر في فرنسا واضح في استقاء موضوعاتها من التاريخ القومي وفي الخروج على قاعدة وحدة المكان والزمان وفي تمثيل حوادث العنف والقتل على المسرح (قتل ابن المرأة العربية من قبل القائد الروماني) ومن مزج الشعر بالنثر واقحام الحب بهذه الصورة في الموضوع - والحق ان هذه الخصائص الرومانتيكية قد غلبت على المسرحيات العربية التي ألفت في سوريا ومصر في تلك الفترة وما زال هذا الاسلوب مستمرا الى الآن وخاصة في المسرحيات التاريخية ٠

وقد شجع نجاح مسرحية (فتح عمورية) شباب الموصل على ارتياد هذا الفن والسعي لتنميته وتطويره ، فقام الاستاذ يحيى ق سنة ١٩٢٣ متعاونا مع بعض الشباب بتمثيل مسرحية (وفود النعمان الى كسرى) لمنفعة المعهد العلمي الذي افتتح ببغداد ٠ وقد شجع نجاح الحفلة السيد يحيى وصحبه على تأليف فرقة تمثيلية اتخذت مقرها في بناية قريبة من دائرة الشرطة واقامت فيها مسرحا اطلقت عليه اسم (دار التمثيل العربي في الموصل) ٠ ولا جدال في ان دار التمثيل هذه هي أول دار تمثيل ظهرت في العراق لان الحركة التمثيلية في بغداد كانت ضعيفة ومقتصرة على نشاط

موسمي في مدرسة التفيض الاهلية • وقد تغلب العاملون في دار التمثيل المذكورة على المصاعب المالية والفنية وتمكنوا من تقديم عدة مسرحيات عربية بنجاح فمثلوا للجمهور في الموصل مسرحيات : العفو عند المقدرة ، وشهداء الوطنيـــة (وهي مسرحية أدبيــة معربة) ، وفاء العرب ، فتح مصر ، فتح عمورية ، وفتح الاندلس ، ويمكنك أن تتصور ما يتطلبه تمثيل مثل هـــذا العدد من المسرحيات من متاعب وجهود كما يمكنك ان تقدر الدور الواضح الذي قامت به دار التمثيل العربي في خدمة الحركة المسرحية في الموصل خاصة والعراق عامة وفي تعريف الجمهور بهذا الفن الذي لم تكن له عنه فكرة واضحة في ذلك الحين •

وقد خصصت الفرقة أي فرقة دار التمثيل جانبا من أرباح حفلاتها الى عـــدد من المؤسسات والجمعيات الوطنيـــة كالحزب الوطني وحـزب الاستقلال •

اما الشباب العاملون فيها فكانوا على ما ذكر الاستاذ الغلامي في كتابه المار الذكر : المدير المسؤول يحى ق ونوري الحاج أيوب ، ذنون الحاج أيوب محمـود الحاج أيوب ، علي حيدر سليمان ، بهجت النقيب ، اسماعيـــل العباوي ، خليل العباوي ، أحمد نهاد الصلح ، محمود الرضواني ، علي أحمد النحاس ، عبدالعزيز القصاب ، أحمد نجاتي ، محمد الشهواني ، فؤاد الشيخون ، توفيق عبدالجبار حمودات ، مصطفى السيد عبدالله ، صنع الله العمري ، عثمان حسن العثمان وجرجيس مسكوني • وكان حسيب عبدالفتاح ومصطفى نوري يقومان بشؤون الماكياج • وعبدالمنعم الغلامي يقوم بالتلقين وافتتاح الحفلات التمثيلية بالخطب والـكلمات المناسبة •

وقد قال الغلامي في معرض تقديمه (رواية) العفو عند المقدرة من ٢٨ مارت ١٩٢٣ :

الا وهي رواية عفو أمير عربي عـن قاتل أبيه وعمن كان السبب في قتله ••• الخ • ثم قال : وها نحن نعرض أمامكم روايـــة (العفو عنــد المقدرة) التي جرت حوادثها في الحيرة عاصمة المناذرة قبل الهجرة النبوية بنحو ثمانين عاما ، وهي حادثة الاسود بن المنذر ملك الحيرة مع النعمان بن الحارث ملك بني غسان(١٨) •

أما مسرحية (شهداء الوطنية) فقد مثلت خلال السنة نفسها ١٩٢٣ وكانت ملخصا لمسرحية شهداء الوطنية الهولنديين(١٩) وكانت هذه المسرحية من جملة المسرحيات الاجنبية التي عربها الشيخ سلامه حجازي (١٩٠٥ — ١٩١٤) وقامت بتمثيلها فرقته أو جوق الشيخ سلامه كما كانت تسمى سنة ١٩٠٩ في القاهرة(٢٠) •

اما مسرحية (وفاء العرب) فقد مثلت في دار التمثيل العربي يوم ٥ مارت ١٩٢٤ ، وهي الرواية التي تمثل حادثة السموأل بن عاديا الشهيرة عندما حفظ الامانة التي اودعها لديه الامير العربي أمرؤ القيس بن حجر

الكندي ... الخ(٢١) وقد تضمنت المسرحية شأنها شأن (فتح عمورية) رهينة ساوموا على حياتهـا والده المحاصر . ولم يشر المصـدر الى مؤلف حادثا أو فاجعة تراجيدية تمثلت في قتل ابن السموأل خارج الاسوار التي كان ينظر من شرفاتها والده . وكان المحاصرون قد اعتقلوه واتخذوا منه المسرحية ولكن وصفه المختصر يدل على مسرحية السموأل أو وفاء العرب لانطوان الجميل المطبوعة سنة ١٩٠٩ . وقد تناول المؤلف فيها قصة وفاء السموؤل كما روتها كتب الادب كالاغاني والعقد الفريد وأضاف اليها أو ادخل فيهـا حادثة غرامية بطلاها عاديا ابن السموأل وهنـد بنت امرىء القيس ... الخ(٢٢) . ولست أدري اذا كان فرقة دار التمثيل قد استطاعت ان تعهد بدور هند الى احدى الفتيات أم ان أحد أعضائها قد قام بهـذا الدور . وموضوع السموأل سبق أن قدمه للمرح مدرسو الكلية اليسوعية في بيروت وكان أول من سبكه بقصة مسرحية الأب خليل اده سنة ١٩٠٦ ثم تناول انطوان الجميل القصة وكتبها بأسلوب أحسن وبصورة مفصلة توفرت فيها كثير من الخصائص الدراماتيكية(٢٣) ثم قدمت دار التمثيل بعد ذلك مسرحية (فتح مصر) التي قام بتأليفها الاستاذ يحيى ق معتمدا على ما روته المصـادر التاريخية عن هذا الموضوع ، ومستعينا بالاستاذ الشاعر فاضل الصيدلي لنظم الاشعار المناسبة لاحداث المسرحية . وقامت فرقـة دار التمثيل بتقديمها على مسرحهـا بالموصل في ٢٨ نيسـان سنة ١٩٢٤ وخصص ريعها لمنفعة حزب الاستقلال(٢٤) - وقد افتتح هذه الحفلة أيضا الاستاذ الغلامي واشاد في خطابه بأهمية التمثيل والدور الذي يقوم به في خدمة الحركات القومية والوطنية ثم شرح موضوع المسرحية قائلا : وعلى ضوء هذه الامور أخذنا نحن جماعة الشبان على عاتقنا الاهتمام بفن التمثيل في مديننتنا هذه ، وبذلنا ما في وسعنا لذلك ... الخ . وقال :

انـنا سنعرض اليوم أمام حضراتكم رواية (فتح مصر) على يد أحد قادة المسلمين العرب العظماء عمرو بن العاص في أيام خلافة أمير المؤمنـين عمر بن الخطاب (رض) وسيظهر لـكم من عرض هذه الرواية ضروب من بطولة الاجداد ومن خططهم في أنحـاء المعمورة ناشرين ألوية العـدل والامان(٢٤) .

لقد ضاع نص هذه المسرحية فتعذر علينا انجاز موضوعها وبيـان خصائصها الفنية العامة . ولـكننا نستطيع ان نستنتج انها من طـراز (فتح عمورية) أي انها اقتبست موضوعها من التاريخ العربي مستهدفة التأكيد على الفضائل العربية ومستندة على حادث واحد أو عدد من الحوادث التاريخية .

(١) طبعت مسرحية وحيدة في مطبعة المعارف عام ١٩٣٠ كما يظهر من التاريخ الذي ذكره المؤلف في مقدمتها وهو : سويسرة ١٩٣٠ وكتب تحت اسمها على الغلاف عبارة — (دراما عراقية عصرية) — .

(٢) انظر الدليل العراقي المطبوع سنة ١٩٣٦ .

(٣) الاول في مجلة الفنون البغدادية سنة ١٩٥٧ والثاني في جريدة الوطن في ٢٤ـ٨ـ١٩٦٣ .

(٤) نفســه .

(٥) الدليل العراقي وانظر مجلة بغداد .

(٦) انظر متن اوند تاريخ المسرح والمسليات في تركيا بالانكليزية .

(٧) عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة .

(٨) انظر كتاب المسرحية في الادب العربي الحديث للدكتور يوسف محمد النجم .

(٩) جريدة الرقيب البغدادية بتاريخ ٢٧ ربيع الاول ١٣٢٧هـ .

(١٠) جريدة الايام البغدادية بتاريخ ١٤ـ٩ـ١٩٦٢ .

(١١) مجلة بغداد العـــدد ص١٨ .

(١٢) الدليل العراقي ص

(١٣) نفســـه .

(١٤) المصـــدر السابق .

(١٥) عبد المنعم الغلامي : أسرار الكفاح الوطني في الموصل ص٢٥٤ .

(١٦) المصدر نفسه ٢٦٢ .

(١٧) المصـــدر نفسه ٢٦٢ و ٢٦٥ — ٢٧٠ .

(١٨) المصـــدر نفسه ٢٩١ — ٢٩٣ .

(١٩) المصـــدر نفسه .

(٢٠) الدكتور محمد يوسف نجم . المسرحية في الادب العربي الحديث ١٤٢ .

(٢١) الغلامي — أسرار الحركة الوطنية ص٢٩٦ — ٢٩٨ .

(٢٢) محمد يوسف النجم : المسرحية ٣١٥ — ٣١٧ .

(٢٣) المصدر السابق ٣٣٤ ومجلة المشرق السنة ١٢ ، ٩ ، ١٩ ص٦٣٤ .

(٢٤) أسرار الحركة الوطنية في الموصل ٢٩٩ـ٣٠٠ .



العنصر العربي والحضارة العربية الاسلامية

سليم طه التكريتي

تجد الحركة الشعوبية الحديثة ملجأ لها لدى بعض الذين قصدوا لدراسة التاريخ العربي والحضارة الاسلامية من المستشرقين الذين يدفع بهم حقدهم الاسود على الامة العربية، واخفاقهم في حروبهم الصليبية ضدها، الى الانتقاص من قيمة النهضة العربية الجبارة التي ادهشت العالم بعظمتها، واضاءت ارجاءه بنورها الوهاج، وما زالت تثير اعجاب الباحثين في التاريخ البشري والمدنية الانسانية الشاملة.

ولقد تركز هجوم الشعوبية الحديثة ــ وهي امتداد للشعوبية الاولى التي تزعمها الفرس منذ اوائل عهد الامويين ــ التي يقودها اولئك الحاقدون من المستشرقين وعلى رأسهم «رينان» الفرنسي و «اوليري» الانكليزي، على الحضارة العربية الاسلامية في نقطتين رئيستين هما: الادعاء بأن الذين نبغوا في الدولة العربية الاسلامية لم يكونوا من عنصر عربي خالص، وان العرب والمسلمين لم يكونوا منشيء حضارة وانما هم مجرد نقلة لتراث من سبقهم من الامم.

لقد استند هؤلاء في النقطة الاولى من ادعاءاتهم على نظرية العرق التي ظهرت في اوربا في اواخر القرن التاسع عشر تلك النظرية التي تقول بتقسيم الجنس البشري الى عناصر او عروق مختلفة منها الآري والسامي والفلمنكي، والى الوان منها الابيض والاسود والاصفر ولقد بلغ التعصب بأصحاب هذه النظرية حدا جعلهم يضعون درجات لاصناف الشعوب بالنسبة الى قابليتها على الابداع والتطور حتى رأينا الدكتور الفريد روزنبرغ الفيلسوف العنصري النازي يقسم تلك الشعوب الى حوالي ثماني عشرة درجة يضع الشعب العربي في الدرجة الخامسة عشرة او السادسة عشرة منها ويقرر بأن العرق الآري هو المسؤول وحده عن بناء المدنية الانسانية الحاضرة وان العنصر الجرماني هو على رأس العناصر التي يتألف منها العرق الآري.

وطبقا لهذه النظرية العرقية يدعي اقطاب الشعوبية المعاصرة ان معظم الرجال الذين برزوا في العالم الاسلامي في مختلف نواحي العلم والمعرفة كانوا

من عناصر غير عربية . فابن سينا والفارابي والخوارزمي والبستاني والطوسي والخازن والبيروني والبوزجاني والاصفهاني وياقوت الرومي وابو حنيفة واخوان الصفا وغيرهم من فطاحل علماء الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والفقه والآداب والجغرافيا وغيرها ، كل هؤلاء لم يكونوا عربا ولم يجر الدم العربي في عروقهم فقط وانما كانوا من اجناس اخرى جلها من الفرس والترك والروم وحيث ان أكثرية النوابغ في عهد الحضارة العربية الاسلامية كانوا من عنصر غير عربي فان من الصحيح القول بأن تلك الحضارة لم تكن حضارة عربية .

اما عن النقطة الثانية فان الشعوبية الحديثة تنكر فضل العرب المسلمين على الحضارة البشرية بدعوى ان العرب لم يفعلوا في مضمار الحضارة شيئا ولم يأتوا فيها بجديد ، وان كل ما عملوه انهم اقبلوا على تراث الامم الاخرى فنقلوه الى اللغة العربية ، وان تلك المدنية التي ازدهرت في معظم قارتي آسيا وافريقيا وامتدت الى اجزاء قصية من اوربا في عهد بني العباس في المشرق وبني امية في المغرب والاندلس ، والتي يزعم العرب المسلمون انهم بناتها ومشيدو صروحها ، انما هي في الاصل مدنية بابل وآشور وفارس واليونان والهند ، التي سبقت ظهور الحركة العربية الاسلامية بقرون كثيرة فالعرب لم يفعلوا اكثر من السطو على تلك المدنية وادعائها لانفسهم .

على الرغم من الدلائل الكثيرة التي تنقض خرافة تفوق جنس على آخر ، والتي وجد فيها المستعمرون اداة لاطالة تحكمهم بالشعوب المغلوبة على امرها فاننا نقول ان الحضارة العربية الاسلامية هي وليدة الدين الاسلامي الحنيف في الاصل . فالعرب لم يفتحوا الامصار ولم يطوفوا في الآفاق الا بعد ان اعتنقوا الدين الاسلامي وسعوا الى نشره بين مختلف امم الارض . ويتجلى ذلك صريحا في جميع الفتوحات التي قام بها العرب اذ كانوا الغرض منهم نشر الاسلام ودعوة أهل البلد الذي يتجهون لافتتاحه الى اعتناق الدين الاسلامي قبل ان يظاهروهم العداء او يخوضوا معهم المعارك .

ولما كان اعتناق الاسلام يستلزم من معتنقيه تعلم اللغة العربية لانها لغة القرآن والحديث والسنة النبوية المتممة للكتاب المجيد ، فقد انصهرت الاقوام المختلفة التي دخلت في الدين الاسلامي بالعنصر العربي وتعلمت لغته ، وحذقت آدابه وتقاليده . ولذلك نرى هؤلاء وقد اشتهروا بآرائهم ونظرياتهم ومعلوماتهم التي أودعوها في كتبهم ورسائلهم المكتوبة باللغة العربية فلا يذكر لنا التأريخ مثلا ان احدا من اولئك العظماء المتحدرين من أصل غير عربي انما كانوا يكتبون مؤلفاتهم بلغاتهم الأصلية أي لغة العنصر الذي كانوا ينتمون اليه .

فهذا ابن سينا مثلا قد وضع ما عرف عنه حتى الآن مائتين وستة وسبعين كتابا ورسالة وضعها كلها باللغة العربية ما عدا بضع رسائل لا تتجاوز اصابع اليد كتبها بالفارسية منها رسالة « حكمة علائية » ورسالة

« كنوز المغرمين » التي يعتقد بأنها ترجمة رسالته «النيرنجيات» .

ووضع الفارابي أكثر من مائة مؤلف ورسالة وقد كتبها كلها باللغة العربية ومثل هذا نستطيع ان نقوله عن بقية العلماء والمفكرين .

فابن سينا لم يكتب ولا رسالة واحدة بلغة عنصره وهي اللغة التاجيكية، ولم يضع الفارابي أي كتاب او بحث بالتركية لغته الاصلية ولا دون الخازني نظرياته عن الطبيعة والفلك باللغة الفارسية لانه كان فارسيا من مدينة مرو في خراسان .

لقد كان هؤلاء جميعا يتكلمون العربية ويفكرون بها وبها يكتبون كما كانوا في الوقت ذاته يتحسسون بالمشاعر الاسلامية وهي في الاصل مشاعر عربية خالصة .. وعلى هذا فلا يمكن الفصل بينهم وبين بقية العرب الخلص المتحدرين من ارومة عربية .

واكثر من هذا ان عددا كبيرا من المؤرخين والباحثين المحدثين يعتبرون حتى من نبغ من اليهود والنصارى والوثنيين في عصر النهضة العربية الاسلامية مدينين بنبوغهم ذلك الى الاسلام وما فجره من ينابيع المعرفة والعلم ، وما وهبه للمجتمعات التي ظهر فيها من معطيات عظيمة . فالعقيدة الاسلامية هي التي كانت تحث المسلمين عربا ام غير عرب على السير في جميع دروب الفكر البشري . فهي ، اي العقيدة الاسلامية ، لم تكن دينا وحسب بل كانت مدنية شاملة حافلة بكل عناصر العلم والثقافة والمعرفة . وجميع الذين نشأوا في كنف هذه المدنية يمكن اعتبارهم عربا بل حتى اسلاميين بحكم الفكر والوسط والتراث العقلي المشترك . فالدين الاسلامي مدنية ذات يقظة ووثوب بدأت بظهور الاسلام ، وتعاظمت بفتوحاته ، وتكاملت قوتها بعد ان شملت شعوبا كثيرة في الشرق والغرب وهذا ما يقرره كثير من علماء المشرقيات القدامى منهم والمحدثون .

فاللغة أهم رابطة قوية تربط أبناء الشعب الواحد لانها تؤلف وعاء الفكر والحياة لذلك الشعب وهي لذلك اقوى من رابطة الدم التي لا يمكن التعويل عليها لانه يستحيل وجود شعب ظل دمه نقيا لم يختلط بدماء الشعوب الاخرى على ممر العصور والاجيال . فعلماء الاسلام الذين عاشوا في المجتمع العربي وكانوا يحذقون العربية تكلما وكتابة ويتحسسون بكل ما يتحسس به العرب انما هم في الحقيقة عرب باللغة والمكان والاحساس وان لم يجر الدم العربي في عروقهم .

ونعود الى الطعن الثاني الذي توجهه الشعوبية المعاصرة الى العرب فنقول ان العرب وان كانوا قد نقلوا كل ما وصل اليهم من تراث اليونان والفرس والهنود والكلدان وغيرهم الى اللغة العربية الا انهم لم يقفوا عند حدود هذا النقل حسب ابدا . فلقد طور العرب تلك العلوم التي نقلوها بما اوجدوه لها من شروح وبما ادخلوه عليها من اضافات وزيادات وتمحيصات وتصحيحات قلبتها رأسا على عقب فغدت علوما عربية خالصة

تكاد تنقطع صلتها بأصولها القديمة . واكثر من هذا ان العرب قد اوضحوا بالتجارب العلمية والمنطقية خطأ كثير من النظريات والآراء والاحكام التي قال بها اليونانيون أو الفرس أو الهنود سواء ما تعلق منها بالفلسفة والطب ام الطبيعة والرياضيات والفلك فمن يدرس اليوم الفلسفة اليونانية ويقارنها بالفلسفة الاسلامية يجد البون شاسعا بينهما رغم ان كثيراً من اصولها كانت واحدة ذلك لان الفلسفة الاسلامية مثلا خاضت موضوعات لم تتطرق اليها الفلسفة اليونانية من قبلها او لم توفها حقها من الايضاح والتقدير وهذا ينطبق أيضا على علم الرياضيات الذي تفوق فيه العرب على من سواهم تفوقا عظيما وذلك بما ابتدعوه من نظريات جديدة وما اوجدوه من مكتشفات حديثة في هذا الشأن .

ولا يقل تفوق العرب في الطب والطبيعة على الأطباء والعلماء اليونانيين والهنود عن تفوقهم عليهم في ميادين المعرفة الاخرى .

ولسنا نريد في هذه المقالة الموجزة ان نورد الشواهد العديدة التي تفند افتراءات الحاقدين على العروبة والاسلام وتدحض أكاذيب الذين ينكرون الدور الجبار الذي اضطلع به العرب المسلمون في اقامة صرح الحضارة العالمية ، وانما نكتفي بايراد بعض امثلة منها ومما دونه المستشرقون انفسهم الذين لم يستطيعوا الا الاشادة بمساهمة الفكر العربي الاسلامي في توطيد دعائم المدنية الانسانية ، وبمقدار ما ادته الحضارة الاسلامية من خدمات عظمى للجنس البشري .

يقول « ول ديورانت » صاحب كتاب « قصة الحضارة » ان « جميع مسالك العالم الاسلامي كانت تعج برجال الدين والجغرافيين والمؤرخين الذين لا يحصيهم العد ، انتشروا في الارض بحثا وراء المعرفة والحكمة » .

ويقول « جون درابر » في كتابه « التطور الفكري في اوربا » ، « لقد تحايل الادب الغربي ليخفي عن الانظار مآثر المسلمين العلمية علينا ... ولقد ترك العربي طابعه الفكري في اوربا منذ زمن طويل ... » .

وقال « سيديو » في كتابه « تأريخ العرب العام » لقد « ادعينا طويلا ان العرب لم يفعلوا شيئا أكثر من نقل علوم اليونان . ان تأييدنا قولا مبهما كهذا يجعلنا نتهم بالجهل والخطأ ... فنحن اذ ندين بالعرفان لمدرسة بغداد ليس لانها حفظت مؤلفات علماء الاسكندرية حسب ، ولكننا ندين لها بالقاعدة التي وضعتها لحساب المثلثات الكروية » .

ويقول نيكلسون صاحب كتاب تأريخ العرب الادبي ، « وما المكتشفات اليوم لتحتسب شيئا مذكورا ازاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء في القرون الوسطى المظلمة ولا سيما في اوربا » .

ويقول « وايد مان » ، « ان العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدا وطبقوها على حالات كثيرة ومختلفة ، ثم انشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثا مبتكرة ... » .

ويقول « فلوريان » ، « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس ، وسبقهم الى ترقية العلوم والفنون ... ولا نبالغ اذا قلنا ان اوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التي كانت العامل الاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر » .

ويقول « البارون كار دي فو » ، « ان العرب لم يكونوا حفظة للعلوم وخزنة لهـا حسب وانما توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهـد في تحسينها وانمائها حتى سلموها للعصور الحديثة ... »

ويقول الدكتور « سارتون » في كتابه « مقدمة في تأريخ العلم » ، « اذا افترضنا ان العرب لم يكن سوى نقلة لعلوم الاقدمين أليس في عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم هذا لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ، ولـكنا حتى اليوم في القرون الوسطى ... ولذلك فالعرب كانوا أعظم معلمين في العالم خلال القرون الوسطى .. » .

ويقول « جوزيف ماك كيب » في كتابه « مدنية اعرب في الاندلس » ، « هنـاك الفاظ عربية تذكرنا بما للمسلمين علينا من فضل من الوجهـة العلمية ... ولو ان مدنيتهم ابقي عليها واستمر تقدم ثقافتهم لـكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقى مما نحن فيه » . ويضيف ماك كيب الى هـذا قوله « ان تأريخ العرب المسلمين عظيم وخدمتهم للجنس البشري عظيمة جدا وهامة وقد غمط أكثر المؤرخين حقهم ، ولعبت أيدي الـكتاب المتعصبين دورا عظيما ومكروا مكرا كبيرا في اخفاء فضلهم . فوجب علي ان اخصص وقتي لتأليف ستة كتب كبرى على الاقل للاشادة بآثارهم » .

وتقول الدكتورة زخريد هونكة في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، « واننا لتدين ــ والتأريخ شاهد على ذلك ــ في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب » .

كما ذكر السـر ادوارد ثوب في كتـابه « تأريخ الـكيمياء » بقوله « والحقيقة انك لا تجد قط علما من العلوم الا وكان الفضل الاكبر فيـه للمسلمين » .

●

مصادر البحث

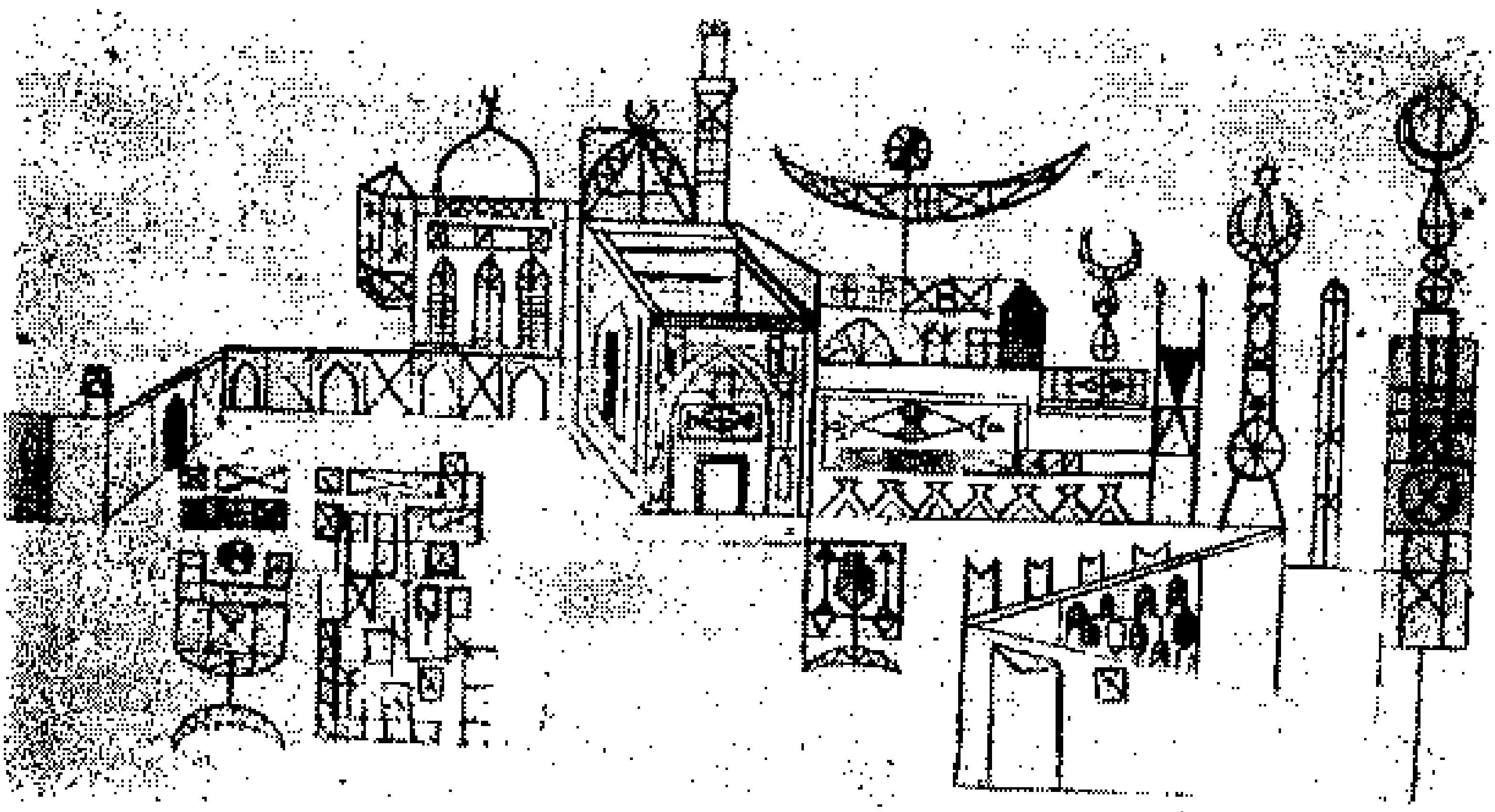
١ — Encyclopedia Britanica Articles: Phylosophy, Physics, Astronomy, Arithmatics.

٢ — ول دورانت : قصة الحضارة ترجمة محمد بدران

٣ — جوزيف ماك كيب : مدنية العرب في الاندلس ترجمة تقي الهلالي

٤ — ستانلي لين بول : العرب في اسبانيا ترجمة علي الجارم

٥ ــ ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس ترجمة دوقان قرقوط
٦ ــ زخريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي
٧ ــ قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي
٨ ــ قدري حافظ طوقان : الخالدون العرب
٩ ــ محمد لطفي جمعة : فلاسفة الاسلام
١٠ ــ جرجي زيدان : المختصر في آداب اللغة العربية
١١ ــ عبداللطيف الطيباوي : محاضرات في تاريخ العرب والاسلام
١٢ ــ مجلات المقتطف ، والعلوم ، والعربي ، وأسرار العالم ، والازهر ، ومنبر الاسلام وغيرها



قصــة

الثأر

ياسين رفاعية

انها الريح ، ما زالت تعصف تلك الريح ، منذ عشر سنوات ما زالت تعصف ٠ ما زالت تمزق كبريائي يوما اثر يوم وساعة بعد ساعة ، انها ريح شرسة قاسية ، تصفع احساسي في الاعماق ، وانا ادور في دوامة هائلة ، انتظر هذا اليوم الذي اصبح فيه حرا طليقا ٠

لقــد جــاء

جاء هذا اليوم ، ساعات ، وارتاح من صورة اخي التي تلح على ذهني رغم مرور عشرة أعوام ٠

كنت آنذاك فتى يافعا ، اهيىء نفسي لمستقبل حلو كان يمكن ان يتحقق ، كان اخي الرجل الذي انشأني بعد وفاة ابي الذي لا اذكر ملامحه قط ، ولقد ارادني ان أكون شيئا هاما في الحياة طبيبا أو محاميا ، فان التجارة التي كان يزاولها عمل صعب يحتاج الى اعصاب متينة ٠

ولما عرفت « سلمى » السمراء الدافئة ، جئت اخي بخجل وحنين ، وحدثته عن حبي العميق لها ، فربت على كتفي وقال لي بصوته الهادىء :
ـ ستكون لك يا اخي ٠٠ المهم ان تهيىء لنفسك المستقبل الذي احبه لك ٠

وفي الحديقة الواقعة في ظاهر المدينة ، ضممت يد سلمى بين يدي بحنان ٠ كان ثمة اشجار تظللنا ، وتعاهدنا على ان نكون لبعضنا ، وقالت سلمى : سانتظرك يا عزيزي ٠٠ وساشعر بلذة في انتظارك ٠٠ سانتظرك ٠٠ تأكد من ذلك ٠

قبلت باطن كف سلمى ،، وما ان مالت الشمس الى المغيب ، حتى قالت يجب ان اذهب ، ان اخوتي يقتلونني لو رأوني معك ٠ فقد تأخر الوقت ٠

ذهبت سلمى ، وبعد قليل هرولت طربا وأنا اصفر لحناً جميلا الى البيت ، كانت صورة سلمى الحزينة السمراء ترسم لي مستقبلا جميلا حلوا فيه بيت واطفال وفيه خصامات صغيرة تنتهي دائما بقبلات ناعمة • آه • كم كان المستقبل الذي كنت احلم به آنذاك جميلا •

وصلت البيت ، وقبل ان ادخل ، لمحت سلمى تقف بالقرب من النافذة وابتسامتها العذبة على شفتيها • كأنها تقول : كل شيء على ما يرام •

استقبلتني زوجة أخي قائلة ، وعلى يدها خالد ابنها : لقد تأخر اخوك عن ميعاده ! قلت لا تقلقي •• لابد ان يأتي بعد قليل •

ولم اهتم للامر ، ذهبت الى غرفتي ، وجلست افكر في الوجه الاسمر الدافىء الذي فارقته منذ حين ، وهتفت : يا لروعة سلمى •• كم سأكون سعيدا معها • وكم سننجب من الاطفال •• لا بأس سأوصيها على عشرة ، سبعة صبية ، وثلاث فتيات •

ذلك اليوم ، مرت ساعات طويلة ، قبل ان تدخل علي زوجة اخي مرة اخرى لتقول : تأخر اخوك دون سبب •• قم •• يجب ان تعرف اين هو • فقلت دعيني الآن ، واين يجب ان يكون اذا لم يكن في السينما أو عند صديق آخر •

في تلك اللحظة ، قرع بابنا بشدة غريبة ، واسرعت زوجة اخي ، ثم أمي وجدتي بعدهما بقليل •• دقائق •• وترامى الى مسمعي صراخ رهيب •

قفزت من السرير ، وفتحت باب الغرفة لاجد المنزل وقد امتلا برجال الشرطة وبممرضين وبعض الاشخاص الآخرين •

هبطت الدرج مسرعا لاجد النسوة الثلاث قد انكببن على المقعد الطويل في صدر الغرفة الوحيدة التي تتصدر صحن الدار •

اسرعت ، فاذا بي امام جثة مسجاة ••• يا الله •• جثة اخي •

تقدمت كمجنون منها ، ورحت أهزها صارخا : أخي •• أخي •• من فعل ذلك •• قل •• اخي ••

وراحت دموعي تنهمر بحرارة وانا اهز الجسد الصامت واصيح : يا الله اخي مقتول •• اخي مقتول • ابعدوني عن الجثة ، وسرعان ما حضر اقاربي ووالد زوجة اخي وراحو في نوبة من التفجع والبكاء •

وفي اليوم التالي ، علمت باسباب الوفاة المفجعة •

••• اصطدم اخي برجل آخر يريد منه مبلغا من المال •• وبعد ان شتم كل منهما الآخر •• اطلق الرجل على اخي ثلاث رصاصات من مسدس ضخم ارداه قتيلا • والقي القبض على القاتل الذي استسلم فورا •

لم احتمل ابدا ذلك المنظر المخيف الذي صلب عيني ، فكنت اغيب عن الوعي بين الفينة والفينة فلا اذكر ما كان •

وبعد أيام قليلة ، وجدت نفسي مسئولا عن عائلة وانا بعد في العشرين، ونسيت كل شيء سوى انني اريد ان ارى الرجل الذي قتل اخي ٠

اما صورة قاعة المحكمة التي حوكم فيها فما زالت ماثلة امام عيني بوضـــوح ٠٠ القاضي ذو الفودين الابيضين ، والمحامون والنائب العــام ، والشرطة والشاب القصير الممتلئ القامة وهو يصرخ : محكمة والرجـل القاتل في القفص وهو خائف مضطرب ووجهه الاصفر الباهت يتلفت بذعر يمنة ويسرة ، وما ان تلتقي عيناي بعينيه حتى يبدو وجهه مغرقا في رعب هائل ، وكنت بالفعل ارمقه بنظرات قاسية كلما التفت نحوي ٠

وفي الطرف الآخر ، كانت تجلس امرأة متشحة بملاءة سوداء وعيناها تسحان بالدموع ، بينما كانت تسند الى كتفها طفلا صغيرا تقارب سنه سن خالد ابن اخي

وتبين من خلال المحاكمة : ان اخي قسا على الرجل بشكل مهين ، فقد كان الشهود جميعهم الى جانب الرجل الخائف الذي كان يتمسك بقضبان القفص وعيناه مصلوبتان الى الشهود الذين اكدوا ان اخي كان شرســا وقاســـيا ٠

وبعد أيام صدرالحكمعليه بالسجنمع الاشغالالشاقة عشرسنوات ٠

وصرخت في قاعةالمحكمة : هذا ليس عدلا ٠٠ يجب ان تبشروا القاتل بالقتل ٠٠ انكم لستم عادلين ولـكن شرطيا وضع يده على فمي واخرجني من القاعة ٠

ومنذ ذلك اليوم ، بدأ حقدي ينمو في اعماقي ، ورحت احاول اعادة محاكمته لـكن المحامين كانوا يقنعونني بانني لن استطيع ذلك ، فالحكم قد صدر بناء على أقوال الشهود الذين اكدوا ان اخي كان مغاليا في القسوة على الرجل ٠

كنت اعرف اخي جيدا ، فلم اصدق هذه الاقوال ، لابد ان احدا قد لقن اولئك الشهود لينطقوا وها هو اليوم قد جاء الآن وما زالت صورة اخي تلح على ذاكرتي بعنف وضراوة ، كان يريدني طبيبا او محاميا ، وكانت لي جارتي السمراء سلمى ، وكنت ساطالبها بعشرة أطفال ، سبعة صبية وثلاث بنات ، وكانت ستلبي رغبتيفانها تحبنيحبا عميقا ، كان بالامكان انتتحقق كل هذه الاحلام لو لم يصوب ذلك المجرم ثلاث رصاصات الى صدر أخي ٠

ان صورته وهو مسجي مطبق العينين والشفتين وحوله أمي وزوجته قد انكبتا عليه تنتحبان بصوت عال ٠٠ كانت تلح علي منذ عشرة أعوام ٠

لم استطع ان افعــل شيئا لسلمى ،حتى ان الحقد الذي ترسب في اعماقي أنساني أبتسامتها الدافئة وحنو يدها الصغيرة ، وكل مافعلته سلمى ان تزوجت ضابطا شابا انجبت منه حتى الآن ثلاثة صبية ٠

ومنذ اسبوع خرج قاتل أخي من السجن ، ومنذ اسبوع لم يغمض لي جفن ، وراحت صورة اخي تلح علي بشكل عنيف ، وكان خياله يقول لي :

انت لم ترض بالحكم يا اخي ، انك انتظرت عشرة أعوام كي تحكم انت في مقتلي ، عشرة أعوام طويلة ، اعددت نفسك لكي تحاكمه من جديد ، عشرة أعوام عشرة أعوام ، عشرة أعوام .

كنت اقفز من السرير مذعورا ، واشعل الضوء الكهربائي الذي كان يهتز أمام عيني صارخا : احكم .. احكم انت لقد انتظرت عشرة أعوام لتحكم بالعدل .. عشرة أعوام .

مر هذا الاسبوع وأنا على هذه الحال ، لم انم ولم أهدأ بل انني نسيت كل شيء الا اخي والرجل الذي قتله ، كان اخي يطالبني في كل لحظة : ماذا انت فاعل ؟ .. كيف ستحكم ؟ .. لقد انتظرت عشرة اعوام لتحكم .. إثار لاخيك .. انني ما زلت انتظر ان لا يذهب دمي هدرا اقتله يا اخي .. اقتله .. اقتله ..

و .. قررت ان اقتله ، اجل يا اخي .. سأقتله

اذ ذاك ، بدت صورة اخي تبتسم برضى واطمئنان ، وها انا اليوم قد حصلت على مسدس فيه تسع رصاصات لا ثلاث .. اجل .. سأثقب جسده تسعة ثقوب يا اخي .

انتظرت الليل ليرخي بساطه ، فقد استدللت على بيت الرجل الذي عاد الى اهله ، الى زوجته وابنه الذي لم يحرم منه .

خالد ، ابن اخي اصبح يتيما ، كم كان الحقد يقتات اعصابي عندما كنت المح في عينيه ذل اليتيم لما كانت امه ترسله ليزورنا بعد ان تزوجت رجلا آخر .

كان يسألني بسذاجة :لم لا تزورنا يا عم ؟ لماذا انت عمي .. واصدقائي لهم آباء ، احمد ، يأتي ابوه كل يوم ويأخذه من المدرسة .. لماذا ليس لي اب يا عمي لماذا .. ؟

وكنت اقول له : سيأتي يوم وتعرف طفلا آخر .. لن يجد له ابا ، سيمزقون صدره بالرصاص .. كما مزقوا صدر ابيك يا ابن اخي .

كانت كلمات خالد تجرح كبريائي ، فقد كانت عيناه تبدوان لي وكأنهما عينا أخي اللتان تشيران لي . غدا أو بعد غد سألمح في عينيه الرضى والاطمئنان : ان طفلا آخر قد اصبح بلا أب .

واخيرا خرجت من المنزل قاصدا بيت الرجل ، بعد ان اطمأنت الى المسدس بطلقاته التسع ، وكنت كلما اقتربت خطوة يزداد وجيب قلبي .. والريح ما زالت تعصف . ما تزال منذ عشرة أعوام .

ولما امتدت يدي اليسرى الى الباب لتدقه ، كانت يدي اليمنى قابضة على المسدس باصرار وعنف واصبعي على الزناد .

وفتح الباب ، وبدا لي طفل اشقر على ضوء مصباح الزقاق باهت

النظرات يقارب الثانية عشرة من عمره وهو يتثاءب ببراءة وقال : نعم ٠٠ قلت له بصوت غليظ النبرة : اين ابوك ؟ قال وقد تبدلت ملامح وجهه : ابي ٠٠ انه ٠٠ نائم ٠٠ لقد جاء تعبا جدا هذا اليوم ٠٠ فنام باكرا ٠٠ وقلت له : ايقظه ٠٠ وقل له انني اريده لامر ضروري ٠

فهرول الطفل يقرع البلاط بحذائه الخشبي ٠٠ كنت ما ازال مضطربا ٠٠ عندما عاد الطفل بعد لحظات يتقدم اباه ٠

وقال لي الرجل بصوت واهن وهو يفرك عينيه : ٠٠ ماذا تريد ؟ قلت له : لا شيء ٠٠ سوى انني احب ان اذكرك من انا ٠٠ فقال بنفس الصوت الضعيف : من تكون ؟ قلت له بصوت قاس وشرس : انني شقيق من ثقبت صدره منذ عشر سنوات ٠

وهنا اضطرب الرجل ، وبدأ الرعب على وجهه مخيفا عندما لمح يدي ترتفع الى صدره وفيها مسدس ضخم ٠ وصرخ : لا ٠٠ لاتقتلني أرجوك ٠٠ دعني لطفلي ٠٠

وكان الطفل قد لمح خوف ابيه ، فالتصق به وعانق ساقيه وراح يصرخ : بابا ٠٠ بابا ٠٠ وكان الرجل يهتف في نفس الوقت : لا تفعل لا تفعل ٠٠ ارجوك يا سيدي ٠٠ لا تفعل ٠٠ لم يبق لي سوى خطوات لقد كبرت يا سيدي ٠٠ لقد كبرت ٠٠ دعني اعيش لطفلي ، لاجله دعني ٠٠ انظر ٠٠ انظر ٠٠ اليه انه بريء ، انظر يا سيدي ٠٠ انظر ارجوك ٠٠ انظر ٠٠ الا ترى شعره الاشقر الناعم ٠

وهبطت عيناي دون ارادتي الى الطفل الصغير ، وهو متمسك بقدمي ابيه يصرخ : بابا ٠٠ بابا ٠٠ بابا كانت عيناه ممتلئتين بالدموع وكان خائفا ، خائفا ٠٠ وفجأة تخيلته « خالد » ، كان يهتف بي لاجلي لا تفعل يا عمي ٠٠ لا تحرمه اباه ٠ دعه له هل تريد ان يتألم كما اتألم انا ٠٠ وما ذنبه هو ، دعه ياعمي ٠٠ دعه ٠

وفجأة ، هبطت يدي الى جانبي كأنها شلت ، كان الرجل قد انحدرت دموعه أيضا ، بينما التفت الطفل نحوي ورمقني بحنان آسر ، وسرعان ما حملته ومسحت دموعه ، ثم تركته وهرولت خارج الزقاق ٠

ولما ضمني زقاق آخر لوحدي ، لمحت صورة أخي ترافق ظلي ، كانت تربت على ظهري وهي تقول لقد كنت عادلا ٠٠ لقد كنت عادلا ٠٠

وغابت عني صورة أخي لتبرز صورة سلمى سمرائي الدافئة فهتفت لها وعيناي دامعتان : كم احببتك يا سلمى ٠٠ ؟ كم احببتك ؟ ٠٠

❀ ❀

المولوي أكبر صوفية الاسلام

الدكتور حسين علي محفوظ

هو جلال الدين محمد ، بن محمد (المعروف ببهاء الدين ولد) ، بن حسين ؛ [الملقب « سلطان العلماء »] ؛ الخطيبي ، البلخي ؛ المشهور ب (المولوي) ؛ الرومي .

ينتهي نسبه الى الخليفة أبى بكر الصديق ـ رض ـ وانما نسب الى الروم لطول مقامه في مدينة قونيه بأرض الروم ؛ أي تركية ـ اليوم ـ ومن أجل ذلك لقبوه « مولانا الرومي » .

ولد المولوي في بلدة بلخ ، ٦ ربيع الاول سنة ٦٠٤هـ . ولأمر ما هجر والده بلخ ؛ والمولوي ـ حينئذ ـ في غضاضة الصبا . وعزم على الحج فمر بنيسابور ، وعرج على بغداد ، ومكث في مدينة السلام ثلاثة أيام حسوما ، وقصد مكة في اليوم الرابع .

ولما أتم الحج توجه نحو بلاد الروم ، واقام بقونيه ، وتوفى بها ، والمولوي ؛ ابنه ـ في الرابعة والعشرين من العمر ـ فأسندت اليه الفتوى ، ونيط به التذكير ، وولي الوعظ وهو يافع . وظل على هذه الحال سنة واحدة .

ثم زاره السيد برهان الدين الحسيني ؛ المحقق الترمذي ، الذي تناهى اليه خبر هجرة شيخه « بهاء الدين ولد » والد المولوي ؛ فوجه وجهه الى قونيه ، ولكن وصل اليها بعد وفاته بسنة . وقد امتحن السيد المولوي فوجده حافلا بالعلوم والمعارف يشابه أباه ، فأراد أن يزوده العرفان ؛ فلاحظته عنايته تسع سنين ، وقذف في قلبه نور المعرفة .

ولقد سافر المولوي الى سورية ، وتفقه في حلب ثلاث سنين ، وتلبث في الشام أربعاً ، ثم عاد الى مستقره بقونيه .

وتوفى السيد المحقق الترمذي المذكور آنفاً في سنة ٦٣٨هـ ؛ فلبث المولوي نحواً من خمس سنين يدرس الفقه وعلوم الدين . وقد بلغ تلاميذه عشرة آلاف مريد . وقد كان يمضي وقته بالارشاد والتوجيه والرياضة . وكان الناس معجبين به ؛ يتيمنون بدعائه ، ويتبركون بخدمته ، ويتسارعون الى تقبيل راحته .

ولكن هذا الزاهد الواعظ ، كشف الغطاء ، وراح رائحة التصوف ،

فاذا هو رند لا ابالي ، وسكران لا يفارق الخمر ، وعاشق شيمته الرقص ؛ فقد خلع منطقة الزهاد ، ونزع جبة العلماء ؛ وهذا تاريخ يعود سر بدئه الى شمس‌الدين التبريزي ؛ وهو رجل عالم كامل ، رحالة جوالة ، سفار ؛ جوب في الأقاليم ، ومشى في مناكب الأرض ، وسار في البلاد ، ولاقى الأبدال • وكان عالي القدر في السلوك الظاهري ، والسير الباطني ، عارفاً بفنون القال ، ورموز الحال • وقد بلغ رتبة الكمال في المعرفة ، والتصوف ، والفقر ، وطرحته النوى مطارحها ؛ وألقى عصاه ، واستقرت به النوى في قونيه سنة ٦٤٢ فنزل في خان بياعي السكر ، ولم يكن عنده الا حصير خلق عتيق ، وكوز مكسور ، ومخدة من اللبن • ولكنه كان يغلق الباب ، ويضع على باب الحجرة دينارين أو ثلاثة ؛ ليحسبه الناس تاجراً غنياً موفور المال •

ولقد كان المولوي — على جلالة مرتبته في التصوف — يتطلب الى الكمال فأتيح له ملاقاة شمس‌الدين هذا ، وأحبه ، وعشق معرفته ، ودعاه الى بيته ؛ فترك التدريس والوعظ ، وخلا به أربعين يوما ، أو ثلاثة أشهر ؛ فانصب — من بعد — الى السماع ، وهجر صبغة الظاهريين • وكان — قبل ذلك — صواماً ؛ يفطر كل يومين ، ويوصل النهار بالليل في الصلوات • فلامه الناس ، وعذلوه ، وسخروا منه •

وعجب عجيب ؛ كيف يستمسك — وهو العلامة النحرير ، الفيلسوف الحكيم ، المدرس الفقيه — بدرويش ؛ خلق الثياب ؟!

وحركتهم العصبية ، وقالوا : ساحر ، أو مجنون • واجتمعوا على ايذائه • ففارق شمس‌الدين قونيه ، وسافر الى دمشق ٢١ شوال سنة ٦٤٣هـ • وقد كانت ملازمة المولوي له ستة عشر شهراً تقريبا •

وحاول المولوي أن يظفر بشمس‌الدين ، فلم يرزق العثور عليه ، وعلم أخيراً انه في الشام ؛ فبعث اليه بأربع رسائل ، وأرسل ابنه « سلطان ولد » الى دمشق يطلبه ، ورجاه العفو عن اولئك الناقصين • فرجع شمس‌الدين الى قونيه ، وشغل الجلال الرومي بالسماع والرقص ، وخلع ملبس الفقهاء ، ولبس قميصا ذا تفرجة قد قد من قبل ، وقلنسوة عسلية من الصوف • وترك الوعظ ، ونبذ التدريس •

وهذا هو سبب سخط العامة ، والخاصة من الفقهاء عليه ، وهم الذين حسدوه من قبل ؛ فانتقدوا عليه حبه شمساً ، وتسميته « لب‌الدين » و « سرالله » ؛ اذ كان يدعوه « ربي » و « شمسي » •

ولعل شمس‌الدين حلف — بعدها — يمينا غير ذي مثنوية أن لا يرى قونيه ؛ ففر ، وقد تعب المولوي ، فلم يتح له لقاؤه • وسافر ثانية الى الشام ، ولبث فيها سنين ؛ يفتش عنه ، وطوف في المدن ، وجال في المحلات •

وقد غاب « شمس » — على كل حال — وغم خبره ، واستعجم سنة ٦٤٥هـ وذاع مقتله في قونيه • ولعل اعداء المولوي هم الذين أشاعوا ذلك ؛

ليؤذوه • ومضت برهة طويلة ؛ لم يأته فيها خبر ، ولم يبلغه نبأ ، فغم ، ولم يرح نائحته •

وغم مرة ، وكاد يفقد قلبه ولبه ، وطفق يرقص ، وينشد ليلا ونهارا • ثم لبس ــ بعد الأربعين ــ عمامة دخانية اللون ، ووضع العمامة البيضاء ، وصنع فرجياً من كساء هنـدي ، وبرد يماني ، وظل لباسه هذا ، حتى مـات •

ولقد أراد أن يسافر الى دمشق ــ وهي المرة الرابعة ــ ركضـاً الى الشمس ، ولـكن ؛ جمع الناس عليه ؛ فآمنوا به ، ونثروا قدامه المال والأنفس ، فاضطر على الرجوع الى قونيه • وانما حداه الى الرحلة ضيق صدره بفراق المحبوب •

ولقد عني المولوي منذ سنة ٦٤٧هـ الى ٦٧٢ ــ وهو عهـد انقلابه المعنوي ، وسفره العقلاني ، واستضاءته بوجود الشمس ــ بنشر المعارف الالهية • وكان غارقاً في الـكمال المطلق ، وصلوات الجمال السبوحي ؛ فكان يوصي أصحابه بالأخذ بيد الطالبين ، ويحضهم على الارشاد •

ومن أصحابه الخاصة : الشيخ صلاح الدين زركوب القونوي ؛ المتوفى سنة ٦٥٧هـ • وفي ديوانه ٧١ غزلا باسمه •

ثم حسام الدين چلبي الأرموي الاصل • وكان المولوي يسميه « مفتاح خزائن العرش ، وأمين كنوز الفرش ، وبايزيد الوقت ، وجنيد الزمان » • وكان معروفاً بابن أخي ترك •

ويعد عهد صداقة حسام الدين ــ الذي دام ١٥ سنة ــ أفضل عهود حياة المولوي ــ فقد نبغ في تلك الفترة ، وقرض الشعر فجاءة ــ فقد ترك نتاجاً مهماً هو (المثنوي) الذي يعد من أهم آثار ايران الأدبية ، وهو أكبر آثار متصوفة الاسلام ، وأعلاها •

وقد نظم القسم الأول سنة ٦٥٧هـ ــ ٦٦٠ ، وبدأ بالثاني سـنة ٦٦٢هـ •

وتوفي المولوي ــ بالحمى المحرقة ــ يوم الأحد ٥ جمادى الآخرة سنة ٦٧٢هـ • وكان آخر كلامه : « أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية ، وبقلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الـكلام ، وهجران المعاصي والآثام ، ومواظبة الصيام ، ودوام القيام ، وترك الشهوات على الدوام ، واحتمال الجفاء من جميـع الأنام ، وترك مجالسة السفهاء والعـوام ، ومصاحبة الصالحين والـكرام ؛ فان خير الناس من ينفع الناس ، وخير الـكلام ما قل ودل ؛ والحمد لله » •

ويروى ان زوجته قالت له : ليت مولانا يعيش أربعمائة سنة ؛ لـكي يملأ العالم بالحقائق والمعارف • فقال : أأنا فرعون ؟ أأنا نمرود ؟ ••• لم نأت الى الدنيا للاقامة ، نحن محبوسون في محبس الدنيا ، والأمل أن

تصل الى مجلس الحبيب قريبا · ولولا الاصلاح والارشاد ، لم اختر الاقامة في التراب نفساً ·

وقد حضر جنازته اهل قونيه جميعا ؛ صغارا وكبارا · وبكى عليه النصارى ، واليهود · وصلى عليه الشيخ صدرالدين أبو المعالي محمد بن اسحق القونوي المتوفى سنة ٦٧٣هـ ·

وأنفق علمالدين قيصر ـ من أكابر قونيه ـ ٣٠٫٠٠٠ درهم ، وبنى قبر المولوي · وقد ساعده معينالدين سليمان يروانه ؛ فأتمها ب ٨٠٫٠٠٠ · واهدى اليه ـ أيضا ـ ٥٠٫٠٠٠ وبني مشهده المبارك · ويسمى « القبة الخضراء » ·

ورث المولوي آثاراً قيمة معروفة ؛ منها :

(١) كليات شمس ـ وهو الديوان الكبير الذي يشمل القصائد ، والغزل ، والمقطوعات ، والترجيعات ، والملمعات ، والرباعيات · وفيه نحو من ٤٣ ألف بيت · وقد حققه ونشره استاذنا العلامة المؤرخ الأديب الكبير بديع الزمان فروزانفر ·

(٢) المثنوي ـ في ستة أجزاء ، قوامها ٢٥٦٣٢ بيتاً · وقيل نيف و ٢٦٦٢٠ ·

نظمه لحسامالدين چلبي بين سنة ٦٥٩ ـ ٦٦٦ وهو من أكبر الكتب الأدبية ، وأعلى أنواع النظم العرفاني ، وخلاصة السير الفكري ، وآخر نتائج السلوك العقلي للامم الاسلامية · وهو كتاب حكمة ، وفلسفة ، وأخلاق ، وتربية ، وعلوم ، واجتماع · وفيه كثير من اشارات الفقه ، والاصول ، والعقائد ، والكلام ، والادب ، وعلم النفس ·

(٣) الرباعيات ـ وهي ١٩٣٧ في الديوان · وقد طبعت في استانبول ١٦٥٩ رباعية · وجدد طبعها في ايران صديقنا الشيخ العلامة العارف الصوفي الكبير المرحوم محمد باقر الفت ·

(٤) فيه وما فيه ـ وهي ٦٩ فصلا في الاخلاق ، والطريقة ، والتصوف ، والعرفان ، وتبيان الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية ، وفسر كلمات المشايخ ·

(٥) المكتوبات ـ وهي مراسلاته بالفارسية [ما عدا ثلاثة] الى معاصريه ، فيها ١٤٥ رسالة الى ٣٨ رجلا ؛ منها ٣٠ الى الوزير معينالدين يروانه ، المتوفى سنة ٦٧٥هـ · وقد طبعت في اسلامبول بتركية سنة ١٣٥٦هـ في مجلد كبير ، قوامه نحو من ٢٢٠ صفحة ·

(٦) المجالس السبعة ـ مجموعة المواعظ ، والمجالس ، والتذكير ، والتفسير ، والقصص ، والمناجاة · وقد طبعت في اسلامبول سنة ١٣٥٥هـ في ١٢٢ صفحة ·

المراجـــع :

رباعيات مولانا جلال‌الدين « خاموش » ـ محمد باقر الفت (اصفهان ١٣٢٠ش) ·

رسالة در تحقيق احوال وزندگاني مولانا جلال‌الدين محمد مشهور بمولوي ـ بديع الزمان فروزانفر طهران (١٣٣٣ش) ·

فيه ما فيه/جلال‌الدين محمد مشهور بمولوي ـ بديع الزمان فروزانفر (طهران ١٣٣٠ش) ·

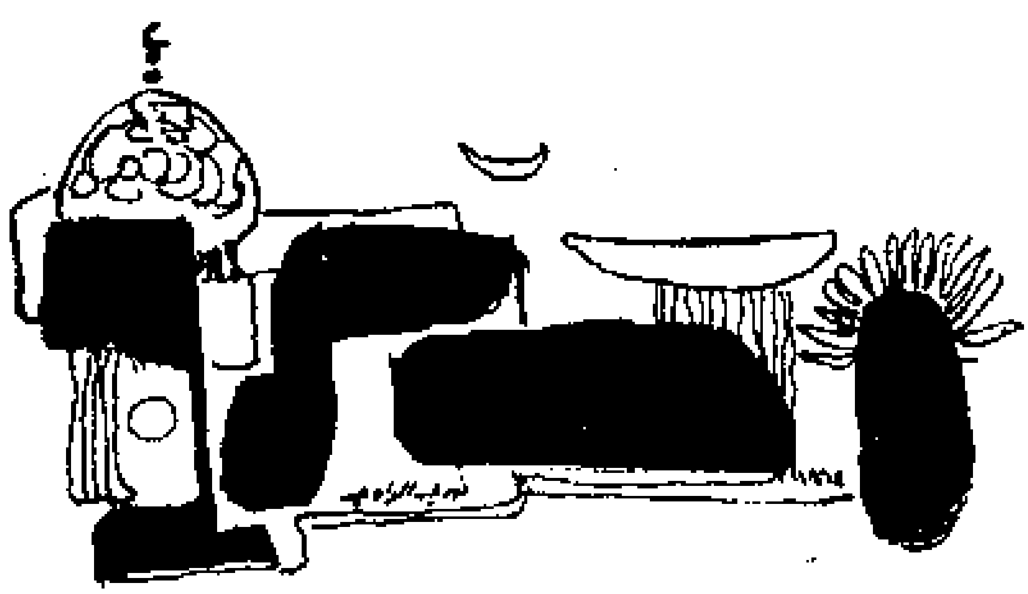
كليات شمس يا ديوان كبير / مولوي ـ بديع الزمـان فروزانفر (دانشگاه تهران) ·

مثنوى معنوي / جلال‌الدين الرومي ـ رينولد ألين نيكلسون (ليدن ١٩٢٥ ـ ١٩٣٣) ·

مجالس سبعه مولانا (اسلامبول ١٣٥٥هـ) ·

مكتوبات مولانا جلال‌الدين (اسلامبول ١٣٥٦هـ) ·

ألحوظة ـ كتبت هذه المقالة بلسان الصوفية واصطلاحاتهم ·



عودة الى حياة الكهوف

ترجمة

احمد مصطفى الخطيب

يعتبر البرت سز نيت جيورجي حامل جائزة نوبل في الطب من اشهر علماء الكيمياء الامريكيين .. وهو يشغل اليوم منصب مدير معامل الابحاث الاحيائية في « وودز هول » في ولاية ماساشوستس .. وقد نشر مقالا في مجلة ساتردي ريفيو حلل فيه مشاكل الانسان المعاصر في عصر الذرة .. رأينا ان ننقله الى العربية فيما يلي نظرا لاهميته ولطرافة موضوعه ..

أ . م .

حين يريد الانسان ان يقوم بعمل ما ، فهو يقوم به أولا في ذهنه ... وآلة الذهن لانجاز ذلك هي : الدماغ ..

ولما كانت الآلة ــ أي آلة ــ لا تصنع الا ما يراد لها ان تصنعه فحسب ، فانه يترتب علينا ــ تبعا لذلك ــ ان نعرف قبل كل شيء أي نوع من أنواع الآلة هو هذا الدماغ ؟ . حتى يتسنى لنا بعد ان نفهم انفسنا فهما كاملا يستوعب حقيقتها ، ويميط اللثام عما تنطوي عليه .

آلة للبقاء :

الدماغ آلة للبقاء .. وقد صنعته الطبيعة للبحث عن الطعام والمأوى وما اليهما ، ولضمان النفع والفائدة .. وذلك قبل ان تجعل منه اداة للتحري عن : الحقيقة .

ومن هنا كانت الادمغة البشرية من حيث العموم غير قادرة على التمييز بين الحقيقة والفائدة ، وعلى الفصل بينهما بحدود واضحة ، ثابتة .

ولهذا فهي تتقبل الحقيقة أحيانا كما لو كانت هي الفائدة بذاتها .

واذ كنا جميعا نستعمل ادمغتنا لايجاد السبل لبلوغ ما نريده ، فنحن ننتج تزامنياً (Simultaneously) الافكار والبراهين والتعليلات التي تبرر لنا أحاسيسنا وتسوغ تصرفاتنا أيضا .

واني ليخامرني الشك في انني لو كنت من العاملين في تجارة بيع الملاجىء من الغارات الجوية مثلا ، لانصرف تفكيري بشكل أقوى نحو قبول فكرة احتمال نشوب الحرب الذرية ‥ كما لو كنت منغمرا في تيارات السياسة ، لربما وجدت دماغي ، وقد كرس من طاقته قدرا أقل بكثير للأجيال القادمة مما يكرسه منها للانتخابات التالية ‥

فالقاعدة الاساسية واحدة لا تتغير ، وهي ان الانسان ملزم بالتكيف مع ظروف البيئة التي تحيط به مهما كانت الظروف والاحوال ·

وحيث ان « نوعنا » (Species) لم يبن بالامس القريب ، وانما بني قبل مئات الالوف من السنين ، لذا فجلي أن يكون تكيفنا الحالي انما قد تم وفق شروط للحياة كانت سائدة موجودة قبل الوف من الاعوام ·

ولـكي نتعرف الى تلك الشروط بسبيل ان نفهم عن طريق الاطلاع عليها ، انفسنا على وجه أفضل ، دعنا نقم بزيارة قصيرة خيالية لجدنا ـ الـكبير ـ الـكبير ـ الـكبير جدا في مأواه البدائي السحيق ، المستقر في أغوار التاريخ ···

مع الجد الـكبير جدا :

ربما وجدناه في الليل في أحـــد الـكهوف ، وقد اجتمع هو وأفراد عشيرته (Clan) الصغيرة حول نار متأججة متواضـــعة ، هي ولا شك ، أعظم قوة عرفها في حياته ، ولمسها بيده ، واستعملها في مآربه ·

ولـكن علينا ان نكون على شيء من الحذر واليقظة ، ونحن نحاول الاقتراب منه ، وذلك ان القوة المسيطرة عليه هي غريزة الخوف ‥ فهو قد يطرحنا أرضا أو يلحق بنا أذى على غير انتظار ·

اما اذا اتيناه نهارا فمن المحتمل اننا نجده يصطاد في أماكن قريبة من الـكهف الذي يعيش فيه ‥ اذ حتى ان عشرة أميال تبدو في نظره وكانها مسافة لا نهاية لها ‥ لان اعظم سرعة عرفها لا تعدو ما شاهده من سرعة بعض الحيوانات ، أو سرعة انطلاق حجر رماه بنفسه بعيدا ‥ واذا استطعنا أن نتحدث اليه فمن الجائز اننا سنجده مقتنعا تمام الاقتناع بان ما يراه أو يفكر فيه هو أقصى درجات الحقيقة ·

عالم بدائي وقوى هائلة :

فهـــذا العالم ، عالم أسلافنا البدائي قـــد غيره العلم بضربة واحـــدة تقريبا ولذا فلم يتح لنا وقت كاف لنعيد تكيفنا مع الحالة الجديدة التي نشأت لنا على حين فجأة ··· اذ ان مجمل ما صنعه العلم هو انه اختلس النظر من مؤخرة مســـرح الخليقة لحظة ثم دس قوى السوبرمان الطبيعية الهائلة الخارقة بكاملها في يد الانسان الاعتيادي دفعة واحدة ·

فها هو الانسان قد استبدل سرعة الحيوانات بسرعة النفاثات والصواريخ وأمواج الراديو ، فالغيت بذلك المسافات البعيدة الغاء تاما ..
واستعاض عن النار بالقوة الذرية ، وهي احدى القوى الكونية المخيفة التي تتحكم في صوغ أشكال العوالم بأسرها ، وفرض الرقابة على الموت دون ان يفرضها على النسل الامر الذي ادى بالكتل البشرية الى ان تنتفخ وتتعاظم الى حد الافراط ..

واذ صارت المسافات ولا وجود لها ، فقد أخذت هذه الكتل البشرية الضخمة تحتك ببعضها بصورة مباشرة في عداء سافر وبايديها أسلحة تستطيع كل كتلة منها ان تقضى بها على الكتلة المناوئة لها حتى من غير ان تفارق الارض التي تقيم عليها .

وهكذا قدر لنا ان نقف اليوم في وسط هذا العالم الجديد ، بادمغتنا البدائية ، وقد صنعت لتنسجم مع حياة الكهوف الساذجة فحسب ، وتحت امرتنا قوات مريعة ، لدينا من الذكاء ما يمكننا من فك عقالها ولكن ليس لدينا من الفهم ما يجعلنا ندرك العواقب التي تتولد منها .. ولانها أيضا من الجسامة والاتساع بحيث لا تستطيع الاحاطة بها ابعادنا البشرية المألوفة (Dimensions) .

فأنا مثلا عندما تنبهني زوجتي وتقول : حذار ! فالماء حار جدا » سالتزم جانب الحيطة بلا مراء .. غير انني حين اسمع ان انفجار قنبلة ذرية تحدث حرارة تبلغ خمسين مليون درجة ، فالامر يعتبر في نظري وكأنه لا يعنيني في شيء .

وهكذا الحال حين أرى رجلا يعاني من محنة ألمت به ، فتثور في نفسي عاطفة الشفقة عليه حتى لقد اخاطر بحياتي في سبيل انقاذه ، ولكنني في الوقت نفسه أتحدث بغير مبالاة عن احتمال طحن مدننا الكبرى وعن فناء مائة مليون نسمة فيها في مثل لمح البصر .

في الواقع انني عاجز عن مضاعفة آلام رجل واحد بمائة مليون مرة .

مجرد أرقام :

كان العالم بالقياس الى جدنا الكبير يعني اناسا يعرفهم هو بالذات ، ويخالطهم عن كثب .. ولكن الامم التي يبلغ تعداد نفوسها مئات الملايين لم تعد تمثل اليوم « اناسا » في اذهاننا نحن ، بل انها أصبحت مجرد أرقام ، ومحض كميات فقط ... وهذا هو السبب في ان زعماء الشعوب شرعوا يتحدثون بلغة الارقام والكميات فقط ، وأصبحوا يجهرون بغير حرج باستعدادهم لقتل مئات الملايين من بني البشر من أجل ما يسمونه بالامجاد الوطنية أو بقاء الكيان الوطني .

وفي الحق اننا لسنا رديئين على طول الخط .. اننا بشر وكفى ..

دفعنا الى ميادين لسنا من فرسانها بادمغة بدائية تعجز عن ان تفهم أي جحيم قد فتحت أبوابها لنا على اديم الارض ٠

غير انه يتحتم علينا في الوقت ذاته ان نعلم علم اليقين انه لا مناص لنا من ان نخلق عالما جديدا بكامله ، تقوم دعائمه على صلات بشرية من نوع جديد لم يسبق أن وجد مثله حتى الآن ان أردنا أن نضمن لأنفسنا البقـــاء على قيد الحياة ٠

ســــؤال :

والسؤال الآن هو : من الذي سيساعدنا على تحقيق ذلك ؟ ٠٠

ـ العلم ؟ ٠٠

انه ليبدو من المنطق ان تكون القوى التي خلقها العلم يمكن ان يهيمن عليها فقط اولئك الذين اوجدوها وشادوا بنيانها دون ان تتولد من ذلك أية أخطار ماحقة ٠٠٠ وفي مثل هذه الحالة ترى هل يستطيع العالم نفسه أن يساعدنا في هذا المضمار ؟ ٠٠

في الواقع ليس هناك شيء اسمه « العالم » وانما هنالك الوف والوف يعملون في ميادين العلم وحقوله فقط ٠٠ وكما هو الحال في أي مكان آخر فان ثمة قلة خطرة شديدة التعصب بين هؤلاء قد نوموا تنويما مغناطيسيا بتأثير اختراعاتهم النووية ٠٠

ولـكن الشيء الذي يؤسف له هو ان نصائح هؤلاء القلة وتوجيهاتهم هي التي يؤخذ بها ويكترث لها في غالب الاحيان ٠٠ ولـكن لحسن الحظ أيضا ان هناك عظماء حقيقيين آخرين أيضا يمكنهم ان يروا كلا الجانبين ، الجانب الفني والجانب الاخلاقي للمسألة في الوقت نفسه ٠٠ واني ليسرني أن أقول بأن الاكثرية الساحقة من العلماء الطبيين قد أخذوا ينحازون الآن الى جهة هؤلاء الخيرين ويؤيدونهم في آرائهم ٠٠٠

واما الحكومة فهي تحســن وتسيء الى العلمـــاء من جانبها في وقت واحد ٠٠٠ فهي تسألنا أسئلة بصدد تفاصيل فنية صغيرة ، ولا تسألنا عن المسائل الـكبيرة ٠٠ لقد بلغ الانسان مفترق الطرق ٠٠ واللافتة الموضوعة أمامـه تشير من جهة الى الـكراهة وعدم الثقة والبؤس والحرمان والسكارثة وابادة الذات ، ومن جهة ثانية الى التفاهم والتعاون الاجتماعي ، والمساعدة المادية ، والوجود الانساني ذي المستوى الاعلى ٠٠٠ والمسألة ذات الاهمية العظمى الآن هي :

ـ ترى أي الطريقين سيتم اختياره ؟ ٠

ان السؤال الذي يجب أن يوجه الينا هو هذا :ـ

ـ اين سيؤدي بنا الطريق اذا كنا سنضاعف احجام قنابلنا النووية كل عام وكمياتها في كل ثلاث او أربع سنوات ؟ بل ماذا سيحدث اذا نشرنا تلك القنابل بين الامم جمعاء حتى تصل الى مستوى جماعات صغيرة منها ،

تاركين بذلك مصير البشرية برمتها بين أيدي اناس من رتبة عريف في الجيش ليتفاقم بذلك خطر وقوع حادث طارىء الى حد ١٠٠٪ ؟ ..

وفي الحق ليس العلماء هم الذين يحتاج اليهم في هذا المجال ، وانما نحن نفتقر الى المبادىء ذاتها التي اقامت كيان العلم وقعدت قواعده ..

كيف تعالج المشكلة ؟

فالعلم يقول لنا ان نقترب من مشاكلنا باعتبار انها مشاكل فقط ... فنجمع الاحصاءات والحقائق ، ثم نجلس الى خصومنا لنجد معه أحسن الحلول للامور المختلف عليها فيما بيننا ، .. وان نفعل ذلك بأعصاب هادئة وبغير ان تخرجنا من حيادنا فورة العواطف وجيشان الانفعالات النفسية كالخوف أو الكراهية أو الانوية أو الغرور .. متمسكين بارائنا بصلابة الثقافة الامينة أو النية الحسنة ، والاحترام المتبادل .

ولئن استطاع ساستنا ان يقتربوا من مشاكلنا بروح كهذه بدلا من ان يجادلوا خصومهم ، وعيونهم شاخصة الى الاجهزة الدعائية مطالبين ب « تيت » مقابل « تات » أو بالاحرى مطالبين ب « تات » مقابل لا شيء .. أجل اذا حدث ذلك .. اذن فسنكون سائرين نحو مستقبل أفضل دون ريب ...

ولكن اين يمكن غرس مثل هذه الروح .. روح الفضيلة والشهامة والنبل ؟ أفي الكونجرس ؟ ان الدستور الامريكي قد تم وضعه في عهد كانت البلاد تجتاز فيه مرحلة تأسيس وبناء ، حيث كان واجب المواطن آنذاك ان يتولى هو بنفسه بناء ركنه الصغير ، كما كان واجب ممثلي الشعب ان يمثلوا باسمه مصالح ذلك الركن الصغير ... غير ان ممثلينا اليوم ما زالوا يمثلون أركانا صغيرة مثلما كانوا يفعلون ذلك من قبل دون ان يلاحظوا ان العالم باكمله قد انكمش بشكل مزعج ، وتقلص الى أبعد حد ، وان الكرة الارضية باسرها قد أصبحت ، هي بذاتها ركننا الصغير الآن .

ولكن لماذا ؟ وكيف يحدث هذا ؟ ذلك ان أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الكونجرس ليسوا هم الذين يقودون الشعب بل ان الشعب هو الذي يقود هؤلاء الى حيث يريد ويهوى .. ثم ان معالجة الامر عن طريق تثقيف الشعب وتعليمه تعتبر هدفا بعيد المنال جدا .. لان التعليم في حد ذاته عملية بطيئة ، ناهيك عن ان الكبار هم الذين يتولون تعليم الاطفال بانفسهم ..

وهكذا نجد انفسنا ندور في دائرة لا اول لها ولا آخر ...

والظاهر ان السياسة سوف تظل امدا طويلا تسيطر عليها ادمغة بدائية لا تختلف في شيء عن أدمغة أسلافنا سكان الكهوف القدامى .. تحركها عوامل الخوف وتغذيها الثقة العمياء في اعتبار ما تراه هي الحقيقة الاخيرة

بعينها .. فهي اذا رأت شيئا ما اسود فهو اسود ، وان رأته أبيض فهو أبيض .

خيط من أمل :

ومع ذلك فانا لا أريد ان انتهي الى تفسير سلبي كهذا .. اذ لعل هناك طريقا آخر أقصر أستطيع الدفاع عنه .

لما كنا ما نزال ، نعيش بعقلية انسان الكهوف ، وما دمنا لا نستطيع ان نغير ما بنا ما لم يتغير ما بانفسنا ، فهناك شيء واحد ربما يمكننا من تجنب مجابهة الكارثة ان نحن حاولنا فهمه جيدا . وهو :

ان العلم قد محى الابعاد وقضى على المسافات .. فأصبحنا نحن بني البشر نعيش جميعا الآن في داخل كهف واحد ، بعد ان غدت رقعة كرتنا الارضية المنكمشة المتقلصة لا تتسع لسوى اقامة اسرة واحدة فقط عليها ، وهي اسرة الانسان ذاتها ..

ففي الاقل علينا ان نحاول كسب الوقت .. وذلك بتعليقنا هذه اللافتة :

« .. اللعب بالقنابل النووية ممنوع منعا باتا في داخل هذا الكهف .. »



السمراء المجهولة

الموشحة ١٣٢

ترجمة

الدكتور صفاء خلوصي

هذه من أهم الموشحات الـ ١٥٤ التي نظمها شكسبير والتي عزمنا على ترجمتها الى العربية شعرا مع تقديم الاهم على المهم – كما يقولون – وأهمية الموشحة التي بين يديك ايها القارىء هي انها تعبر عن ذوق شكسبير الشرقي في تقديره للعينين السوداوين والبشرة السمراء بحيث انه يحلف بان الحسن أسمر كله وما عداه مزيف وعدم وهي من جملة الموشحات التي نظمها متغزلا بفتاة مجهولة في نظر المؤرخين والباحثين وقد تكون فتاة من المغرب أيام كان شكسبير يعمل مع بعض القراصنة في حوض البحر الابيض المتوسط أثناء فترة الثماني سنوات المجهولة التي تخللت تركه لمسقط رأسه في ستراتفورد ابون ايفون وظهوره فجأة على مسارح لندن .

ص . خ .

ليست على سوادها عيناك ... فأثارتا حبا تسامى عن كلم
وتراءتا بضراعة النساك ... لتراقبا قلبا يمزقه الألم

* * *

ما شمس ارض الشرق في عليائها ... كلا ولا ڤينوس في كبد السما
بين الكواكب في هدوء مسائها ... تحكي الدراري بهجة وتبسما
في مثل عينك او بديع سنائها ... وسط المحيا فوق معسول اللمى

* * *

ليت الجوارح شاركت نجواك ... في الحزن كالطرف المجلل بالندم
لحلفت كل الحسن اسمر باكي ... اما سوى هذا فزيف او عدم !

الغزالي والتربية والتعليم

علية الكبارة

كلنا نعلم أن التربية تقوم على أسس نفسية واجتماعية وأن من أهم الحاجات الاجتماعية هي التربية الخلقية ولا سيما في هذه الأيام التي يلمس فيها الكثير من المربين الحاجة الملحة الى التربية الخلقية الروحية خاصة في هذا الدور الحاسم من تاريخ العالم العربي ، ولقد رأينا ان نعالج التربية الخلقية من جهة التاريخ القومي ، لاعتقادنا ان في تراثنا الثقافي كنوزاً دفينة يجدر بنا أن ننقب فيها عما يساعد على الاحتفاظ بتقاليدنا العربية الصالحة ، واحلالها المنزلة اللائقة بها في مخطط بنائنا القومي وأن الرسالة التي أداها العرب الى الحضارة في العصور الماضية حوت الكثير من بذور التربيـــة والتعليم وخصوصا من الناحية الخلقية والروحية ٠

ورائدنا في هذا البحث ان نطلع القارىء على رأي الامام الغزالي لهذا الاتجاه التربوي وله باب في فضل العلم والتعليم والتعلـم ، يقـول فيـه « فضيلة العلم شواهدها من القرآن ، قوله عز وجل « شهد الله انه لا اله الا هو والملائـكة وأولو العلم قائما بالقسط » فانظر كيف بـدأ سـبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العـلم ٠ وقال تعـالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ٠

وقال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » وقال تعالى « خلق الانسان علمــه البيان » وقال صلعم « أفضل الناس المؤمن العالم الذى أن أحتيج اليه نفع وأن استغني عنه أغنى نفسه وقال صلعم « الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم » ومن قوله (صلعم) أوصى الله عزوجــل الى ابراهيم عليه السلام :

« يا ابراهيم أني عليم أحب كـل عليم » وقـال الرسـول « صلعم » « صنفان من أمتي اذا أصلحوا أصلح الناس واذا فسدوا أفسد الناس، الامراء والفقهاء » وان أحدا لم يولد عالما وانما العلم بالتعلم ٠ وكتب الغزالي في فضيلة التعلم مستشهدا بقوله «صلعم» « من سلك طريقا يطلب فيه علمـا سلك الله به طريقا الى الجنة » « واطلبوا العلم ولو بالصين » والعلم لا يصل

الا بالارشاد والتعليم وقوله تعالى « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » ، وهو ايجاب للتعليم « وان فريقا ليكتمون الحق وهم يعلمون » ، وهو تحريم للكتمان • وان الله عزوجل لا ينزع العلم انتزاعا من الناس بعد أن يؤتيهم أياه ولكن يذهب بذهاب العلماء فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى اذا لم يبق الا رؤساء جهال ان سئلوا أفتوا بغير علم فيضلوا ويضلون » - ومن أهم النظريات التربوية التي جاءتنا من الغزالي قوله :

« أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ثم الحفظ ، ثم العمل ثم نشره » وقال : « علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فانك اذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت » •

ومن أهم ارشاداته التربوية هي بيان وظائف المرشد المعلم مع بيان وظائف المتعلم وهنا نذكر ملخصها :ـ

وظائف المرشد المعلم :

١ ـ تجنب مهلكات الاخلاق وهي ، الكبر ، والعجب ، والحسد ، والمنافسة ، وتزكية النفس ، وحب الجاه ، واضمار الخبائث ، والقذف ، والموبقات •

٢ ـ الشفقة والرأفة على المتعلمين •

٣ ـ أن لا يطلب على افادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكرا بل يعلم لوجه الله تعالى •

٤ ـ أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي مع التنبيه على الغرض من درس العلوم •

٥ ـ أن يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريقة التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الاصرار وهذا مما لا تريده للمتعلم •

٦ ـ ان المتكفل ببعض العلوم ينبغي ان لا يقبح في نفس المتعلم العلوم الاخرى فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وأن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة •

٧ ـ أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر (صلعم) حيث قال : « نحن معاشر الانبياء أمرنا ان ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم فليبث اليه الحقيقة اذا علم أنه يستقل بفهمها » وقوله « ما أحد تحدث قوما بحديث لا

تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم » وهذا الشرط يتمشي مع أهم النظريات التربوية الحديثة وهي الاهتمام بالفروق الفردية عند التدريس والارشاد .

٨ ــ ان المتعلم القاصر ينبغي ان يلقى اليه الجلي اللائق ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فان ذلك يضر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه . أي الاهتمام بالفروق العقلية عند الطالب وتنسيب مادة الدرس بالنسبة للقابلية والتجارب .

٩ ــ ان يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لان العلم يدرك بالبصائر والعمل ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود اعوج .

أما المتعلم فآدابه ووظائفه كثيرة ولكن تنظم تفاريقها بعشرة جمل :

١ ــ طهارة النفس عن رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف اي النظافة ظاهرا وباطنا وأهم الصفات الرديئة التي يجب الامتناع عنها هي ، الغضب، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب .

٢ ــ ان لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقى اليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته ويطلب الثواب والشرف بخدمته، فلا ينال العلم الا بالتواضع والقاء السمع.

٣ ــ الاصغاء والادراك والاطلاع وينبغي على المتعلم ان يتقن أولا الطريقة الحميدة المرضية عند استاذه .

٤ ــ على الطالب ان لا يدع فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته طالبا التبحر . لان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض وهذا الشرط في التعليم يشبه أحدث النظريات المتبعة في عصرنا هذا في التدريس ، وهذه الطريقة تسمى « التعلم بالترابط والتداعي » (Associative Learning) والتعلم بهذه الطريقة يكون الترابط فيه بين فكرة وفكرة أخرى ، وان عنصر تذكر الخبرة الماضية فيه يكون بارزا الى حد كبير . والترابط اذا أساس في عملية التعلم كلها وهو أساس التذكر ، وبهذه الطريقة تربط المعلومات والحقائق المشتركة بعضها ببعض بقرينة قريبة أو بعيدة يرجع ما في معلوماتنا من نظام ووضوح كما يرجع امكان استخدامنا لها وتطبيقها في أمور الحياة بسرعة ويسر ولولا ذلك لكانت المعلومات دائما مضطربة يصعب استخدامها وكذلك التفكير لا نظام فيه ولا انسجام .

٥ – على المتعلم أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالاهم ، فان العمر اذ كان لا يتسع لجميع العلوم غالبــا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمه ويصـرف جمام قوته في الميسور من علمه الى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم » • وهذا الشـرط يتمشى مع الطريقـة التربوية الحديثـة في التدريس وهي « الطريقة القياسية » ففيها يبتدء التدريس من الكلي الى الجزئي ومن الحقائق العامة الى الخاصة ومن القاعدة الى الامثال، وهذه طريقة طبيعية في التفكير والاستدلال ايضا ، أي ان يراعى في التدريس بذكر القاعدة او الحقيقة العامة وهي الاهم ، أو التعريف العام المهم ثم يوضح ويبرهن بعد ذلك وتستنتج منه حقائق أخرى خاصة •

٦ – ان لا يخوض المعلم في فن حتى يستوفي الفن الذى قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض والموفق من راعي ذلك الترتيب والتدريج •

٧ – على المتعلم أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وان ذلك يراد به شيئان أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوتـه وهنا يشير على أن أشرف العلوم العلم بالله عزوجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم فأياك وأن ترغب الا فيه وأن تحرص الا عليه •

٨ – ان يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنة وتجميله بالفضيلة وفي المآل ، القرب من الله سبحانه والترقي الى جوار الملأ الاعلى •

٩ – ان يعلم المتعلم نسبة العلوم الى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ، ما يهمك ولا يهمك ، فالعــلوم قسمها الغزالي الى ثلاث أقسام :–

قسم يجري مجرى اعداد الزاد، الراحلة، وشراء الناقة وهو ، «علم الطب» والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا – وقسم يجري مجرى سـلوك البوادى وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الاولون والآخرون الا الموفقين • ويشير الى علم تهذيب الاخلاق والدراية بالعلوم الاخرى • فالامام الغزالى وضـع قواعد عامة للمعلم والمتعلم وغرض التربية الاعلى عنده هو الدين والاخلاق بمعناها الواسع ، فكل تربية لا ترمي الى ترقية الخلق السامي وتقويتـه ليست جديرة أن تسمى بهذا الاسم • والاخلاق ليست كلمات تلقن تلقينا ولا عبارات تعرف مباشرة من كتاب ، اللهم الا من كتاب الخبرة الشخصية والاتصـال بالنـاس والاشـياء ومصادمة الحوادث على أسـاس من العقل والاستعدادات الفطرية وهنا نرى الغزالي يبين لنا شرف العقل ، فعنده ان ظهور شرف العلم يكون من قبل العقل ، والعقل منبـع العلـم ومطلعـه

وأساسه • والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، فشرف العقل سماه عزوجل نورا في قوله تعالى « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة » وسمى العلم المستفاد منه روحيا ووحيا وحياة ــ فقال تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » وقال سبحانه « أو من كان ميتا فأ حييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس » • وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل •

والعلم وحده لا يغني بدون الاخلاق ، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية ويجب ألا ننظر الى الخلق كأنه شيء شخصي محض لا يهم سوى صاحبه ، وانما ينبغي أن ننظر اليه من الناحية التربوية الاجتماعية أكثر من النظر اليه من الجهة الفردية فقيمة تربية الاخلاق وأهميتها تزداد كلما كانت علاقتها بالمجتمع اكثر وروابطها أقرب ، فاذا كان غرض العلم كسب العيش وحده يضيق الافق العقلي ويحرم المرء الترقي الصحيح ويجعله آلة لكسب المال ، فالعلم أو المال ، او المهارة في فن ما ، ان كانت مقرونة بفساد في الخلق ، وضعف في النفس لا تكسب صاحبها راحة البال ولا تجعل الناس تقدره في علمه أو مهارته في فنه • أما من سمت أخلاقه وعلت نفسه ، أو على الاقل لم تنزل عن المستوى الخلقي الذي أوجده العرف وكان مع ذلك ماهرا أو متعلما ، فهذا لا شك من تروقنا اخباره ، وينفعنا علمه ، وتؤثر في نفوسنا اعماله • وهذا الصنف من الناس هم الذين تأخذ بهم الامم شكلا خاصا ، وتتميز بروح خاصة تعرف بها بين الامم المتحضرة الاخرى •

مصادر البحث

1. *The Encyclopaedia of Islam*:

Prepared by a number of leading orientalists—Edited by, M. Th. Hautsm, A.J. Wensinch, T.W. Arnold, W. Heffenings and E. Levi — provencal London, Laugae & Co. 46 Great Russel St. — Published & Printed Late, E.S. Bull. Ltd., 1927 — Volume III E. K. pp. 146-150.

2. *The History of Philosopher in Islam*:

Dr. T.J. De Boir, Transelated with the section of the auther, by Edward R. Jones, B.D. London, Lungae & Co. 46, Great Russel St. 1933 first edition 1903.

٣ ــ كتاب احياء علوم الدين تأليف ابي حامد محمد بن محمد الغزالي ترجمة الامام السهروردي لم تذكر سنة الترجمة بل قيل ان الامام السهروردي ولد ٥٣٩ وتوفي ٦٣٢ • الجزء الاول ص٤ ــ ١٢ • الباب الثالث ٢٢ ــ ٣١ • الباب الرابع ص٣١ ــ ٣٤ • الباب الخامس ص٣٦ ــ ٧٨ •

هجاء الضيوف

الدكتور حسين نصار

يرزق الرجل حظا في غنى ، ويرزقه في علم ، ويرزقه في فن ، ويرزقه في صفة خلقية او خلقية ، وقد رزقه « سلمة بن عمرو الانماري » في ولد • فقد عاش في الجاهلية ، ولقب الخُرْشُب ، لطول وسمن كانا فيه • ولم يابه التاريخ للرجل ، فكاد يندثر ذكره دون ان يعرفه سوى من التقى به في حياته • ثم التفت الحظ اليه ، فوهب اسرته بناتا ، انتمين اليه وكن السبب في معرفتنا به • فقد كن نساء منجبات ، بل وصفهن الاخباريون بانهن « انجب نساء العرب » ، لما تحلى به ابناؤهن من صفات كان العرب يحبونها ويطلبونها في سادتهم ، وأشهر هؤلاء البنات فاطمة أم الكملة الاربعة : عمارة الوهاب ، والربيع ، وانس ، وقيس ، أبناء زياد العبسي(١) •

والتي تعنينا من بنات الخرشب : معاذة ، التي كانت تكنى ام اوس او ام اويس واختلف في اسم ابيها ، فقيل خلف ، وقيل بجير بن خالد •

وتزوجت معاذة من رجل من بني ثعلبة بن سعد من ذبيان • واختلف الاخباريون في اسم الرجل ، فذكر اكثرهم انه ضرار بن سنان ، وهو المرجح ، وأقلهم انه ضرار بن صيفي • ثم يتفق الفريقان على انه كان جميلا ، في حسب من قومه ، منعوتا ـ كما كان يقول الاقدمون ، ويعنون انه كان من السادة ، معروفا بالكرم وخصال الخير •

وانجبت معاذة لضرار ابناء ثلاثة : احسب ان اصغرهم جزء ، وهو أقلهم شهرة • وثانيهم معقل ، الذي يعرف بالشماخ ، وهو اعظمهم شهرة • واسنهم الرجل الذي نريد الحديث عنه •

وعرف الرجل بلقب اكتسبه من بيت من الشعر له • فقد قال يصف الزبدة ويفتخر انه يقدمها لمن ذهبت الايام بأسنانه ممن يرعاهم ليزدردوها ازدرادا :

فجاء بها صفراء ذات أسرة   تكاد عليها ربة البيت تكمد

فقلت : تزردها عبيد ، فانني   لدرد الموالي في السنين مزرد

فاطلق عليه المزرد • وغلب هذا اللقب على الرجل حتى كاد يخفي اسمه لولا انه ذكره في شعره اذ قال يصور حسد اقاربه له ، لان الله منحه

زوجة بارعه عفيفة ، على حين انه يدافع عنهم ويكثر من الاحسان اليهم :

حباني بها ربي صناعا عفيفة ... على حاجة ، ان السعيد سعيد
وقال رجال من صديقي : انما ... ينال المنى والمفرحـات يزيد
واني للبـاس على المقت والقلى ... بني العم ، منهم كاشح وحسود
أذب وأرمي بالحصى من ورائهم ... وأبدأ بالحسنى لهم وأعـود

وأكد جبل بن جوال هذه التسمية ، فقد قال يخاطب مزردا وأخاه الشماخ :

لعمري، لعل الخير لو تعلمانه ... يمن علينـا ، معقـل ويزيـد
منيحة عنز أو عطـاء قطيمـة ... ألا ان فضـل الثعلبي زهيـد

وذكر المؤرخون ان المزرد كان يكنى ابـا ضرار ، وقيل : ابـا الحسن ويؤكد شعره الكنية الثانية ، اذ صور محبوبتـه سلمى تلومـه على كثـرة رحلاته وتلتمس منه البقاء ، فقال :

وقالت : ألا تنوى فتقضى لبانة ... أباحسن سفينا، وتقضي مواعدي

ولم يمهل القدر ضرارا ليتمتع بابنائه ، بل اختطفه الموت وهم صبيـة وتقدم رجل يسمى اوسا لخطبة الام • فاغتم الصغار وعزموا على اللجوء الى كل طريقة كيلا يتم الزواج • فهداهم تفكيرهم الى الرجز الذي اشتهر قومهم بالابداع فيه •

نقل الجاحظ عن ابي عبيدة : اجتمع ثلاثة من بني سعد ، قوم ضرار يراجزون بني جعدة ويباروتهم • فقيل لشيخ من بني سعد : ما عندك ؟ قال: ارجز بهم يوما الى الليل لا أفتج (أي لا أعي ولا انبهر) • وقيل للاخر: ما عندك ؟ قال : ارجز بهم يوما الى الليل لا انكف • فقيل للثالث : ما عندك ؟ قال : ارجز بهم يوما الى الليل لا أنكش (أي لا أنزف ولا ينفد ما عندي) •

سلاح رهيب ، بل السلاح الوحيد الذي كان العربي يخافه ، ويحاول جهده ألا يعرض نفسه وعرضه لسنانه القاطع •

وجاء أوس لخطبة المرأة خطبة معلنة • فتربص له الصبية بفناء بيتهم وهم يتظاهرون بالاستقاء من البئر • فلما اقترب الرجل وصار على مسمع منهم ، تناول الشماخ دلوا وأخذ يملؤه من البئر ، ويتغنى كعادة العرب عند الاستقاء ويقول :

أم أويس نكحت أويسا

ثم تلقف المزرد الدلو منه وتغنى يصف الرجل بامتلاء الجسد والكيامة:

أعجبها حدارة وكيسـا

وأعقبهما جزء الذي جعل الصداق شاة قليلة اللبن وتيسا ، اذ قال:

أصدق منها لجبة وتيسا

فلما سمع اوس الصبية ، وتحقق من قدرتهم الشعرية ، فطن الى ما سيلقاه منهم من عناء في قابل الايام ، اذا ما ارتبط بامهم - وآثر السلامة والعافية وانسحب .

ولامر ما ، لم تعدل الام بين ابنائها ، وفضلت بعضهم على بعض . وكان المزرد من المهضوم حقهم . فقد كانت امه تضن عليه بالزاد وتقدمه هنيئا لغيره منهم . فكان ذلك يحفظه ويضربه . وفي ذات يوم ، ذهبت الام لتقضي بعض حقوق اهلها ، وخلفت المزرد في البيت . فدخل الخيمة فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعا من عجوة ، وصاعا من سمن ، فضرب بعضه ببعض ، فأكله . ثم انشأ يقول :

ولما مضت أمي تزور عيالها ... أغرت على العكم الذي كان يمنع
خلطت بصاعي حنطة صاع عجوة ... الى صاع سمن فوقه يتريع
ودبلت أمثال الاثافي كأنها ... رؤوس رخال قطعت لا تجمع
وقلت لبطني : أبشر اليوم انه ... حمى أمنا مما تفيد وتجمع
فان كنت مصفورا فهذا دواؤه ... وان كنت غرثانا فذا يوم تشبع

وكان لهذه المعاملة السيئة اثرها البالغ في الابناء وبينهم . ففقد الود والمراعاة بينهم ، ولم يتحرج احدهم من الاغارة على ما لاخيه . رووا أن الشماخ كان يهوى امرأة من قومه - وعرف الناس منه ذلك ، ونظم الشعر فيها . ثم خطبها وأجابته ولم يؤخر الزواج غير سفر له . فلم ير أخوه جزء بأسا من التقدم للمرأة ، والتقرب اليها ، واستمالتها اليه ، والقاء الجفوة بينها وبين اخيه ، حتى فاز بيدها . وعاد الشماخ فوجد خطيبته في بيت اخيه زوجة له . فآلى الا يكلمه ابدا وهجاه ، ويقال انهما ماتا متهاجرين .

ونشأ المزرد حاقدا . ولم يقصر حقده على امه التي حرمته وحدها ، ولا على اخوته الذين كانوا السبب في حرمانه ، بل عم بكرهه قومه جميعا . ثم اتسع به فشمل الناس : من كانوا ، واين كانوا .

فلم يزعه وازع عن تعريض امه لهجاء الشعراء . روى المفضل قال : قالت معاذة للشماخ ومزرد : عرضتماني لشعراء العرب : الحطيئة وكعب بن زهير ! فقالا : كلا ، لا تخافي . قالت : فما يؤمنني ؟ قالا : انك ربطت بباب بيتك جروي هراش ، لا يجتريء احد عليهما . يعنيان انفسهما .

ثم الح هو على هجاء قومه ، فكان – كما قال ابن قتيبة – : « احد من هجا قومه » .

ثم كان – في قول ابن قتيبة ايضا – « ممن يهجو الاضياف ويمن عليهم بما قراهم به » بل بلغ به الامر الى ان حلف الا ينزل به ضيف الا هجاه ، ولا يتنكب بيته ولا يقصد قصده الا هجاه . وآل الامر الى ان وصفه الواصفون بانه « هجاء خبيث اللسان » . وخافه الناس : الشاعر منهم وغير الشاعر . قال مزرد لامه يوما : كان كعب بن زهير لا يهابني وهو اليوم يهابني .

قالت : يا بني ، نعم ، انه يرى جرو الهراش موثقا ببابك .

ومضت الايام دون ان نسمع عن المزرد خبرا ، بالرغم من ازدحام شبه الجزيرة العربية بالاحداث . فقد قام محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم – في مكة داعيا الى اله واحد لا اله غيره ، والى دين عربي خالص ، والى شريعة تنظم حياة البشر جميعا . واضطر بعد زمن الى الهجرة الى يثرب « مدينة الرسول » ، التي كانت تقيم غطفان – قبيلة الشاعر – قريبا منها .

واسرع افراد من بني غطفان الى تلبية الدعوة الجديدة . ولكن جمهور القبيلة تأخر عنها ، بل طال العداء بينه وبينها . فاضطر الرسول الى توجيه الغزوات اليها ، مثل غزوة ذي امر ، وذات الرقاع ، وذي قرد . وتكررت غارات غطفان على المدينة ، وكانت احد كبار المسهمين في غزوة الخندق . وارادت معاونة اليهود ، حين توجه جيش الرسول اليهم في خيبر . واخيرا اضطرت ان تكون في صف المسلمين في غزوات فتح مكة ، وحنين ، والطائف . ولكن ذلك كان منها دون ان تعتنق الاسلام ، حتى رأى الرسول عليه الصلاة والسلام – ان يتألف اشرافها بالهدايا والعطايا والغنائم . ثم كان منهم اسلام .

فأين كان مزرد بن ضرار من هذه الاحداث . لا تدري على وجه اليقين ولكن المؤكد انه لم يكن من السابقين الى الاسلام . ونظن ظنا انه – وقد كان فارسا كما وصفه المرزباني في معجم الشعراء – كان مع جمهور قومه في عداوتهم له الى ان دخلوا فيه ، فكان معهم ايضا . فعده المؤرخون من الصحابة .

ووضعه ابن حجر العسقلاني في القسم الاول الذي افرده لمن « وردت صحبته بطريق الرواية عنه او عن غيره ، سواء كانت الطريقة صحيحة او حسنة او ضعيفة ، او وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان » : وفي القسم الثالث الذي خصصه لمن « ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين ادركوا الجاهلية والاسلام ، ولم يرد خبر قط انهم اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا رأوه ، سواء أسلموا في حياته ام لا . وهؤلاء ليسوا اصحابه باتفاق من اهل العلم بالحديث . وان كان بعضهم قد ذكر بعضهم في كتب معرفة الصحابة ، فقد افصحوا بأنهم لم يذكروهم الا لمقاربتهم لتلك الطبقة لا انهم من اهلها » .

ولعل هذه الحيرة في صحبته للرسول صلى الله عليه وسلم والشك فيها ، يرجعان الى اختلاف العلماء فيمن قدم على الرسول : اهو أم اخوه جزء . فقد ذكروا ان احدهما وفد عليه وانشده شعره الذي يهجو فيه قومه بني انمار :

تعلم رسول الله أنا كأننا ... أفأنا بأنمار ثعالب ذي غسل

تعلم رسول الله لم أر مثلهم ... أجر على الادنى، وأحرم للفضل

واذا كان النزاع في الشعر السابق بين الاخوين وحدهما ، فان النزاع

في رثاء عمر بن الخطاب اشد واوسع • فقد نسبه جماعة الى مزرد ، وأخرى الى جزء • وثالثة الى الشماخ ، ونفته فئة عن الاخوة الثلاثـة وعزتـه الى الجن • قال الشاعر في رثائه :

جزى الله خيرا من أمير ، وباركت ... يـد الله في ذاك الاديـم الممـزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ... ليدرك ما حاولت بالامس يسبـق
قضيت امورا ثم غادرت بعدهـا ... بـوائـق في أكمامهـا لم تفتـق
وما كنت اخشى أن تكون وفـاته ... بكفي سبنتى أرزق العين مطـرق

وروى ابن سعد في طبقاته عن موسى بن عقبـة : سألـت عـائشة ام المؤمنين : من صاحب هذه الابيات ؟ فقالوا : مزرد بن ضرار • قالت عائشة : فلقيت مزردا بعد ذلك ، فحلف بالله ما شهد تلك السنة الموسم • تريد انه لم يقل الشعر • ولـكن ابن حجر لم يرض بالخبر وضعف سنده ، فأثبت الشعر لمزرد •

وادرك الشاعر خلافة عثمان ، وقال يخاطب شتيما وابنه :

أعوذ بعثمان بن عفان منكما ... وبالله والبيت العتيق المحرم

والى عثمان لجا جماعة من رهط الشاعر يسمون بني ثوب ، وكان قد هجاهم فبعث اليه عثمان برجلين : احدهما من قومه بني ثعلبة يسمى اوفى ، والاخر من الانصار يقال له يزيد بن مربع ، فأتيا به • فأعتذر له وقال :

تبرأت من شتم الرجال بتوبة ... الى الله مني لا ينادى وليدها

أي توبة واسعة • وتوسط له عرابـة الاوس ، وكان من الاشراف ، يمدحه الشاعر واخوه الشماخ • فرضي عنه عثمان ـ فيما يبدو ـ واطلق سراحه •

وغفل التاريخ عن المزرد ولم يعد يعنى به • فاندثرت اخباره ولم نعد نعرف عنه شيئا • فاختلف في وفاته : متى كانت ؟ فافترض خيرالدين الزركلي انهـا كانت نحو سنة ١٠ هـ • وذلك محـال • وافترض خليل ابراهيـم العطية محقق الديوان ، انها كانت في حدود سنة ٣٠ هـ او ما بعدها ، لدلالة شعره على انه ادرك خلافة عثمان • وهذا القول اقرب الى الصواب •

واحسب ان وفاة المزرد ووفاة الشماخ كانتا متقاربتين ، ولذلك جمع بينهما الحسن بن المزرد في الرثاء ، اذ قال :

عيني جـودا بالدموع وبكيـا ... يزيدا وشماخا ولا تسئماهمـا
ستحمي ذمار الماجدين كليهما ... كما حميا قبلي ذمارى كلاهما
واصبحت لا اجزيهما غير انني ... عدو لمن لم ينس عن اذاهما

مات المزرد وخلف ابنين شاعرين ، هما الحسن الذي ذكرت حالا ، وكثير • وخلف مجموعة من الشعر لم يذكر القدماء أنها جمعت ودونت في ديوان • وانما اقدم من اشار الى ذلك حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون •

ولكن السيد خليل ابراهيم العطية عثر على ديوان غير كامل للمزرد ، تعاورته ايدي جماعة من كبار اللغويين والرواة : ثعلب وابن السكيت وابن دينار والصغاني ، وكان لكل منهم جهده في الرواية والشرح • فحققه واصدره في بغداد •

وما بقي من شعر المزرد يدل على نفسيته اصدق الدلالة • فاكثره في الهجاء ، الذي رأينا امه بثت فيه بذوره بمعاملتها السيئة له • فنشأ مرهف الاحساس ، سريع الاستجابة والانفعال ، مبادرا الى الهجوم ، وخاصة انه وهب لسانا خبيثا ، وعارضة شديدة كثيرة ، وجوابا سريعا • هجا زرعة بن ثوب من بني عبدالله بن غطفان • وفي هجائه له مدح ابن دارة وهو من بني عبدالله ايضا ، فقال :

فيا لهفي أن لا تكون تعلقت ... بأسباب حبل لابن دارة ماجد
فيرجعهـــا قـــوم كأن أباهـــم ... ببيشة ضرغام طوال السواعـــد

فلقيه ابن دارة فقال له : يا مزرد ، أتراني أرضى بأن تمدحني وتذم قومي ! فقال له مزرد : ما شئت • قال ابن دارة : اما والله لتجدني ضابطا بالغربين • قال مزرد : اما والله لتلقين عادية لا تنزح • أي بئرا لا ينفـــد ماؤها • فضحك الناس من ابن دارة وقالوا : هلك البعير •

وأكثر هجائه في قومه : جماعات وأفراد • فقد هجا بني قرين وشعفر من بني جحاش ، وهجا بني جحاش كلهم وبني سبيع وعبد غنم ، والثلاثة من أرهاط بني ثعلبة بن سعد قبيلة الشاعر • وهجا بني انمار وعبدالله ، والاثنان من غطفان ، القبيلة الكبرى التي تنتمي كل هذه القبائل اليهـا • ومن الافراد هجا عبد بني حبل ، وهو من جحاش ، وزرعة بن ثوب ، وهو من عبدالله بن غطفان ، وزياد بن عوف ، وهو من بني خصيلة ثم مرة ، وهو من أقربائه لانه يخاطبه بقوله :

على غير شيء لم يضفنا ابن عمنا ... ولم يتعرض عنـــدنا لمنـــاع

واوردت أخبار المزرد وأشعاره الأسباب التي جعلته يهاجم بعض أقاربه واغفلت ذلك في بعضهم الاخر • فرووا ان سبب ذمه لبني عبد غنم انه خرج هو ورجل من بني مزينة يسمى هيثما ، خرجا من المدينة الى الكوفة ، يريد كل واحد منهما قومه ، وكانا مدينين • فاما المزني فقد أكرمه قومه وأعطوه فأجزلوا • وأما المزرد فنزل في بني عبد غنم فاعطوه ما لم يرض • فهجاهم وصور استقبالهم له أدق تصوير ، وأشوهه لهم ، قال :

أتيت بني عمي ، فضنوا بمالهـــم ... علي ، ومن يبخل فاني عـــارف
وحرش اخسواني عـلى كنـــائني ... وخير النساء المؤمنـــات الحنائف
تواكلن رحلى تحت عين مطـــيرة ... من الدجن ، حتى لم يربهن واكف
وقال جواريهم : لعل قلوصـــــة ... بدار ابن أوفى صـــبة الملف آلف
تعش خلال الـــدور لا يعلفونهـــا ... كما طوفت مفروكة الرفغ صـــالف

وجاءوا جميعا : قومهم ونساؤهم ... بما كـل ذي رأي لـه متسـاخف
وقالوا : أقيموا سنة لأخيـكم ... بني عبد غنم ليس فيهـا مخالف
فكانت سراويل وجرد خميصـة ... وخمس مجاء منهـا قس وزائف

فهو يدعي أنهم أساءوا استقباله ، وتركوه في العراء تحت المطر المنهمر، ولم يقدموا له طعاما ولا لناقته علفا ، فكانت كالزوجة التي يكرهها زوجها ، ودفعه كل منهم الى الآخر ، ثم حرضوا نساءهم عليـه • وفي آخر الأمر ، عقدوا اجتماعا عاما ، تآمروا فيه وأهاب بعضهم ببعض أن يقيم سنة الاجداد •• فكانت النتيجة ملابس قديمة بالية •

والحق ان ما لقيه في الكوفة من أقاربه كان له أسوأ الأثر وأبقاه ، فعاد الى تصويره في أبيات اخرى له ، تعرض فيها الى ناقته أيضا التي يدعي انها كرهت الاقامة هناك • قال :

أرى ناقتي قد غمها الرجن واجتوت ... أزقـة أبواب تغلـق دورها
اذا هي همت بالتطلع صـدها ... مصاريع أبواب شـديد صريرها
وقد حبست في الدار حتى كأنهـا ... من الرجن قوس حل عنها سيورها

أما بنو انمار ، فقد تزوج المزرد امرأة منهم • فلما بعثوها اليه ليلة الزواج ، حملوها على بعير صعب • فنفر بها ، فسقطت منه ، فانكسر مقـدم فمها • فغضب المزرد وقال :

قد حملوها ـ أقل الله خـيرهم ـ ... على نفور كفرخ الرخـم خـوار
ألقى بهـا بردا لو يستضاء بـه ... أضاء في الليلة الظلماء للسـاري
ياليت فاها ، فداء الثمين أربعـة ... من موليهـا بني عبس وأنمـار

وقد عاد الشاعر الى هجاء بني انمار أكثر من مرة • ولكن أوجع ما بقى من هجائه ما وجهه الى ابني عبد غنم ، وأوردت قطعة منه قبلا ، لاطالته فيه ، والحاحه على الهجاء ، وتخليصه قصيدته كلها له ، ولجوئه في بعض أبياته الى التصوير •

وبقي من شعر المزرد قطعتان في هجاء الضيوف • وقد روت الاخبـار سبب نظمه احداهما • فقد قيل : ان زياد بن عوف ، أحد بني مرة ثم بني خصيلة ، خرج يبغي حاجة في أرض بني ثعلبة • ولما أمسى لقي راعيا في ابل للمزرد ، فقال له : لمن أنت ؟ فقال : لمزرد بن ضرار • ولما كان قد سمع عنه وعرف كراهيتـه للاضياف تردد بين النزول عليه ومواصـلة السفر • وسأل الراعي : فأين بيته ؟ قال : هو ذاك • فقال : تالله ، لقد أمسيت ، واني لأراني سآتي مزردا الليلة ، على انه خبيث اللسان أخاف شره ، لا والله لا آتيه • وعدل عن النزول عليه ، وقال للراعي : لا تخبره بقولي • فلم يحقق الراعي رجاءه ، وأقبل حتى أتى مزردا وحدثه بحديث زياد • فهجاه المزرد وقال :

زياد بن عوف من خصيلة سبني | على غير شيء واستحل قذاعي
على غير شيء لم يضفنا ابن عمنا | ولم يتعرض عندنا لمتاع
تشاخص ابهاماك ان كنت كاذبا | ولا برئا من داحس وكناع
ولولا بنو سعد ورهط ابن باعث | قرعتك بين الحاجبين وقساع
فاصبح كالزباء تمرى بخفها | وقد ضبنتها وقرة بكسراع

ولم تذكر الاخبار سبب الهجاء في القطعة الثانية • ولكن الشاعر نفسه ادعى ان هذا الضيف أتاه بالليل الحالك الظلام ، وقد جف ريقه ، فاهاج كلابه ، ولما سأله عن حاجته زعم انه يبحث عن ناقة له ضالة • ولكنه لم يغتر بهذا الزعم ، وأدرك انه قد سمع بما عنده من تمر ، فقدم له طعاما فأتى عليه • أورد الشاعر كل ذلك ، وصور الرجل وهو يضرب بعيره ليرغو فيصحو أهل البيت ، وصوره وهو يتناول طعامه فاجاد الصورة وشوه المصور • وفي البيت الاخير لم يرض أن يترك الضيف يرتحل من عنده ، وهو يعتقد انه قد خدعه ، فرماه بالحقيقة العارية • قال :

عوى جرس[2] ، والليل مستحلس الندى
لمستنبح بين الرويثات والخصر

تنور فوق الاشفياء وقد أتى | على قطن أغباش ذي حدب خضر
فقال امرؤ فوه من الجوع عاصب : | ألم تسمعا نبحا برابية النسر
فلا غرو الا حين يضرب موهنا | ــ ليوقظ أهل البيت ــ سالفة البكر
فقلت له : ماتبتغي ؟ قال : أبتغي | قلوصا لنا ورقاء من نعم الخضر
عجبت له اذ يتقي الكلب بالعصا | ولا يتقي صم الأساود اذ تسري
ولكنه نقت ضفادع بطنه | أن أخبر أصراما بنخل أولي تمر
فأطعمته حتى حبت حاوياؤه | كحبو الجواري ، في ملاعبها البجر
اذا شفتاه ذاقتا حر طعمه | ترمزتا للحر كالأسك الشعر
كأن يديه كلما قام جانبا | عليها يدا آس أياسره دبر
فقلت له : لما تجهز غاديا : | ألا كل عوفي يضيف ولا يقري

أي كل عوفي يحب ان ينزل ضيفا على الناس ولا يحب ان ينزل أحد ضيفا عليه •

واشتبك المزرد في معركة شعرية مع كعب بن زهير ، دفاعا عن مكانته الشعرية • قيل : ان الحطيئة ــ وكان راوية زهير بن ابي سلمى وآله ــ اتى كعبا ، وقال له : قد علمت روايتي لكم ، أهل البيت ، وانقطاعي اليكم ، وقد ذهب الفحول غيرك ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا بعدك ، فان الناس لاشعاركم اروى واليها اسرع • فقال كعب يرثي الشعر بعد وفاتيهما :

فمن للقوافي شانها من يحوكها | اذا ما ثوى كعب وفوز جرول[3]

يقول ، فلا يعيا بشيء يقوله ... ومن قائليها من يسيء ويعمل
يقومها حتى تقوم متونها ... فيقصر عنها كل ما يتمثل
كفيتك لا تلقى من الناس شاعرا ... تتخل منها مثل ما اتنخل

فغضب المزرد لتجاهله إياه ، ورد عليه قوله : وادعى انه يفوقهما في الشعر المرتجل والمجود ، قال :

(....) اذ خلفتني خلف شاعر ... من الناس لم أكفيء ولم أتنحل
فان تجشبا أجشب ، وان تتنخلا ... – وان كنت أفتى منكما – أتنخل
فلست كحسان الحسام ابن ثابت ... ولست كشماخ ولا كالمخبل

وغضب بعد المزرد شاعر آخر هو الكميت ، ورد على دعوى كعب بقوله :

فدونك مقربة لا تسا ... ط كرها بسوط ولا تركل
مهذبة لا كقول الهذا ... ء ممن يسيء ومسن يعمل
وما ضرها أن كعبا ثوى ... وفوز من بعده جرول

ولم يبق المزرد المعركة داخل النطاق الشعري ، بل تعداه وطعن في نسب كعب ونفاه عن قبيلته عبدالله بن غطفان ، اذ قال :

وأنت امرؤ من أهل قدس وآرة ... أحلتك عبدالله أكناف مبهل

فالتقط كعب القفاز الذي القاه المزرد ، وطعنه طعنة قاتلة اذ رآه دميما احمر شبيها بابن عم كان لأمه وأبيه معا ، على حين كان أبوه جميلا . قال كعب :

ألا أبلغا هذا المعرض انه ... أيقظان قال القول اذ قال أم حلم
فان تسأل الأقوام عني فانني ... أنا ابن أبي سلمى على رغم من رغم
أنا ابن الذي قد عاش تسعين حجة ... فلم يخز يوما في معد ولم يلم
وأكرمه الأكفاء في كل معشر ... كرام ، فان كذبتني فاسأل الامم
أتى العجم والآفاق منه قصائد ... بقين بقاء الوحي(٤) في الحجر الأصم
أقول شبيهات بما قال عالما ... بهن ، ومن يشبه أباه فما ظلم
وأشبهته من بين وطء الحصى ... ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم

وقال السكري في شرح ديوان كعب : ان ام المزرد لما سمعت الشعر عرفت ما اراد بتلميحه . فقالت لابنائها : ما كنتم لتنتهوا حتى تجروا الى بعض ما اكره . وبكت الى مزرد وناشدته الله لما اعرض عن كعب . فكفوا عن كعب وكف كعب عنهم .

ولكن ديوان المزرد يضم قصيدة أخرى في هجاء كعب ، ربما قالها قبل رجاء امه . ويضم قصيدة ثالثة ، يتوسط فيها صديقان ليكف ، فيذكر لهما ان قصيدته قذيفة شيطان ، تلصق بالمهجو كانها الوسم في حلق

البعير ، وان الرواة يتنقلون بها في كل الارجاء ، فتمتلىء بها الاسماع •

وآخر من نتناول ممن صب عليهم المزرد هجاءه زرعة بن ثوب • ولم يكن للرجل صلة خير أو شر بالرجل ، وانما أجر عليه فيما احسب • فقد اقام اهل بيت من بني ثعلبة بن سعد بجوار بني عبدالله بن غطفان • فذهب رجل من بني عبدالله ، لعله زرعة أو أحد ابنائه ، الى غلام من الثعلبيين يقال له خالد ، وكان يقتني ابلا كراما جلة حسانا • فلم يزل الرجل يخدع الثعلبي حتى اشترى الابل منه بغنم • ورجع الغلام الى ابويه واخبرهما فقالا : هلكت والله واهلكتنا •

وركب أبو الغلام الى مزرد فقص عليه القصة • فقال مزرد : انا ضامن لك ابلك ان ترد عليك باعيانها • ثم نظم قصيدته في هجاء زرعة ، فحكى فيها الخبر ، وهجا الرجل ، وطلب منه ان يرد الابل ، ودعا عليها ، ثم مدح اناسا من بني عبدالله قبيلة زرعة ليردوها اليه - وقد اختار المفضل الضبي هذه القصيدة في مفضلياته •

وكان المزرد معجبا كل الاعجاب بشعره عامة ، وهجائه خاصة • وصفه وقد جاوز الاربعين من عمره ، فقال :

وجاوزت رأس الأربعين فأصبحت ... قناتي لا يلفى لهـا الدهر عـادل
وقد علموا في سالف الدهر أنني ... معن اذا جـد الجراء ونابـل
زعيم لمن قاذفته بأوابد ... يغني بها الساري وتحدى الرواحل
مذكرة تلقى كثيرا رواتها ... ضواح ، لها في كل أرض أزامل
تكر فلا تزداد الا استنارة ... اذا رازت الشعر الشفاه العوامل
فمن أرمه منها ببيت يلح به ... كشامة وجه ، ليس للشام غاسل
كذاك جزائي في الهدير وان أقل ... فلا البحر منزوح ولا الصوت صاحل

ويبدو ان الهجاء استغرق الشاعر ، فلم يكن له نصيب في المدح • فليس فيما بقي من شعره غير أبيات في مدح عرابة الاوسي ، لشفاعته له عند عثمان بن عفان • قال له :

فدتك - عراب - اليوم أمي وخالتي ... وناقتي الناجي اليك بريدها
جعلت دمي في جوفه بعدما التقت ... أكف الأعادي كلهم يستقيدها
وكائن ترى من أسرة لي نصرها ... ومن أسرة يسعى علي وفودها
وقلت لهذا الناس اذ ينهشونني : ... أسدوا كما خير الأمور سديدها
فكشفت عني الموت منسك بالوة ... كمتن جواد شق عنها لبودها

وفي الشعر أبيات في مدح فتيان من قريش ، ولكنني أظن انه يريد « قرين » من بطون قبيلته ثعلبة •

ولا يخص الشاعر قومه بالهجاء بل يشركهم في المدح والافتخار • فكان التغني باسماء قبائل بني غطفان مثل ذبيان ، وجحاش ، وعبد غنم ، وقرين ، وما لها من عزة ومآثر ، أحد العناصر التي يلح عليها في فخره •

قـال :

اذا حدبت ذبيـان حولي وجدتني   عزيزا يرد الضيم عني شـهودها
نماني الى ساداتها في ذرى العـلى   أب أورث المجد التليـد جدودها

وقال يتغنى بطرفيه من ابيه وامه :

ولـكن خالي سـابق متفرع   ذرى العز عنـان على كل مخطـم
وكنت اذا قطعت أعراض معشـر   تميت الى عيص منيـع عـرمرم
قرين وحصن – ان أناس تغيبوا –   حماتي، ورهط ابن الحصين بن كردم
هم القوم يختار الحيـاة أخوهم   على الموت ، لا رهط الذليل الملطم
وما نسبي في عبد غنم بضـؤلة   الى عبـد غنـم أنتمي ثم انتمي

وفخر الشاعر بنفسه طويلا • وأقام هذا الفخر على شقين : مقدرته الشعرية وقد أشرت الى بعض ما قال عنها وأوردته ، ومقدرته الحربيـة ، وعزة نفسه • فرسم لنفسه في مفضليته الثانية صورة من أجمل الصور ، تناول فيها مقدرته ، ثم وصف سـلاحه : من فرس ، ودرع ، ومغفر ، وسيف ، ورمح ، أدق تصوير وأحسنه • قال :

وقد علمت فتيان ذبيـان أنني   أنا الفارس الحامي الذمار المقـاتل
وأني أرد الكبش ، والكبش جامح   وارجع رمحي وهو ريان ناهـل
وعنـدي اذا الحرب العوان تلقحت   وأبدت هواديهـا الخطوب الزلازل
طوال القرا قد كاد يذهب كاهـلا   مزامير شـرب جاوبتهـا الجلاجل
أجش صـريحي كأن صـهيله   مزامير شـرب جاوبتهـا الجلاجل

وافتتح المزرد قصائده بالغزل • بل أتى به في قصيدة قريبا من آخرها دون سبب واضح ، ووضعه موضعا قلقـا لا رابطـة بينه وبين ما حوله (ص ٥٥) • ووجه غزله كله الى من أسماها سلمى ، ولم يعدد الاسماء كغيره من الشعراء • وكشف لنا عن نسبها فقال :

فزاريـة مريـة ثعلبيـة   لصيقتنا أو من ذرى من نخـالف

وأراد ان يصفها فمنحها الصورة التقليدية المتخذة من الظبية التي تخلفت عن أخواتها لترعى ابنها الصغير • قال :

ألا ان سـلمى مغزل بتبـالة   خذول تراعي شادنا غـير توءم
هي الأم ذات الوجد لا يستزيدها   من الحب والرئمان بالأنف والفـم
متى تبتعثه من منـام يتسـامه   لدرتهـا يبغم لديهـا وتبغـم

وعاد الى تصويرها بالظبية ، ولـكنه حدد ما بينهما من مشابه ، اذ قال :

أقول اذا عنت لنا أم شـادن   من الأدم : هذا كشح سلمى وجيدها

وأجمل صورة أسنانها اذ رآها في اشراقها أشبه بالسحابة ذات البرق ، قـال :

اذا ابتسمت سلمى تلألؤ مزنـــة   يمانيـــة من عـــــارض متبسم

ولكن اجمل من ذلك حديثها الذي ينزل بمن اعتصم بالجبل اليها ، ويجعل الشيخ الذي ذهبت السنين بأسنانه يصبو فلا يستطيع ان يخلص عينيه من سحرها ، قال :

ولو بذلت أدنى الحديث لعـــاقل   خذول اذا ما أفضت العصم يجلس
لأفضى الى سلمى لحسن حديثهـــا   من الطود حتى ظل في الحبل يحدس
ولو أن شــيخا ذا بنـــين كأنما   على رأسه من شامل الشيب قونس
وقد فنيت أضراســه غير واحـــد   رميم ، اذا ما مس يدمى ويضرس
تبيت فيـــه العنكبوت بنـــاتها   نواشيء حتى شبن أو هسن عنس
لظل الهيهـــــا رانيـــا وكأنـــه   ــ اذا كش ثور من كريص ــ منمس

وقد جمع المزرد أكثر ما كشفه من صفات سلمى في مفضليته اللامية التي قال فيها :

صحا القلب عن سلمى ومل العواذل   وما كاد لأيا حب ســـلمى يزايل
فؤادي حتى طـــار غي شبيبتي   وحتى علا وخط من الشيب شـامل
فلا مرحبا بالشيب من وفــد زائر   متى يأت لا تحجب عليـــه المداخل
وســـقيا لريعان الشباب فانـــه   أخو ثقة في الـــدهر اذ أنا جاهل
اذ ألهو بسلمى وهي لــذ حديثهـــا   لطالبها ، مسئول خــير فبـــاذل
وبيضـــاء فيها للمخالم صـــبوة   ولهو لمن يرنو الى اللهـــو شـــاغل
ليالي اذ تصبى الحليـــم بدلهـــا   ومشي خزيل الرجع فيه تفـــاتل
وعيني مهـــاة في صـــوار مرادها   رياض سرت فيها الغيوث الهواطل
وأسحم ميـــال القرون كأنـــه   أســـاود رمان السـباط الأطاول
وتخطو على برديتـــين غـــذاهما   نمير الميـــاه والعيون الغــــلاغل

واعجب النقاد القدماء بأبيات وقصائد وفنون من شعر المزرد • قال العسكري : أحسن ما قيل في صفة الرماح قول المزرد :

اصـــم اذا ما هز مارت ســــراته   كما مار ثعبـــان الرمال المــــوائل
له زائد ماضـــى الغرار كأنـــه   هلال بدا في ظلمة الليـــل ناحل

ووافق ابن أبي عـون على رأي العسكري • واختار للشاعر أيضا وصفه للدرع ، وأتى به بين ما أورده في كتابه « التشبيهات » من أبيات رائعة :

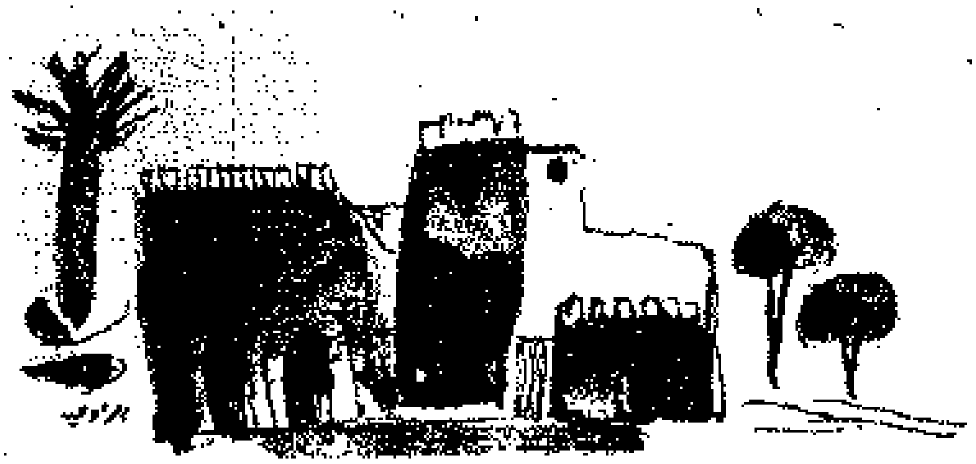
ومسفوحة فضفاضة تبعيــــة   وآها القتـير تجتويهـا المعـــابل
دلاص كظهر النون لا يستطيعهـا   سنان ، ولا تلك الحظاء الدواخــل

وذكرت قبـلا ان المفضل الضبي استحسن قصيدتين من شـعره ، وجعلهما من مفضلياته • وكان ابن أبي عون من المعجبين بوصفه للفرس ، فجعله من الشعراء الذين عرفوا بذلك الفن •

وبلغ الامر بابن حجر الى أن قال : « قال ابن عبدالبر : وذكر محمد ابن سلام الجمحي النابغة والشماخ ومزردا ولبيدا طبقة واحدة ٠ انتهى ٠ وهو كما قال : ذكرهم في الطبقة الثالثة » ٠ يريد من شعراء الجاهلية ولم أجد هذا القول في كتاب الاستيعاب الذي بين أيدينا اليوم ٠ أضف الى ذلك ان ابن سلام لم يضع مزردا في أية واحدة من طبقاته ، وانما تتألف الطبقة الثالثة عنده من النابغة الجعدي ، وابي ذؤيب الهذلي ، والشماخ ، ولبيد ٠

والخلط بين المزرد والشماخ ، بل بينهما وبين جزء أيضا ، قديم ٠ فقد كان الاخوة الثلاثة شعراء ، فجار بعضهم على شعر بعض ، دون قصد منه ٠ اذ جمعت ذاكرة الرواة بين الاخوة ، وخلطت بينهم ، وبين اشعارهم أحيانا ٠ ورأينا قبلا أمثلة لذلك ٠ بل بلغ الأمر الى درجة سلب المزرد واحدة من أجمل قصائده ، هي المفضلية اللامية ، اذ قال عنها أحمد بن عبيد : قال أبو عمرو الشيباني وجميع شيوخنا : ان هذه القصيدة لجزء بن ضرار ٠

وختام القول ان النقاد القدماء مجمعون على ان الشماخ أفحل الاخوة الثلاثة وان المزرد أشبههم به ٠



(١) وكان العرب يصفون الشجاع الذي يحسن الشعر والكتابة والرمي والعوم بالكامل ٠
(٢) اسم كلب مزرد ٠
(٣) حرول : اسم الحطيئة ٠
(٤) الوحي : الكتابة ٠

الاستعمالات التطبيقية للنظائر

عبد الحميد عبد المجيد

الاستعمالات التطبيقية للنظائر :

ان استعمالات النظائر في الابحاث البيولوجية والكمياوية والفيزياوية والصناعية كثيرة ومنها :

استعمال النظائر في علوم الحياة :

ثبت باستعمال المركبات المعلمة بالدوتيريوم و (N^{15}) ان مركبات نسيج الجسم الحيواني في حالة دائمية من التبادل مع مركبات الغذاء الممتص لا كما كان يعتقد سابقا من ان وظيفة مكونات الغذاء تقتصر على اصلاح واستبدال ما تلف من مركبات الجسم وعلى تجهيز الجسم بالطاقة . فعند اطعام شحوم معلمة بالدوتيريوم وجد ان القسم الاكبر من الدوتيريوم دخل في تركيب شحوم الجسم رغم ان الحيوان كان يحرق كمية كبيرة من الشحوم مما يدل على ان معظم الشحم المعلم لم يستعمل للاحراق والحصول على الطاقة بل احرق الجسم لهذا الغرض الشحم الموجود في الانسجة . وهذا يثبت ان الاعتقاد القديم القائل بأن الغذاء يستعمل معظمه للحرق بالدرجة الاولى . وما تبقى من ذلك يخزن في الجسم هو اعتقاد خاطيء . وفي ابحاث اخرى عند اطعام حامض شحمي معلم بالدوتيريوم نجد هذا النظير بعد مرور فترة من الزمن في عدد من الحوامض الشحمية مع العلم انه لم يوجد في الحوامض الشحمية ذات رابط مزدوج واحد كحامض الينوليك مما يثبت ما عرف سابقا من ان الجسم لا يستطيع تخليق هذه الحوامض . وعند اطعام احد الحوامض الامينية المعلمة بـ (N^{15}) وجد هذا النظير في جميع بروتينات الجسم مما يدل على سرعة تبادل الحوامض الامينية الموجودة في البروتينات مع الحوامض المتصة من الغذاء الى الدم وعند تقدير كمية النظير في الحوامض الامينية المختلفة المحصلة في بروتين الجسم وجد ان الحامض الاميني الذي يحوي على تركيز من (N^{15}) هو نفس الحامض الاميني الذي أعطي للحيوان . ولكن معظم الحوامض الامينية الاخرى كانت تحوي كذلك على هذا النظير ولكن بكميات اقل مما يدل على ان الحوامض الامينية تتبادل مجموعة الامين (NH_2-) فيما بينها . كان

الاعتقاد السائد ان الحوامض الامينية في بروتين الغذاء تستعمل لابدال واصلاح البروتينات المتلوفة في الانسجة وما تبقى يحرق ويطرح خارج الجسم وقد اثبتت هذه التجارب قطع هذا الاعتقاد واثبتت ان بروتين الجسم هو في حالة دائمية من التبادل مع الحوامض الامينية الممتصة الى الدم . وبمساعدة النظائر تمكن الباحثون من معرفة مصدر الكثير من المركبات الموجودة في الجسم . فعند اطعام حوامض امينية معلمة بالدوتيريوم و(N^{15}) ثبت ان مادة الكرياتين تخلق في الجسم من الحوامض الامينية الثلاثة الغلايسين والمثيونين والارجنين تتحول الى الكرياتين بينما العكس لا يحدث في الجسم .

وباستعمال نظائر الكربون تمكن الباحثون من معرفة الكثير عن طرق تحول الكربوهيدرات والشحوم في الجسم والحصول على الطاقة المفيدة من هذه المواد . والتجارب التي اجريت باستعمال نظير الحديد (Fe^{59}) اثبتت ان في الحيوان الصحيح الجسم تدخل نسبة صغيرة من هذا الحديد في تركيب الهيموغلوبين في كريات الدم الحمراء سيما في الحيوانات التي ينقص الحديد عندها وجد ان كمية أكبر من هذا النظير قد امتصت واستعملت في تركيب الهيموغلوبين اما عند فقدان كمية من الدم فان الحديد رغم شدة الحاجة اليه لا يمتص من الامعاء بل يعتمد على الحديد المخزون في الجسم ولا تزداد كمية الحديد الممتصة الا عندما تنخفض كمية الحديد المخزونة مما يدل على ان امتصاص الحديد يتوقف على كمية الحديد المخزون في الجسم أي يعتمد بصورة غير مباشرة على حاجة الجسم لهذا العنصر . ان هذه التجارب تدل كذلك على ان الحديد يختلف عن غيره من العناصر بأن الموجود منه في الجسم يستعمل مرة بعد اخرى ولذا في الاحوال الاعتيادية يكون امتصاص هذا العنصر قليلا لقلة الحاجة اليه . اثبتت التجارب ان حديد الهيموغلوبين في كريات الدم الحمراء ثابت لا يتبادل مع حديد بلازما الدم ويستفاد من هذه الخاصية في تقدير عدد الكريات الحمراء الكلي وفي تعيين كمية الدم في الجسم . اذ عند زرق كمية معلومة من كريات الدم الحمراء المعلمة بنظير الحديد (Fe^{59}) في الدورة الدموية للحيوان وقياس درجة تخفيف النظير بعد ان تختلط الكريات المعطاة اختلاطا تاما مع دم الحيوان يمكن احتساب حجم الدم كما يمكن حساب عدد كريات الدم في جسم الحيوان . وتوجد كذلك طريقة اخرى مضبوطة وحساسة لقياس حجم الدم في الانسان يستعمل فيها نظير الكروم (Cr^{51})

تستعمل النظائر كذلك في تقدير معدل عمر كريات الدم الحمراء . وقد وجد ان معدل عمر الكرية الحمراء هو ١٢٧ يوما . وبدون استعمال النظائر لا يمكن التوصل الى هذه المعلومات ولايجاد حل لكثير من الاسئلة التي حيرت الباحثين قبل اكتشاف واستعمال النظائر .

استعمالات النظائر المشعة في الطب

تستعمل النظائر في الطب في تشخيص وعلاج عدد من الامراض والعيوب فكلوريد الصوديوم المعلم بنظير الصوديوم المشع (Na^{24}) يستعمل في تشخيص عيوب الدورة الدموية اذ يزرق المركب في وريد الذراع ويوضع مدار كايكر بملاصقة احد القدمين ويبدأ قياس الاشعاع بعد فترة قصيرة من اعطاء النظير ويستمر قياس الاشعاع الى ان يصل حده الاعلى في مدة اقصاها ساعة . هذا يدل أن الدورة الدموية منتظمة وطبيعية ، بينما في بعض الحالات التي يجد الدم فيها صعوبة في الوصول الى القدم يرتفع قياس الاشعاع ببطء ولا يصل حده الاعلى الا بعد مدة اطول مما يدل على وجود نقص او عارض في أوعية الدم . ويمكن كشف موضع العارض بواسطة العداد ومعالجة المريض .

ويستعمل نظير الصوديوم (Na^{24}) كذلك في قياس حالة القلب بزرق كلوريد الصوديوم المعلم بهذا النظير في الوريد ثم يوضع عداد امام القلب مباشرة فعندما يدخل المركب المعلم القسم الايمن من القلب تزداد قراءة العداد ثم تنخفض حينما يتقلص القلب لدفع الدم الوريدي الى الرئتين . وبعد بضع ثوان يزداد العد مرة أخرى عند رجوع الدم الشرياني الى الجزء الايسر من القلب ويتبع ذلك هبوط ثان . وبدراسة طبيعة هذا الارتفاع والانخفاض في مقدار الاشعاعات الواصلة الى العداد يمكن الحصول على معلومات مفيدة عن فعالية جنبي القلب واكتشاف العيوب ان وجدت .

تتركز بعض العناصر في اعضاء وانسجة خاصة في الجسم ويستفاد من هذه الخاصية في حالات التشخيص والعلاج على حد سواء . فعنصر اليود يتركز في الغدة الدرقية لذا يستعمل اليود المشع في قياس فعالية هذه الغدة وقدرتها على تجميع اليود فتعطى جرعة من يوديد الصوديوم المعلم باليود المشع وتقاس سرعة تجميع الغدة الدرقية لهذا العنصر بواسطة عداد كايكر بوضعه قرب الغدة . كما يستعمل هذا النظير في علاج حالات زيادة فعالية الغدة الدرقية ، ففي هذه الحالة تعطى جرعة كبيرة نسبيا من اليود المشع الذي يتجمع في حجيرات الغدة الفعالة وبسبب تأثير اشعاعاته اتلاف بعض هذه الحجيرات وهكذا تعوض هذه الطريقة في العلاج عن ضرورة اجراء عملية جراحية . ويستعمل اليود المشع كذلك في علاج بعض انواع سرطان الغدة الدرقية . ويجب ان لا يغرب عن البال مدى الاخطار التي يسببها استعمال هذا النظير (أو غيره) للمريض فيما اذا اعطي أكثر من الجرعة المحدودة ، لذا تؤخذ الاحتياطات لمنع الاضرار .

في حالات سرطان الدماغ ليس من السهل تعين محل الورم كما أن المنطقة المصابة يصعب تميزها عن الانسجة الصحيحة ويستعمل الالبومين المعلم باليود المشع . وعند زرق هذه المادة في دم المريض تتجمع في النسيج المصاب بالدماغ ولما كان من السهل معرفة مناطق تركيز هذه المادة بقياس

اشعاعها يمكن معرفة موقع الورم قبل اجراء العملية • أن من خصائص الفسفور المشع أنه عند زرقه في الدم يتركز في نخاع العظم حيث تنتج كريات الدم الحمراء • لذا يستعمل هذه النظير في معالجة مرض (Polyoythemia Vera) الذي يتميز بزيادة عدد كريات الدم الحمراء زيادة كبيرة • فعند اعطاء جرعات من الفسفور المشع يؤثر هذا العنصر على الانسجة المنتجة للكريات الحمراء ويسبب هبوط عددها الى الحالة الطبيعية •

كان عنصر الراديوم يستعمل كمصدر لاشعة كاما التي تؤثر على الحجيرات السرطانية وتمنع تكاثرها • ولصعوبة الحصول على عنصر الراديوم لندرته فان نظير الكوبلت (Co^{60}) يستعمل الان عوضا عنه • ويحضر هذا النظير بتشعيع الكوبلت الطبيعي (Co^{59}) بالنيوترونات في المفاعل • ولسهولة انتاج هذا النظير ولكون اشعة كاما الناتجة منه ذات قوة نافذة عالية لذا فانه حل محل الراديوم في كثير من المستشفيات والمختبرات • والعيب الرئيسي للكوبلت المشع هو سرعة تحلله الاشعاعي اذ ان نصف عمره يبلغ ٥٫٣ سنة فقط • كذلك يوجد نظير مشع لعنصر السيزيوم (Cs^{137}) (له نصف عمره = ٣٠ سنة) يستعمل كبديل للراديوم ويستخلص هذا النظير من الوقود المستهلك للمفاعل النووي •

استعمالات النظائر المشعة في الصناعة

للنظائر المشعة استعمالات صناعية كثيرة في الابحاث والسيطرة منها :

١ ـ يستعمل الكاربون المشع (C^{14}) في كثير من ابحاث الصناعات البترولية حيث يمكن تتبع التفاعلات بواسطة هذا النظير كما يستعمل في ابحاث انتاج المواد العضوية بطريقة (Fischer Tropsch) حيث يمرر غاز الهايدروجين واول اوكسيد الكاربون على الحديد المسخن وينتج خليط من عدد كبير من المواد العضوية ذات الاهمية الاقتصادية •

٢ ـ من القضايا المهمة في الصناعة قضية تفهم الاحتكاك وما ينتج عنه من تآكل في أجزاء المكائن وكفاءة الدهونات المختلفة لمنع هذا التآكل • يمكن قياس درجة التآكل بتعريض المكبس للنيوترونات في المفاعل وجعله مشعا ثم يقاس مقدار الاشعاع في الدهونات بعد تحريك الماكنة لمدة معينة وهكذا يمكن معرفة درجة التآكل بطريقة بسيطة وتحت ظروف استعمال اعتيادية • وهناك تجارب اخرى مماثلة تساعد على تشخيص المناطق ذات الاحتكاك الزائد والعمل على تلافي اضرار الاحتكاك بصورة عامة •

٣ ـ في صناعة التعدين تستعمل النظائر المشعة في قياس السبائك وفي قياس توزيع المعادن المختلفة المكونة للسبيكة •

٤ ـ في انتاج الحديد في الفرن النفاخ تتعرض خامات الحديد الداخلة الى الفرن بصورة مسحوق لتيار شديد من الهواء . ولمعرفة نسبة الكمية من الخام التي تفقد كغبار مع التيار يستعمل خام الحديد المشع (المعرض للنيوترونات في المفاعل) ثم تقاس كمية الاشعاعات في الحديد الصب الناتج من الغبار .

٥ ـ يستخدم نظير الكبريت المشع (S^{35}) في تعيين نسبة الكبريت الموجود في فحم الكوك بصورة مركبات عضوية ومركبات لا عضوية . ووجود بعض هذه المركبات الكبريتية يؤثر على جودة الحديد الناتج عند استعمال فحم الكوك كوقود في هذه الصناعة .

٦ ـ تستخدم الاشعاعات لمعرفة الاخطاء التي قد تكون موجودة في الصبات المعدنية بدون اللجوء الى تخريب الصبة وذلك بوضع عنصر مشع كالراديوم في احدى جهات الصبة ولوحة فوتوغرافية في الجهة الثانية حيث تنفذ اليها الاشعاعات خلال القطعة المعدنية ومن الصورة الناتجة يمكن معرفة وجود اي خلل في القطعة المعدنية . ويمكن استعمال الكوبلت المشع او السيزيوم المشع بدل الراديوم لهذا الغرض .

٧ ـ تستعمل الاشعاعات لقياس سمك الورق او السلوفين او البلاستيك . . الخ وفي السيطرة على عملية تحديد السمك بصورة مستمرة اثناء صناعة هذه المواد وذلك بوضع مصدر اشعاع تحت الورقة وقياس الاشعاع فوقها وعند اي تغير في السمك تتغير قراءة المقياس لتغير امتصاص الاشعاعات . وبهذه الواسطة يمكن معرفة الصفيحة بصورة مستمرة اثناء الانتاج كما انه من الممكن التحكم في السمك بطرق اوتوماتيكية .

٨ ـ يمكن ضبط مستوى السائل في جهاز مقفل وذلك بوضع مصدر لاشعة كاما في جهة من الاناء المقفل وعداد في الجهة الثانية وقياس كمية الاشعاعات التي تختلف في حالة وجود سائل بين مصدر الاشعاع والعداد عن حالة وجود هواء او بخار . فعند وصول مستوى السائل الى موقع العداد يتغير العد بصورة فجائية وتستعمل اجهزة كهذه لقياس مستوى السوائل في تكرير النفط وغيره . كما يمكن بواسطة جهاز كهذا المحافظة على مستوى معين للسائل بطريقة اوتوماتيكية .

٩ ـ تستخدم النظائر المشعة ومركباتها في قياس كفاءة خلط المواد المختلفة للحصول على مزيج متجانس وقياس سرعة سيل السوائل في الانابيب وكشف وجود التسرب في الاوعية المقفلة .

استعمالات النظائر في التحليل والتحاليل الصناعية

بالاضافة الى الاستعمالات المذكورة سابقا ، تستخدم النظائر المشعة

في التحاليل المختبرية وتتميز الطرق النظائريــة في التحليل بكونهــا اكثر حساسية من الطرق الكيمياوية الاعتيادية اضافة الى امكانية تبسيط العمليات لدرجة كبيرة باستعمال هذه الطرق ويمكن تقسيم الطرق النظائرية الى ثلاث مجموعات :ـ

١ ـ تتبع المركب في محلول او مزيج اثناء العمليات الكيمياوية والفزياوية باضافة كمية معلومة من المركب المطلوب تتبعه معلمة بعنصر مشع ثم تفصل من المزيج كمية من المركب بصورة نقية باحدى الطرق وتعين القوة الاشعاعية في الوحدة الوزنية للمركب وتجري بعد هذه العمليات المطلوبة وخلال الخطوات المختلفة للعملية يمكن تتبع المركب بسهــولة وذلك بقياس الاشعاع دون اللجوء الى التحليل الكيمياوي • فعند اجراء عملية استخلاص المركب يمكن تتبع المــركب • وحساب كميتـــه في المستخلص بقياس الاشعاع الذي يتناسب مع كمية المركب •

٢ ـ التحليل بالتخفيف النظائري :ـ في هذه الطريقة تعين كمية المركب في مزيج او محلول باضافة وزن معلوم من المركب معلم بنظير مشع ومعرفة قوته الاشعاعية ثم يعقب ذلك استخلاص كمية قليلة من المركب او احد مشتقاته بصورة نقية ، ثم تقاس كمية الاشعـــاع في وزن معلوم من المركب المستخلص وبمعرفة مقدار التخفيف الذي حصل للاشعـــــاع يمكن حساب كمية المركب الاصلية الموجــودة في المحلول او المزيـــج • وتستعمل هذه الطريقة في تحليل المواد التي لا توجد طرق مضبوطة لتحليلها والتي يصعب فصلها كميا من المواد الاخرى ، اذ ان هـــذه الطريقة لا تحتاج سوى الحصول على كمية ولو ضئيلة من المادة بصورة نقية بعد اضافة المركب المعلم • يمكن لهذه الطريقة قياس كمية الماء في الجسم وعدد الكريات الحمراء في الدم وكمية الماء في السوائل خارج الحجيرات والحوامض الامينية في البروتونات ••• الخ •

٣ ـ التحليل بالتشعيع النيوتروني :

تستعمل هذه الطريقة في تعيين كميات بعض العناصر الموجودة بكمية ضئيلة جدا لا يمكن معها استعمال الطرق الكيمياوية والفيزياوية • وتتلخص العملية بان تعرض المادة المراد تحليلها الى النيوترونــات في المفاعل النووي وبهذه الواسطة تتحول النظائر الطبيعية للعنصر المراد تقديره الى نظير مشع يمكن كشفه وقياسه بقياس الاشعاعات المميزة له • وتستعمل هذه الطريقة في السبـــائك والمعـــادن لكشف وتعيين كميات قليلة جدا من معادن الحديد والنحاس والمولبدنيم في الالمنيوم وغيره من المعادن مما له اهمية صناعية كبرى في تحديد خصائص المعدن او السبيكة • كما تستعمل الطريقة في تقدير العنـــاصر المعدنيـــة في الانسجة المختلفة من الجسم وتحت حالات مختلفـــة من المرض والعلاج ••• الخ •

استعمال النظائر في ضبط قياس وحدة الطول

لغرض ضبط وحدة الطول القياسية وجعلها بمتناول الجميع فقد اقترح استعمال طول موجة الطيف الابتدائي لأحد النظائر كمقياس ثابت لا يتأثر بالعوامل الطبيعية • واختير لذلك نظير الزئبق (Hg^{198}) الذي يمكن الحصول عليه بصورة نقية جدا من تهدم الذهب المشع (Au^{198}) الذي يتحول الى النظير المذكور والذي يمكن فصله نقيا بطريقة التبخير • والمصابيح الزئبقية المصنوعة من هذا النظير لها خط طيفي اخضر حاد ذو موجة ٥٤٦٠ر٧٥٢ انكستروم (A°) •

استعمال النظائر في تقدير اعمار الصخور

لما كانت العناصر الطبيعية المشعة لها انصاف اعمار ثابتة لا تتأثر بالعوامل الطبيعية • وبما ان كل عنصر مشع يتحول في النهاية الى نظير ثابت لعنصر آخر لذا يمكن حساب المدة التي مرت على العنصر المشع منذ تكوينه بمعرفة الكمية الباقية من العنصر المشع نفسه وكمية نظير العنصر الثاني الذي تحول اليه العنصر المشع • فنظير اليورانيوم (U^{238}) يتحول في النهاية الى نظير الرصاص (Pb^{206}) بنصف عمر يساوي ٤ر٥١ بليون سنة فبتعيين كمية نظير اليورانيوم ونظير الرصاص الموجودين في الصخور يمكن تقدير عمر هذه الصخور بعملية حسابية بسيطة • واذا كانت الصخور تحوي على الرصاص الطبيعي مع اليورانيوم يجب طرح نظير الرصاص (Pb^{206}) الموجود في الرصاص الطبيعي من المقدار الكلي لهذا النظير للحصول على كمية النظير الناتج من تهدم اليورانيوم • وبنفس الطريقة يمكن حساب الاعمار بواسطة نظير الروبيديوم المشع (Rb^{87}) او نظير البوتاسيوم المشع (K^{40}) وبهذه الواسطة وجد ان اقدم الصخور على الارض قد تكونت قبل ٤ر٥ بليون سنة •

استعمال نظير الكاربون (C^{14}) في تقدير اعمار النماذج الاثرية

يحوي عنصر الكاربون الموجود في الطبيعة • سواء في الجو بصورة ثاني اوكسيد الكاربون او في الاجسام الحية بشكل مواد عضوية على كمية معينة وثابتة من النظير المشع (C^{14}) مصدرها تأثير البروتونات الناتجة من الاشعة الكونية على نيتروجين الجو حسب المعادلة :

$$ {}_7N^{14} + {}_0n^{1} \longrightarrow C^{14} + {}_1H^{1} $$

ان كمية الاشعاع في الكاربون مع ضآلتها يمكن قياسها بدقة بواسطة عدادات حساسة خاصة • وقد وجد ان مقدار هذا الاشعاع في الغرام الواحد

من الكاربون المحضر من مواد عضوية كالاخشاب من مناطق مختلفة من الارض ثابت لا يتغير والسبب ان جميع الاحياء هي في حالة توازن مع ثاني اوكسيد الكاربون الموجود في الجو . ولكن حال موت الكائن الحي يفقد الجسم اتصاله بثاني اوكسيد الكاربون الموجود في الجو . ونتيجة لذلك تبدأ كمية الكاربون المشع بالنقص تدريجيا . وبقياس كمية الاشعاع من الكاربون الموجـود في النموذج الاثري يمكن حساب المدة بين موت الكائن الحي والوقت الحاضر ، علما بان نصف عمر الكاربون المشع (C^{14}) يبلغ (٥٦٠٠ سنـة) . ويمكن حساب اعمار المواد الكاربونية التي قطعت اتصالها بالجو قبل مدة ١٠٠٠ الى ـ ٥٠ الف سنة . ان هذه الطريقة تستعمل الان في تقدير اعمار نماذج اثرية كقطع خشبية او اوراق كتابية في عمليات التنقيب .

استعمال التريديوم ($_1H^3$) في قياس الاعمار :

كما هي الحال في الكاربون ، يحوي عنصر الهيدروجين الطبيعي على كميات ضئيلة من هذا العنصر المشع (له نصـف عمر = ١٢٫٣ سنـة) ومصدره الرئيسي هو التفاعل النووي بين النيوترونات السريعة الناتجة من الاشعة الكونية ونيتروجين الجو حسب التفاعل :

$$_7N^{14} + n^1 \longrightarrow C^{12} + {_1H^3}$$

يمكن قياس اعمار المواد الحاوية على الهيدروجين ذات العمر الذي لا يزيد على ٣٠ سنة بقياس كمية التالدوتيريوم فيها .

استعمالات اخرى :

بالاضافة الى ما سبق ذكره توجد كثير من الاستعمالات الاخرى للنظائر واشعاعاتها . فمثلا تستعمل النظائر المشعة في الاجهزة المضيئة في الظلام كارقام عقارب الساعة .. الخ . كما تستعمل قابلية التأين الذي تحدثه العناصر المشعة في الجو المحيط لازالة الكهربائية الاستاتيكية الموجودة من جو المعامل حيث يوجد خطر الحريق والانفجار كمعامل النسيج والـورق والبلاستيك . وتستعمل الاشعاعات النوويـة في تعجيل بعض التفـاعلات الكيمياوية وتحسين الانتاج ، خاصة في صناعات البلاستك .

كما كانت اشعاعات كاما قاتلـة للبكتيريا ومخربة للانزيمـات التي تسبب تلف الاغذية لذا يمكن استعمال هذه الاشعاعـات في حفظ المأكولات كاللحوم والخضر او الادوية التي تتلف بطرق التعقيم بالحرارة كبعض المواد المضادة للحياة . ومما يجدر ذكره في هذا المجال هو ان القيمة الغذائية للاطعمة المعقمة بأشعة كاما لا تختلف عن القيمة الغذائية في الاطعمة الطازجة .

الغناء العربي في البوادي والأرياف

عباس العزاوي

الغناء قديم لا يدرك أوله وقد رافق الشعر في حياته ، وتطور بأطواره وكان غير منفك عنه فهو سابق للاوزان والتلاحين ويدرك بالذوق فهو كالشعر في تفاعيله وأوزانه ، وانه قبل الخليل ابن احمد وتقاطيعه . انتشر الغناء كثيرا وكان معروفا في زمن الجاهلية ، فهو عريق في القدم .

وفي كتاب الملاهي(١) وأسمائها تأليف أبي طالب المفضل بن سلمة الضبي النحوي اللغوي المتوفى ببغداد سنة ٢٩٠هـ — ٩٠٢م . توضيح لما كان عليه في جاهليته واستدل على وجوده بالشعر العربي بنصوص قطعية ، فكان من خير ما وصل الينا في موضوعه .

ولما لم يدرك بدء تاريخ الشعر فلا يعرف بالتحقيق تاريخ الغناء عند العرب وتاريخ الشعر متصل بالغناء لا ينفك عنه . وليس من السهل معرفة اوائل الشعر . واذا خمنا أنها في الاصل الهوسات فلا نقطع بتاريخها كما لم ندرك أول الغناء بها ، فهو متوغل في القدم كقدم الامة العربية . وساقت اليه حياة البادية ، ولا مجال لمعرفة أطواره للتوسع فيه وانما يبقى ما هو الافضل منه ، فهو الانتقاء ، وان الغناء تابع له يتنوع بتنوعه ويتطور بتطوره .

ولما تعددت أوزان الشعر تنوعت وجوه الغناء ، وهي ليست أكثر من امتداد الاصوات أو تمطيها والتلاعب بها .

وفي عهود الاسلام كان معلوما ايضا الى العهد العباسي . ومن أول الفتح الاسلامي اتصل العرب بالروم والفرس فاقتبسوا بعض التلاحين منهم وادخلوها في الموسيقى العربية فكان لهذا الاقتران محله وأثره في تحسين الموسيقى . أما في المدن فنجد الزجل في العهد العباسي قد شاعت ضروبه وأنواعــه ولم يهمل ، وتجلى في كان وكان ، والمواليا ، ونجد من نماذجه في أواخر الدولة العباسية وفي عهد المغول في شعر ابن سناء الملك حين توجه عليه النقد ومن جراه استعمال الالفاظ العامية أو اللهجات في حين أنها من

قديم الزمان لا تعرف الاعراب والعشائر محتفظة بما عندها منها الى اليوم .

وجاء ذكر الغناء في كتاب صون المنطق والكلام في معرض الذم بمناسبة تاسيس رصد مراغة والجرايات لعلمائه نقلا عن كتاب البداية والنهاية لابن كثير . قال ما نصه :

(قال الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه ـ البداية والنهاية في حوادث سنة ٦٨٧ : بعد أخذ التتار بغداد سنة (٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨م) عمل الخواجا نصير الدين الطوسي الرصد (سنة ٦٥٧ هـ) ، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة ، لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان ، وصرف لاهل دار الحديث لكل محدث نصف درهم في اليوم . ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر . ولم يكن الناس يشتغلون بها الا الآحاد في خفية ، وبدلت بغداد بعد تلاوة القرآن بالنغمات والالحان وانشاد الاشعار ، وكان وكان . وبعد سماع الاحاديث النبوية ، بدرس الفلسفة اليونانية ، والمناهج الكلامية ، والتأويلات القرمطية ، وبعد العلماء بالحكماء ، وبعد الخليفة العباسي ، بشر الولاة والاناسي . وبعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة ، وبعد الطلبة المشتغلين ، بالظلمة والعيارين ، وبعد الاشتغال بفنون العلم من التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا بالزجل والموشح ، ودوبيت ومواليا ، وما أصابهم ذلك الا ببعض ذنوبهم « وما ربك بظلام للعبيد»[٢] هذا كلام ابن كثير[٣]» .

ومن مراجعة نصوص عديدة ومصادر كثيرة نجد أن (الازجال) كانت شائعة في العهد العباسي الاول وهي غناء الارياف ، وأما غناء البوادي فهو أبسط منها كالحداء والركبانيات وكتب الصفي الحلي تاريخها في حلب ، ومصر ، والمغرب كما في العراق في كتابه (العاطل الحالي والمرخص الغالي) قال : وكانت قبله من أوائل الدولة العباسية وأقول : بل كانت من أيام الجاهلية في بوادي البلاد العربية وفي حواضرهـا ثم استعملت بعض المدن الكبيرة نغمات جديدة أدخلتها في الشعر العربي للروم والفرس وبقيت شائعة ومستمرة في ربوعنا ، وقد وصلت الينا من تلك العصور الاولى .

بدأ في اوائل الدولة العباسية تدوين الازجال . وهي موجودة في عشائر العرب ، وكان ذلك قبل الاسلام ، ودامت في سيرتها الى العهد العباسي ، فلم تكن بنت الساعة . وأولها (الهوسـات) وهي من أقدم وابسط ما كان يتغنى به .

وفي المدونات الكثيرة عندنا عرفنا امتدادها ، والمهم أنها قديمة العهد كثيرا . ومنها ما تمثل في الشعر الفصيح ، وبعضها اندثر ولا يزال البعض الآخر متداولا ومعروفا .

والغناء بهذه تابع لنبراتها وأعاريضها ، ولذا يختلف بعضها عن بعض في تقاطيعها وأوزانها ، واختلاف الاتجاه معروف ، وأسبابه معلومة من أوضاع شعره .

وهذه الغناء أصله (شعر اللهجات) أي ان أرباب اللهجات نطقوا به في شعرهم . كما شاع الحداء ، ويسمى في نجد والكويت (الشعر النبطي) ، وان الغناء تابع له ويغني به بنبراته الخاصة المنوعة . وتناولت بحوثها في (تاريخ الادب العربي في العراق) . ومنها ما كان في عهد المغول والتركمان. وكنت قلت :

(لم يدون الادب العربي للهجات من غير الفصحى ... وهذه اللهجات في البوادي والارياف كثيرة ، وآدابها تابعة لما تنطق به من لهجة . الا أن آداب البدو مشتركة تقريبا فيما عدا اللهجة في بعض الالفاظ أحيانـا . وعندنـا أكثر العشائر بدوية(٤)...) وعشائرنا تمت الى العدنانية والى القحطانية ولكل جذم آداب خاصة به .

وغناؤها في شعرها يظهر في :

١ ـ الحداء : ويسمى عند عشيرة شمرطوقه (حنيما) .

٢ ـ الهجيني .

٣ ـ الطواح .

٤ ـ القصيد .

٥ ـ الركبانيات .

وهذه الآدا بـمتصلة بغنائها فامتدت الى أيامنا الحـاضرة ، وهـذه العشائر مالت أحيانا الى الارياف فاحتفظت بما عندها من آداب وغناء . وكذا من مالوا من الجزيرة الى العراق كان هذا شأنهم . وان ادب البادية في الجزيرة هو أصل ادب البادية في العراق . ولا شك في ان التدقيق يكشف عن مدى أوسع في أدب الجزيرة العربية ، أن سكان العراق تناقلوا أغاني قديمة تمثل ما كان عندهم .

وأما شعر الارياف فاختص بعض الغناء فيهم تبعا لما اشتهر عندهم من شعر ريفي وذلك مثل :

١ ـ الندايل .

٢ ـ السويحلي .

٣ ـ العتابة .

وهذه شاعت في الانحاء الشمالية من العراق في الاكثر حيث تنـاقلوا غناءها .

وشاع في القرى الريفية والانحاء الجنوبية غناء آخر اشتهر فيها :

١ ـ الزهيري .

٢ ـ الموال (المواليا) .

٣ ـ أبو ذية .

٤ ـ اللامي .

٥ ـ الحسجة (الحسكة) .

وهذه كلها قديمة ترجع الى أوائل الدولة العباسية بل الى مـا قبـل

الاسلام ، واطردت مستمرة الى عهد المغول ، وأيامنا الحاضرة . وكانت اشتهرت في الزهيري والموال بغداد وديالى وعرف بها كثيرون منهم الاستاذ عبدالغني جميل . ولا تزال على لهجاتها . وأن الغناء تابع لما تنطق به العشيرة . أو العشائر المتماثلة أو البلد الذي عرف بلهجته . ولا ينكر أنه متبدل بالنظر للهجات والتصرف بها .

والشعر وضروبه تابعة للتجدد في عروضه وهو أنواع والغناء فيه تابع له ، فلم يكن متكررا الا عندما كان تابعا للهوسات وأمثالها ، فلما تنوع ظهرت ضروبه في البادية والارياف ، واذا كانت ضروبه متنوعة فلا يقال أنه متكرر . ونرى الشعر الفصيح ومثله البدوي لم يتبدل كل يوم ، والعروض لم يتغير ، أما الموشحات فهي جديدة في العروض وتنوع الغناء فيها .

ومن مصادر الغناء في العهد العباسي :

١ ــ كتاب الملاهي : للمفضل بن سلمة .
٢ ــ كتب الجاحظ .
٣ ــ كتب اللغة وفقه اللغة .
٤ ــ العقد الفريد .
٥ ــ أمالي القالي .
٦ ــ الكامل للمبرد .
٧ ــ أمالي السيد المرتضى .
٨ ــ الاشعار البدوية والريفية المتداولة والمنتشرة بأنواعها وضروبها .

ومن عهد المغول والتركمان جاءتنا كتب كثيرة تقر الحالة في العهد العباسي وتمضي الى هذه العهود . ومن مصادرها :

١ ــ ديوان ابن سناء الملك . وما توجه عليه من نقد .
٢ ــ النقد الموجه عليه من بشر بن جبارة في كتابه (نقد الشعر) .
٣ ــ والنقد الموجه عليه من صفي الدين الحلي في كتابه (العاطل الحالي) .
٤ ــ الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي . وفي خزانتي نسخته الوحيدة مخطوطة خزائنية قديمة . وفيه ينتصر لابن سناء الملك .
٥ ــ مقدمة ابن خلدون : تناولت الموال وكان وكان ...

وكل هذه تعين وجهات النظر وتحقق الاوضاع وأجل من كل ذلك الموجود من الشعر في البادية والارياف ، فان فيهما مادة بحث غزير لا ينضب .

وكنت أفردت مباحث خاصة في كتاب (أدب البادية والارياف) ولا تزال الازجال مستعملة بكثرة ، وأثرت في اللغة الفصحى وآدابها ، ولا يزال غناؤها مرغوبا فيه ، ومتداولا بيننا ، ومنتشرا بين ظهرانينا . وربما زاحمت الغناء الفني بالنغمات الموسيقية المتأثرة بالمجاورين ، والتابعة لتقاطيعه الخاصة ، ونغماته . في حين أن غناء البوادي والارياف يمثل العهود الاولى للغناء العربي الاصيل ، ودوامه مطرد الى أيامنا الحاضرة ويوضح ماكانت عليه

الحالة في قديم أزمانها ، ومتوالية الى عصرنا ٠
ولا أعتقد أن حالته المتكررة تصدق الا في الهوسات ٠ وليس من الصواب القول : بأن للصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ٠
والشعر الجاهلي منوع وتابع لضروبه فلا يقال أنه لا يدل على خيال واسع وأنه لا تكرر فيه القصائد في تشابهها واستعاراتها أو أنه في قلة من الابتكار ، وفي غير تنوع ، وفي موضوعات محدودة ضيقة ، تمثل حياة الصحراء ، أو هي صورة صادقة لعيشة البداوة ٠ ومثل هذا القول قد يصدق على من كانت حياته مطردة على وتيرة واحدة مثل الزراع ٠ والبدو ليسوا كذلك فهم في حياة متحولة ، فلا يقال ان غناءهم ساذجا وفطريا بسيطا ٠ والحال أنه تابع لتطور الشعر عندهم وتجدده ٠ والغناء تابع له قطعا ٠
ولعل هذا الاستنتاج تابع لما يرى فيهم من شظف عيش وضيق حياة في البادية كما يبدو بنظرة سريعة وساذجة ٠ فالبدو لم يكونوا بوضع واحد، وانما هم في تبدل مستمر وهم أيضا في حل ومرتحل دائما ٠ وهم في أرجاء مختلفة ٠ وان شعرهم لم يكن الهوسات وتقاطيعها ، والتغني بها ٠ وانما كانت له عروض وقواف متنوعة الضروب ٠ توالى اختراعها في أزمان مختلفة متباعدة ومتطاولة دونها الخليل بن احمد ٠ واننا نرى الغناء تابعا لتلك التنوعات ٠ ولم يكن متكررا على نغمة واحدة ٠ وهذا محل الخطأ ٠ فاذا صدق القول على الهوسات التي هي عبارة عن تبرات متحرك فساكن ثماني مرات فلا يصدق على الاشعار الاخرى التابعة لضروب العروض من أوتاد وأسباب٠
هذا ٠ ولم يكن العروض الا من متولدات البداوة ، فلم تكن بسيطة بوجه ٠ وان شعر المدن التفت العرب فيه الى ضبط الحانه ونغماته في موسيقاه ٠ ولم يزيدوا عليه ، وكذا مددوا الاصوات في تلك الالحان المدخلة من الروم والفرس ، فظهرت النغمات المتفاوتة ٠
« ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم ٠ فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا ٠٠٠ ولم يكن ٠٠٠ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر ٠٠٠ فلما صاروا الى نضارة العيش ٠٠٠ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم ، وظهر بالمدينة (نشيط الفارسي) ، و (طويس) ، و (سائب خاثر) مولى عبيدالله بن جعفر ٠ فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه ، وطار لهم ذكر ٠ ثم أخذ عنهم (معبد) وطبقته ، و(ابن سريج) وأنظاره ٠ وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى أن كملت أيام بني العباس عند (ابراهيم بن المهدي) ، و (ابراهيم الموصلي) ، و (ابنه اسحاق) ، و(ابنه حماد)[٥] ٠٠٠ »٠
ومن هذا ٠ ان الاتصال بحضارات الامم مما سهل (التدرج) في الغناء ولم يبدل بغيره وبقي غناء البادية على حاله حتى اليوم ٠

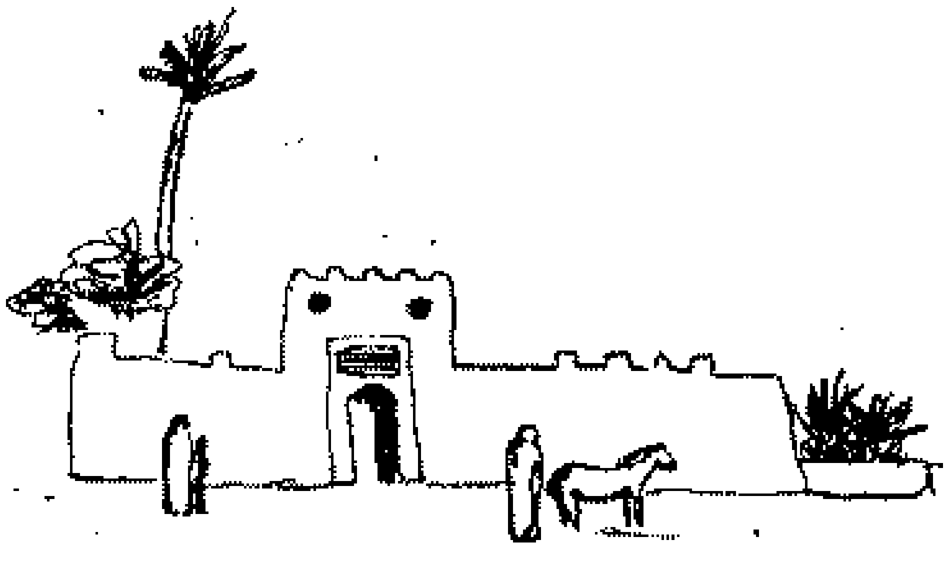
(١) نشرته ملحقا بكتابي الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان والمطبوع ببغداد سنة ١٩٥١م ص٧٣ ـ ٨٩ وتفصيل ترجمة المؤلف في مقدمة كتابه الفاخر نشره الاستاذ عبد العليم الطحاوي وراجعه الاستاذ محمد علي النجار طبع سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م نشرته وزارة الارشاد والثقافة العامة في الجمهورية العربية المتحدة وسمي هذا الكتاب (كتاب العود والملاهي) عند ذكر مؤلفاته ٠

(٢) سورة فصلت /٤٦ ٠

(٣) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام تاليف الشيخ الامام جلال الدين السيوطي المتوفي ٩ جمادي الاولى سنة ٩١١هـ ـ ١٥٠٦م من منشورات مكتبة الخانجي بمصر وطبع بمطبعة السعادة ص١٣ و١٤ ونقل المؤلف هذا النص عن مخطوطة كتاب البداية والنهاية من حوادث سنة ٦٨٧هـ ولم يرد هذا النص في المطبوع منه ٠

(٤) تاريخ الادب العربي في العراق طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦١ ج١ ص٣٢٩ و٣٣٠ ٠

(٥) تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ج١ ص٣٥٧ ٠ طبعة بولاق ٠



جاهد صدقي

المتشائم الذي عشق الظلام وتغنى بالموت
١٩١٠ ـ ١٩٥٦

وحيد الدين بهاء الدين

توطئـــة :

بعد أن وضعت الحرب الكونية الاولى أوزارها ، وانزاح عن صدر العالم السادر .. الخائر كابوس الانحلال السياسي والاقتصادي ، ووطأة التدهور الاجتماعي والثقافي ، تمخضت الثورة « الكمالية » بتركيا عن انبثاق العهـد الجمهوري ، المشيد على أنقاض الامبراطورية التي طواها النسيان .

وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الثورة التي نسفت قلاع الطغيان والرجعية والاستعمار ، وركزت دعائم الحرية والعدل والمساواة ، تأثير عميق الغور في كيان الحياة الادبية ، المشبعة بكوثر من تقاليد باليـة ، وأفـكار تقليدية . فاستبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية استبدالا خلق معه ضجة مستديمة تردد صداها في داخل البلاد وخارجها . وكان لهـذا الاستبدال مشايعوه ومناهضوه ..

بزغ الادب الجمهوري ، يعلن انقلابا خطيرا في النهج والغاية .. في الطريقة والاداء .. في الشكل والمضمون .

فقد باتت لغة الكلام بالذات ، هي اللغة المستعملة في جميع أشـكال الكتابة وضروب المعاملات .. ان هـذه الطريقة سـهلة ، ميسـورة لها خصائصها المميزة ، تكسب اللغة التركية الحديثة مرونة وقوة ، وتسبغ طابع البساطة والاصالة ـ وهما من عناصر الفن ـ على النتاج الادبي ، وتبعده عن شوائب التصنع والتعمية .

وتلألأت تباشـير نهضة شعرية جديدة ، تحتل عبر السنين مقامها الذي تهيأ له ، متطورة ، متوسعة على ايدي شعراء نابهين ، انبروا في الميدان لاول وهلة ، وحازوا تقدير المدرسة النقدية ، وقد وعوا جوهر الاشياء ، وأحاطوا بطبيعة الفن الذي ينبغي الالتزام به من غـير تنـكر لـه ، بحكم تأثرهم العميق بالموجات الادبية الزاحفة من ديار الغرب ، بغية استكمال مقومات نضجها ، ومشخصات ازدهارها ، حتى بلغت شأوها وأوجها ، حين

طلعت حركة « الشعر الحر » تكشف عن نفسها ، وتنشر بذورها في كل تربة .. ولعل أحمد هاشم ١٨٨٥ ـ ١٩٣٣ أول من أقام ارهاصات هذا المذهب الجديد ، مرسياً قواعد الشعر التركي المعاصر .. وأتى من بعده ناظم حكمت ١٩٠١ ـ ١٩٦٢ كامتداد له .

وأخيرا تقيضت لنهضة الشعر ، أسباب الاستقلال الذاتي ، له معالمه وملامحه .. فكان ثمة أدب شعبي حي يلتصق موضوعيا بالنفوس المستغرقة في المشكلات الفردية ، والاحداث الحياتية ، وأدب اقليمي بحت يستوحي الانواع الادبية من واقعية الحياة التركية ، وصميم تراثها القومي ومفارقات الظروف والحالات الدائرة ، ويستلهم الانسان ومطامحه وآماله وأفكاره ، ويصور المشاعر الوطنية والبطولات الخالدة ، ويعبر عن الخلجات الوجدانية والعواطف البشرية ، حيث توافرت هاته العناصر في آثار الشعراء : اورخان ولي ١٩١٤ وجيجون عطوف ١٩١٩ وأحمد مهيب ١٩١٩ وبدري رحمي ١٩١١ ومليح جودت ١٩١٥ وبهجت نجا ينسكيل ١٩١٦ وفاضل حسني ١٩١٤ وأوكتاي رفعت ١٩١٤ ، وعساف جالت ١٩٠٧ وجاهد صدقي ١٩١٠ ـ ١٩٥٦ ومن اليهم .

ورغم أن هؤلاء الشعراء تشبعوا بروح التجديد ، وامنوا بالتطور كقاعدة أساسية للانطلاق نحو الافاق الرحبة المشحونة بطاقات الاغراء ، منساقين بفعل التيار العنيف ، مشيحين عن الاصول القديمة ، والخروج على قواعد الوزن والقافية ، فان بعضا منهم شذ عن هذا النسج وتطبيقاته العملية ، ولاسيما ما يخص الحفاظ على العمود الشعري الموروث ، والاحتذاء بالانماط الشعرية المألوفة كـ « الغزل والقصيدة » .. وكان يحيى كمال ١٨٤٨ ـ ١٩٥٨ هو الشاعر الاوحد الذي ظل ممثلا لطريقة « العروض » ، متشبثا بها ، مدافعا عنها باستماتة .. ولكن صولة الجديد الشديدة اكتسحتها وتركتها تتخاذل متوارية عن الانظار رويدا رويدا .

حيـاته :

جاهد صدقي أحد قادة الشعر التركي الحديث .. رفع راية التجديد بعد اعلان الثورة الجامحة على الاساليب التقليدية في القرض ، والعائقة لتحرره المنشود ، غير أنه كان يتعصب للقافية الى حد كبير ، ويعيرها الاهتمام الخاص .

بـ « ديار بكر » ولد جاهد صدقي ، وهناك درس بداية الامر ثم قصد الى اسطنبول ، لينتقل في عدد من مدارسها المختلفة ، الى أن استقر به التطواف بثانوية « غلطة سراي » ، ومن هنا ظهرت بنفسه نزعة الادب الطاغية مستشعرا الغرام بروائعه ، والانجذاب الى فنونه .. فأمعن في استيعاب نامق كمال ١٨٤٠ ـ ١٨٨٨ وتوفيق فكرت ١٨٦٧ ـ ١٩١٥ وأحمد هاشم ومحمد أمين ١٨٦٩ ـ ١٩٤٤ وأوغل في قراءة الشعر الفرنسي

المنحور ولاسيما شعر بودلير ١٨٢١ – ١٨٦٧ وفيرلين ١٨٤٤ – ١٨٩٤ وقد تأثر بهما الى أبعد مدى ، متشوقا الى عوالم متراميه .. شاملة ..

هذا كله حضه على أن يراسل شقيقته بـ « ديار بكر » مراسلة أدبية متصلة ، أوضحت كيفية وروده منـــابع الثقافة والفنون ، وعكوفه بنهــم مقيم على هذه الدنيا المائجة التي كلها جمال وطيبة وانطلاق ، ثم حاجته الماسة الى تصوير ما يتشابك بداخل كيانه والتعبير عن أحاسيسه وخطراته، حتى قادته الحماسة الادبية المستبدة به الى الاسراع في نشر ما جادت به قريحتـــه الغـــزيرة في الصحف كـ « جمهوريت » و « كولتور هفته سي » و « محيط » و « ثروت فنون » ..

وحين توسمت فيه هيئة تحرير جريدة « حريت » ملكة حرية بالصقل والرعاية ، بعثته على نفقتها الخاصة الى فرنسا ، بغية متابعة تحصيله العالي، وايغالا في ابراز مواهبه واستثمارها .

فانساب عبر الانوار والظلال ، حائما حول سحرها وفتنتها كالباحث اليقظ عن شيء مفتقد ، مقبلا بلهف على ينبوع الحياة الثر الذي ينقع الغلة ، ويملأ العين .. تجلت مظاهر استغراقه في عالم الادب الجديد المشع العطر في ترجمته بعض الاقاصيص الرومانتكية والاشعار الرمزية لبودلير وبول فيرلين وسوبرفيـــل وبيير عمانوئيل وابولسين آبري ورونسار ١٥٢٤/١٩٦٠ وميشلون ١٤١٣/١٥٠٠ وابو ليناير ١٨٨٠/١٩١٨ وا للارمة ١٨٤٢/١٨٩٨ وجوار لافورگيو ١٨٦٠/١٨٨٦ والفرد دي موسيه ١٨١٠/١٨٥٧ وريمباو ١٨٥٤/١٨٩١ .

ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية وتماديها في اشاعة الرعب والقلق في النفوس الآمنة ، واحتلال الالمان باريس ، قسر حامد وزملاءه على هجـــر فرنسا تورعا عمـــا قد يلحقهم من نكبــات توردهم موارد الحتف والوبال .

عاد والفكر منه مشوش ، والاسى يخرس لسانه .

وعلى اثره اضطر ان ينتظم في سلك التعليم كمدرس بالمدارس المتوسطات ، الى أن عين مترجما بوزارة « العمل » .

وشاء القدر ان يباغته بما لا يخطر له ببال ..

أصيب بالشلل العام ، دام سنتين ، فكانت طعنة نجلاء مزقت فؤاده اربا ، وضربة قاصمة هشمت عقله تذارا .. ولم يجد تداو موصول نفعا . ولم ينله ارساله الى فيينا شفاء ..

فاخترمته المنية المحتومة في خريف سنة ١٩٥٦ . وهو يودع السادسة والاربعين الوداع الابدي ..

والمنية خاتمة كل امرىء .. فما العمل .. ؟!

رقدة .. ليست بعدها استفاقة ..

ومن يعرفه اين ؟! كيف ؟ كم العمر .. ؟!

ويقول في مقطوعة « المائدة المتفرقة » .. وحسب القارىء أن يتأمل ما بها من شجو طاغ ، واذعان تام :

مات !
لم تهب النسمات الى الداخل ؟
ولم ينطلق من النافذة عصفور ..
مات !
لم ير احد الملائكة ..
لا تسل كيف ولى الذاهب دون نبأ .. ؟
يقولون : انه خرج الى رحلة طويلة ..
هل ثمة من شاهد « السفينة » ؟
اين الخضم !؟
رحلت .. فاضحت مائدتنا نثارا ..
وقد تفرقت ..
ان حالنا تستعيد ذكرى ليوم « الوليد » ..

كانت حياة جاهد سلسلة موصولة الحلقات من المآسي والخطوب التي تعاورت عليه ، وهي تخضد شوكته ، وتفل ارادته ، فقد استسلم للنكسات النفسية ، متخاذلا في مغالبتها وازاحتها ، واصطلحت عبر الايام مسببات الاسقام على كيانه الهزيل دون أن تدعه يفلت من قبضة الموت الزؤام ، واحاطت به الظروف العصيبة القاسية ، وعاكسته جورا من غير ان تتيح له فرص الوصول الى ما اشتهاه وهتف له من كل جوارحه ، واضناه حب صارم مستحكم حتى جعله يحس بهجران روعة الشباب عنه ، وهو لما يزل في ذروته الوضاءة المشرقة .

ثم لحقته خيبة مذمومة في ايقاف صروف الزمن عليه عند حده ، ومحاولة التوفيق بين هذا الحد وبين مزاجه ومطامحه .. انعكس هذا كله على نتاجه الادبي انعكاسا شاملا عميقا ، وصبغه بلون كثيف خاص ، هو السواد بقضه وقضيضه ، والقى عليه ظلال التشاؤم والكآبة والتساؤل ، صانعا من صاحبه شكاكا ، محترسا ، حائرا تهمزه الانفعالات والهواجس .

انها الحيرة والاحساس بوفرها .. الحيرة الملتطمة بالخليطة بالاستفهام . تسوق جاهد الى مجاهل الحياة النائية ، مطلعا ، متبهرا .. ولكن هل ينتشله من هوة حيرته ، سكونه الى البحر ولياذه به !؟ البحر رمز الابدية .. البحر بموجه المصطخب وزبده الطافي ..

قل لي الحقيقة .. ايها البحر .. ؟
ان لك قصدا ولا ريب ..
من الارتطام بالساحل صيفا وشتاء .. ؟
ما الذي اخذته ولم ترده ؟

من هذا التراب الجميل المراح ..
فداء ذهبنا في سبيله ..
وعبر النيران مضينا ..
ترادفت سنون .. وادركت عصور ..
أما ينقص ما يطويه صداك من سر ؟!
ايها البحر ، ما تروم أن تقول ..
تخل عن حديث ، يجلله الابهام ..
ارفع عن فمك القيد ..
لتسعد حظوظنا .. لبنات النهار ..
لتعم السعادة بين الخلائق ..
حسبنا ما عليه حالنا ..

تفكر جاهد بالموت وتغنى بالظلام ، وتحسس بالتشاؤم ، وترنم بالحب واستغرق بالاحلام التي تزيد الموت هيبة ، والظلام جلالا ، والتشاؤم عمقا ، والحب اتقادا ، وهو يفتقد بصيص الرجاء عبر الظلمات الحالكات ، المرخية الستائر ، المطبقة على الوجود الزمني :

لم تف السماوات الزرق بما وعدت ..؟!
تسود الدنيا ، كلما تمادى الموت ..
نسيم المساء ، ينطق بالعدم ..
ان الموت يزرع الندم في ذاتي ..

* * *

ما الحيلة لا تشرق الشمس كما أهوى ..
الموت كالماء المنساب ، كما أدرك ..
والى اية نافذة أحث الخطى ليلا ، ؟
لا يتحرر هذا الكيان من سطوة الموت ..

* * *

لا خير في ماض ناكر للجميل ..
وليس المستقبل بساع الى العون ..
منذ قليل اغرقت المياه هيكل « السفينة »
ايها الموت ، منذ مدة ، معقودة عليك الآمال ..

على أن التعليل النفسي لهذه الظاهرة يشف عن مبلغ تعلق جاهد بأذيال الحياة ، وجنوحه الى نشدان شهواتها ، وغلوه في الايمان بجمالها ، وبالتالي قعوده ـ رغما عن ارادته ـ عن تحقيق ما يصبو اليه . ولا يمكن أن يسلط الضوء الكشاف على هذه الحقيقة الواقعة ، ويجسدها الا قوله : « ان العيش هو شيء تعودنا عليه » . فأي تبرير لهذا كله غير ما يقول :

على تطاول الزمن ، كيف يتغير الانسان ؟
في اية صورة حدقت ، لم تكن أنا ؟
أين تلكم الايام ؛ ذلك الشوق ، ذاك الاندفاع ٠٠؟
لست أنا ، هذا الرجل الصبوح المحيا ؟
كذب كوني غير بائس ٠٠ كذب ٠٠

* * *

عبر الخيال يرتعش حائرا حبنا الاول ٠٠
بات علي غريبا حتى تذكره ٠٠
والأحياء الذين استهللت واياهم موكب الحياة ٠
افترقت بهم السبل ، واحدا اثر اخر ٠٠
كلما توازدت الايام ، أمعنت وحدتنا حدة

* * *

هل لأديم السماء لون آخر ٠٠
كنت متريثا في ادراك صلابة الصخر ٠٠
ان الماء يستغرق المرء ، والجذوة ترمضه ٠
عارف من يبلغ هذا البحر ٠٠
ان كل يوم متشح بغم وكآبة ٠٠

وما كانت نظرته السوداء المرددة الى الحياة ، وتطيره مما يكتنف ذاتيته ، واصراره على معرفة بعض الحقائق المجردة عن طريقهما ، الا تأكيدا واعترافا بهذا التأكيد على المصير المنطقي الحتمي الذي ينتظر الناس ٠٠ والذي له دلالته النفسية ومغزاه الطبيعي ٠

وكان هذا تشاؤما ايجابيا ، بلورته عنده طبيعة التفكر الذاتي ، والنفوذ من خلاله الى معضلات الوجود والحياة ، وموقف الانسان الحديث منهما ، وكيفية صيرورته الى الفناء ٠٠ افضى به ذلك التفكير العميق الى ما شاء ان يسترسل في التعبير بأسلوب طريف هادىء في دواوينه الثلاثة : « عمري في صمت » ١٩٣٢ ، و « العمر الخامس والثلاثون » ١٩٤٦ وقد فاز به بجائزة حزب « الشعب » وسما بة مقامه الشعري ، و « أجمل من الحلم » ١٩٥٣ ، حتى محا علامات الاستفهام والحيرة التي بقيت تطوف على ثغره ، وامارات القلق الروحي ، والتبلبل العقلي تعذبه بلا هوادة :

ايه ايها الموت ٠٠ شعاعك انفذ من الشمس ٠٠!
يا من لا ينضب معين سكونك ٠٠
وهذا السحاب المعلق تحتك ٠٠
الك ما انتظره من البشرى ٠٠

* * *

ان الدخان ، على المرآة ، هو الليل ..
ينطوي هذا الفؤاد البريء على الجمرات ..
« تسابيح » الصبر أوشكت أن تتناثر ..
اي يوم يتمزق حجاب الموت ..

* * *

لا يعود اليوم ، ولا الوجود ، الى أهله ..
الحجز .. التراب .. الزهر .. الماء او المعدن ..
خرافة ما تزعمه الاساطير من خلود الروح ..؟
فأين الخلود ايها الموت ..؟!

ومن أجل أن يدعم فكرته القائمة ، ويستشف ما استغلق عليه تفهمه ، يعود ملتفعا برداء الطمأنينة ، وكأنه بلغ الشاطىء المنشود .. يقول في مقطوعة « الميت » :

تلاشى في ذلك اليوم :
وقد استطال على امتداده ،
بات قربانا لارض لم يرقد عليها ، حيث كان معافى ..
هل هبت ريح ، وتهطل مطر .. لا علم له ..
من جراء شجرة شوهاء تخللتها الرعونة ..
عبث هو الانصات اليه ..
لا يطرق باب بيت غير مأهول ..

ثم يقول في مقطوعة « المقابر » :

ومقابل المدنية الغارقة بالمسرات ،
يغمر المقابر المغطاة بالسرو ، صموت ،
يسكت ، ويذكر هذا الانكسار ،
ما يعكس على المرآة من كآبة التباريح ..

* * *

هذا مصيركم .. انتم غافلون ، لا علم لكم ..
لو أدركتم ما ينتظركم أيها الناس ..
من أجل أن تتفتح هذه الزهور ذات يوم ؛
يزدهر سكون الموتى ..

ومع تأكيد جاهد على هذه الفكرة التي عادت الصفة الغالبة في حياته الشخصية والادبية ، ومحاولته معالجتها قدر ما أوتي من موهبة خصبة ، كان الاتجاه الانساني أبين خصائص نتاجه الشعري والقصصي .. تدعوه الى ذلك كله عقدة تشاؤمية ، انطوائية مركزة في اعماقه ، ملكت عيه أسباب عقله وقلبه ، وهو يذوق مرارتها وينوء تحت عبئها ..

أحب جاهد الانسان واهتم بعلائقه بأخيه الانسان ، وطرق مطامحه وأمانيه ، ومناكفات حياته ، وناداه بالصفح عن أعدائه قدر الاستطاعة ، فان فعل ذلك فانما تتبدد غشاوات الظلام والغربة واليأس .. اذ أنزل هذا الانسان من نفسه منزلة تقديس واجلال .

ويروى انه عندما لقي رجلا فقيرا ، يبث الانين والحرقة ، ويغالب الحرمان والشظف ، كان مرآه مؤثرا ، يطحن القلب ، كالرحى ، فاستخلص نتائج قيمة من طبيعة هذه الحياة القاهرة .. التي تتداخل شؤونها الى درجة الحيرة .. على أن اسعد شيء لدى جاهد : « أن يمسك بتلابيب الانسان ، ويسأله ما يعنيه » . حيث يقول : ان مذهبه في الحياة يقضي بأن يكون النهوض بالانسان هو ما تنصب عليه رسالة الفنان .. كذلك يقول مامعناه : ان الشيء الذي ينتظر ان يفعله ابن الانسان الحق ، هو ما يجب أن ينتظر من الشعر هو الاخر . .هذا دستوره وقد طبقه في نطاق قدرته دون مخالفة .

ثمة قصصه « عباس » و « خادم الفندق » و « ماورمانيس افندي » هذه التي انطوت على اللفتات الانسانية الخيرة ، والافكار المضيئة في تصوير احداث المجتمع وقضايا أفراده العديدين ، الذين تتنازعهم شتى المشاعر والميول .. غيرأن هاتيك القصص لم تدع النقاد الى التفاؤل بمستقبل جاهد القصصي ، فانهم لاحظوا عليها افتقارها الى عناصر الاستواء والتكامل ، وانعدامها من عوامل الاثارة والحركة ، وهي شروط فنية ينبغي توافرها بغية نقل القارىء الى اجوائها الملائمة . على ان رأي النقاد كان سديدا مصيبا في قصصه ، بدلالة ان جاهد حين كتب فيما بعد بعض القصص الاخرى ، كشف عن عجزه من الوجهة الفنية ، وربما كان العجز مرده الى ضآلة المعاناة ، وضعف التجربة ، او الاعراض او اللامبالاة او اى شيء اخر ، حتى ذهب بعضهم يقول : « ان جاهد تمكن ان يقول كلماته الاخيرة في فن الشعر ، بيد انه لم يستطع أن يقول مثلها في فن القصة » .

والظاهر انه كان يهمه أن يصير شاعرا .. شاعرا شهيرا ، قبل أن يصير شيئا اخر ..

* * *

غالى جاهد في نظراته الانسانية الى درجة أخرجتها عن طورها الطبيعي المألوف .. دعا الى المستحيل .. ونحن في عصر تتصدى أغيضان المدنية المادية الفارقة في التعقيدات العجيبة الاخذة بالانفجار الهائل المخيف .. دعا الى العالم المثالي الخالص من صنوف الآلام والمشقات ، وألوان الاحقاد والمطامع التي لا تعرف عن الانسان فكاكا ، ولا تتخلى عن ملازمته كالظل ، مادامت تستوعبه هذه البسيطة ... الانسان الذي تتأرجح حياته اطلاقا بين الاستقرار والاضطراب .. بين التقدم والتقهقر .. بين الحلاوة والمرارة .. بين الخير والشر .. بين الصلاح الطلاح .. بين البقاء والفناء ..

ان الخيال الطائر الذي يسمو بالشاعر للتحليق في الاجواء الوسيعة الخالية من سدود وحدود ، والانسياق خلف امنيات تتبخر ، لهو التهرب المفضوح من ظلام الواقع ودروبه الكثيرة الملتوية ، الى دنيا لا يمكن ان تقوم لها قائمة .

ولعل هذه الدعوة هي النتيجة الحتمية لما عاناه جاهد بمسرحياته التي اتسمت بافجع ما تتسم به من بؤس وفراغ وألم وضياع .. ومن يحاول حمل هذه الدعوة على غير محملها الطبيعي ، يفسر محتواها خاطئا غير موضوعي ، فهو بلاشك عبد الوهم السحيق والخطل الكبير . ان تفسيرا كهذا ينطوي على مجانفة بعيدة ، واساءة بليغة ، وليس من الجائز في شيء ان يلام عليها جاهد مادام تحقيق مثل هذا العالم المثالي خرافة ما بعدها خرافة .

ثم ان جاهدا لم يأت بجديد .. وانما هناك الكثيرون تتحدث صفحات التاريخ على تقادم ازمنته ، عن دعوتهم الى اقامة مثل هذا العالم السامي المتسامي ... الكامل المتكامل(١) وتخيلهم له على النحو الذي ظنوه ملائما كل الملائمة لطبيعة الحياة الانسانية .

اسمعه يقول في مقطوعته « الارض المنشودة » :

انشد ارضا ..
توشحها سماء لازوردية .. أفنان خضر .. حقول صفر ..
تمسي ملاذا للاطيار والاوراد ..
انشد ارضا ؛
ما بها توجع في الهامات ، وتحسر في الافئدة ..
وتصبح خاتمة لسجال الاخوة .
انشد ارضا ؛
تكون فيها الحياة من صميم الفؤاد ، كما لو كان محبا ..
ولئن انبرت هناك شكاة ؛
فلتكن من الموت ذاته ..

❀
❀

(١) منهم : افلاطون والفارابي وتوماس مور وغيرهم .

رضوى

عبد الصاحب ياسين

عزائي أني حيثما كنت أخطر ... كما سار يقفو باهر اللمح مصحر
أشم من الانسام ما تنشقينه ... وأنفث منها في الفضاء فيعطر
وأنفح ازهار الرياض بطيبها ... فتزكو على مر الفصول وتنضر
وأقبس من لألاء خطوك شعلة ... أنير بها دربي .. فلا أتعثر
« هيام » وما أسماك في القلب والنهى ... وفي الشعر اذ يروى ، وفي النثر يؤثر
بدأت تحايا الحب سمحاء برة ... فعانقني طيف من الخلد أخضر
وفاض الحنان المحض ينعش متعبا ... طوى في الهوى أيامه السود يصهر
ترى أهو الحب الذي هدني أسى ... أتاني عما قد جناه يكفر ؟!
ويمحق أصباحا دجت وأماسيا ... سلفن وكان الموت فيهن يجأر
فدناك صبايا غاب لمع جمالها ... ونعماه طرف خاطف اللحظ أزور
ودل على مستنفد الصبر تاعس ... كما ديس ظلما هالك وهو يقبر
« هيام » أرى دنياي زهراء .. لم تكن ... لها قبل مرأى مثل هذا ومخبر
منحت حياتي لطف دنياك كله ... فصرت الى دنيا برياك تغمر
وحدت بما أدناه يرجوه واله ... بأنفس ما يقوى عليه ويعسر
فبوركت من خلق أبر وبوركت ... حياة بها روح كروحك يعبر

الدلالة الصوتية في التعبير الشعري

وصلتها بالتجربة الشعورية

احمد نصيف الجنابي

« مستميلي سمع الطروب المعنى
عـن اغاني مخارق وعقيـد »

البحتري

يعرف « ابن جني »(١) اللغة بانها مجموعة من الاصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . فالـكلمات أصوات ... ولـكنك لا تستطيع أن تفهم من يريد أن يفضي اليك بشيء دون أن يفصح عما يريد « فالصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقـوم التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظـا ولا كلاما موزونا ولا منثورا الا بظهور الصـوت » (البيان والتبيين ١ : ٧٩) .

ويمتاز الاديب والفنان الاصيل عن غيره بانه يستطيع أن يختـار أحسن الالفاظ وأنسبها تعبيرا عن تجربته الشعورية . كما أنه يستطيع أن يميز بدقة بين ما هو جميل الصوت من الالفاظ وما هو قبيح الصوت . ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار . وان لها في الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم .. كما يقول ابن الاثير بحق (المثل السائر ١ : ١٥٠) .

فاذا نجح في ذلك بلغ قمة الجمال الفني . كالبحتري الذي جعل من الفاظه في الشعر آية فنية منقطعة النظير ، يحتذيها كل من يريد أن يعبر تعبيرا جميلا أخاذا ، بأحسن الالفاظ وأنسبها تعبيرا عما تجيش به نفسه من مشاعر ، ولهذا وصف النقاد العرب « البحتري » بانه (صحيح السبك حسن العبارة « حلو اللفظ كثير الماء والرونق يتجنب التعقيد ومستنكر الالفاظ ووحشي الـكلام » (الامدي ص ١١) .

وهو بحق فنان بارع أصيل لا يجاريه أحد من شعراء العربية في هذا المضمار .

واذا أردنا أن نصف شعره ، فلا نستطيع أن نصفه بأحسن مما وصف به نفسه . فشعره — كما يرى هو — كدر في سماط لؤلؤ في جيد غادة ناعمة حسناء يهتز له من يسمعه أو يحس بجماله :

قصـــائد يطرب من تهدى لـــه | ولذة النفس من العيش الطـــرب
جـــاءت كدر في ســـماط لؤلؤ | في جيد خود او كعقيان الذهـــب

وأي انسان لا يطرب ويهتز لشاعر يشبه الفطنة برقة الشراب والجود بالندى ويعير الرجل الكريم حواشي رقيقة رقة الثوب الحريري الناعم ، ويشبه هذا الرجل المنتصر بمن يلاعب الورد الاحمر المشوب بصفرة مرة ! ويلاعب الورد الاصفر المفضفض الذي يبص بصا مرة أخرى ! ثم يعكس هذه الالوان على الماء مجتمعة فتعطي لونا يشبه الذهب بريقا . كل هذا في ثلاثة أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان وزير المتوكل ونديمه العظيم :

هو العارض الثجاج اخضل جوده | وطارت حواشي برقـــه فتلهبـــا
اعـــير مسودات الصدور واعطيت | يداه على الاعداء نصـــرا مرهبـــا
يلاعب فيـــه الحوذانا مفضفضـــا | يبص وحوذانا على المـــاء مذهبـــا

* * *

وقد اهتم جمهرة من الادباء بناحية الالفاظ وصلتها بالتعبير الفني ، بل ان « الجاحظ » قصر — أو كاد — أهمية الفصاحة على الالفاظ وحسن اختيارها . اما المعاني فهي « مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير الالفاظ وسهولة المخرج وفي صحة السبك » .

وعلى الرغم مما في رأي « الجاحظ » من مبالغة ، تهدر أهمية المعاني (ولا نريد أن نعرض لها الآن) ، فهو من ناحية ثانية ، يؤكد على أهمية الالفاظ وحسن اختيارها وتنظيمها ، وصلة ذلك بالتعبير الفني في الادب .

واذا كان الجاحظ وغيره (كابن الاثير في المثل السائر) قد أكدوا على أهمية الالفاظ في جمال التعبير الفني وحثوا الادباء على اختيار الالفاظ الجميلة وحسن استعمالها لتناسب المقام ، فقد انكر بعض البلغاء كل اهمية للالفاظ ، بل جعلوا اهميتها من حيث وجودها في جملة خاضعة لقواعد النحو . فكل كلام جميل وكل شعر رائع ، وكل قصيدة فائقة الحسن ، فانما هي كذلك لانها خاضعة لقواعد النحو تمـام الخضوع كما يريد عبدالقاهر الجرجاني .

ونظرية عبدالقاهر الجرجاني ذات شقين :

(١) ما يتعلق منها باللغة ، وارتباط الالفاظ مع غيرها بالمعنى ،

وهذه الناحية جديرة بالدراسة – في غير هذا الموضع – وذات جوانب طريفة ، ولكنها لاتدخل في صلب موضوعنا ٠

(٢) ما يتعلق بالتعبير الفني في الشعر خاصة ٠ وهذا الجانب هو الذي نناقشه الآن ٠

ان « عبدالقاهر الجرجاني » قصر امر الحسن والجمال الفني – وخاصة في الشعر – على معاني النحو ٠ فقال : واعلم أن ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ٠ وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه) ٠ (دلائل الاعجاز ٦٤) ٠

ويؤكد هذا المعنى في « دلائل الاعجاز » كله ٠ بل انك لا تجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه ان كان خطأ الى النظم ويدخل تحت هذا الباب الا وهو راجع الى علم النحو ٠ فما كان صحيحا فقد اعطيته حقه ووضعته موضعه الذي يريده له علم النحو والعكس صحيح أيضا ٠ « فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده » او وصف بمزية وفضل فيه ، الا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى معاني النحو » ٠

ونتائج هذه النظرية « نظرية النظم النحوي » ان صح التعبير ، هي :

(١) أفكار كل مزية للالفاظ من حيث الجمال الفني أو من حيث الفصاحة اذ أن محصول ذلك يرجع الى المعنى « دون طريق اللفظ » على حد تعبير عبدالقاهر الجرجاني نفسه ٠

(٢) قصر كل جمال في التعبير على ما يقتضيه علم النحو وما يقرره من قواعد وفروق بين العبارات ٠

مناقشة نظرية النظم النحوي

(١) مناقشة النتيجة الاولى : ومناقشة هذه النتيجة يقوم على دعامتين :

الاولى : اثبات أن للالفاظ أهميتها الاصيلة ومزاياها في التعبير الفني في الشعر والنثر على السواء ٠ وان كنا قد اقتصرنا على جانبها المتصل بالشعر فقط ٠

الثانية : اثبات ان الالفاظ حين تكون قبيحة مستكرهة فهي مخلة في التعبير ، ولو كان النظم النحوي صحيحا ، غير مخالف للاصول ٠

ولاثبات الامر الاول (الدعامة الاولى من النتيجة الاولى) ، فاخذ مثلين ، الاول من الشعر القديم والثاني من الشعر الحديث ٠

والمثل الاول هو قول « ابن الرومي » في وصف « شمس الاصيل » :

اذا رنقت شمس الاصيل ونفضت ... على الافق الغربي ورسا مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها ... وشول باقي عمرها متشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة ... وقد وضعت خدا على الارض اضرعا
كما لاحظت عواده غير مدنف ... توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى ... كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صورا اليها روانيا ... ويلحظن الحاظا من الشجو خشعا
وبين اغضاء الفراق عليهما ... كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفوة ... من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
واذكى نسيم الروض ريعان ظله ... وغنى مغني الطير فيه فسجعا

وهنا من خلال هذه التجربة التي يلاحظ مظاهرها كل من له بصيرتان في كل وقت أصيل ، استطاع « ابن الرومي » ان يعمق المعنى ويعممه على الكون والحياة والانسان ، حيث ربط بين ميلان الشمس نحو المغيب والفناء الذي يلحق الكائنات الحية « أو قضاء النحب » على حد تعبير الشاعر الفنان ، حيث شول باقي عمرها ، فنشرته شعاعا اصفر . كما عند « الاخوة » بين الشمس والازهار البيض (او النوار) !

الا ترى عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا وان هذا الا من علامات الحب بين الاخوان حيث تودعا !

وقد استطاع « ابن الرومي » بفنه البارع الجميل أن يتمم ذلك الجو الفرد العبق الوادع . ولم يكتف بذلك ، بل زاد التعبير جمالا وظلالا فنية وصورا جميلة بديعة نافذة الى القلوب آخذة بالالباب بصورة لفظية جميلة . . .

فشمس الاصيل حيث تنشر لونا اصفر أخاذا حين تميل نحو المغيب ويستعمل « ابن الرومي » أحسن الالفاظ لتعبر عن هذه التجربة الشعورية الصادقة .

فاستعمال لفظة (نفضت) يوحي بصورة من يريد أن يلقي عن كاهله عبئا ثقيلا فينفضه عنه نفضا .

وتصوير الشمس بهذه الصورة باستعمال لفظة واحدة يدل دلالة واحدة وهي أن للالفاظ أثرا في خلق صور فنية رائعة .

اما باقي عمرها الذي تقضى – أو كاد – فقد عبر عنه الشاعر بلفظة (شول) ، وهذه اللفظة توحي بالنفاذ شيئا فشيئا مع ما في جرسها من موسيقى تكمل الصورة وتعمقها في النفس حين تسمعها الاذن . وتوحي كذلك بالتفرق الذي تكمله لفظة « تشعشع » . والنطق بهذه الكلمة يوحي بالتفرق والتشتت .

أما التعبير عن الانسجام بين الشمس والنوار فقد عبر عنه بقوله : « وقد وضعت خدا على الارض اضرعا » . اما « النوار » فقد اغرورقت عيونه

بالندى كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا !

وهذا « النوار » ظلت عيونه تخضل بالندى ، وكلمة «تخضل» جمعت بين الرقة والعذوبة ورسمت صورة للعيون (وهي مثقلة بالدموع) جميلة جدا • وزاد رقة العبارة وجمال التعبير جاذبية استعمال كلمة « الندى » بعدها مباشرة •

ومما زاد جمالها ورقتها استعمال كلمة « اغرورقت » • وعذوبة لفظة اغرورقت ودلالتها على الصورة أو تكميلها للصورة الاخاذة غير غريب على من رزق ذوقا ورقة في الحس وتذوقا لجمال الفن التعبيري •

وهذا الشجي يلقي ظلالا على أبعادها الرائية ، فهي خاشعة من الشجو • ولكن كيف عبر عنها « ابن الرومي » ؟

إنه استعمل الالفاظ : « يراعينها ورواتيا ويلحظن » كأنها حبيب يودع حبيبا عزيزا لا يريد له فراقا • ولم يطو الضلوع على هجره • فكيف وفق الشاعر الكبير الى هذا في مثل هذه الالفاظ القليلة وابن علم النحو ـ أو النظم النحوي ـ من هذا ؟!

فلو أبدلت هذه الكلمات بما يرادفها في المعنى (ما دام الامر يرجع الى المعنى لا الى اللفظ كما يريد عبدالقاهر الجرجاني) ، مع مراعاة قواعد علم النحو ، لالقيت ظلاما على هذه الصورة الجميلة الموحية ولطمست معالمها •

ضع الكلمات : « رمت ، وانقضى ، وتثقل ، وامتلأت وخاضعة بدل الكلمات : « نفضت ، وشول ، وتخضل ، واغرورقت ، وخشعا » على التوالي ••• فماذا ترى ؟

انك لا ترى الا مسخا للروح الغامرة وطمسا لعالم الصورة الجميلة • وتغبيشا لتلك الظلال الساطعة الاخاذة ، مع ابقاء النظم النحوي كما هو •• فاين اثر قواعد النحو يا ترى ؟!

والمثال الثاني هو قصيدة الشاعر الجزائري « محمد صالح باويه » :

يا رفاقي في الاماني في الجزائر	قد غفا حلمي على اشلاء ثائر
دمدم الرعد وحزتنا الرياح	حطموا الاغلال وامضوا للسلاح

* * *

اقسمت امي بقيدي بجروحي	سوف لا تمسح من عيني دموعي
أقسمت ان تمسح الرشاس والمد	فع والجرح بمنديل دموعي
اقسمت أن تغسل الجرح وتغدو	شعلة تضرم احقاد الجموع
اقسمت ان تحمل المدفع مثلي	ان ترش الدرب بالعطر الخصيب
اقسمت أن ترضع الفجر واختي	في ضفاف الموت في عنف اللهيب

* * *

هذه « اوراس » أنا ملء كياني	وانا الاعصار في عيد الطغاة

وانا الرعب الذي هــز فرنســا ولسوى القيـد وغنى للحيــاة
يا صرير النار يســري في شظايا ضربتي تارا تناغــي امتيــاتي
يا صرير الموت يغــري ضربتي ان تنشــر الرعب بآمال الطغــاة
عبر « اوراس » نشيدي وعروقي وعتــادي وعصــاري ذكــرياتي
أنا جبــار ورعــد وانفجــار احمل الفجــر بايد داميــات !

والقصيدة كلها تعبير صادق وتجربة اصيلة ، تمثل « روح الثورة » العاتية في نفوس المسلمين المصممين على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله من أجل تخليص بلد من بلاد الاسلام من أيدي الاستعمار الكافر •

والذي يهمنا من القصيدة هنا ألفاظها ، وهي موضع الاستشهاد أما باقي النواحي فسنستشهد بها في موضع آخر •

فالشاعر يكثر من ألفاظ : المدفع والرشاش والجرح والدم والاشلاء والضحايا ، والهتاف ، والكفاح ، والجلاد والطغاة والسلاح ، والعذب ، والموت والاعصار والاغلال ، والثائر ••• وكأن القصيدة قاموس ثورة ، تجد فيه كل ما يواكب الثورة من ألفاظ الجهاد والكفاح •

ولم يستعمل الشاعر هذا الالفاظ عبثا ، ودون جدوى ، بل انك اذا ابدلت هذه الالفاظ بغيرها قضيت على روعة القصيدة بضربة واحدة ! فاين علم النحو من هذا يا ترى !

أما الشق الثاني من النتيجة الاولى ، فهو اثبات أن للفظة أثــرا في قبح الصورة الفنية أو التعبير الفني ، مع بقاء النظم النحوي صحيحا •

ولنأخذ من شعر المتنبي ما يساعدنا على اثبات ذلك •

لقد لاحظ « الثعالبي » في اليتيمة وغيره اثر استعمال الغريب والوحشي من الالفاظ على شعر المتنبي ، مما جعل المتنبي يصبح بين طرفي نقيض ، ويعرضه لاقوال الطاعنين • فمن ذلك :

(١) وما أرضى لمقلتــه بحلــم اذا انتبهت توهمــه ابتشاكا

والابتشاك : الـكذب • ويلاحظ « الثعالبي » أنه لم يسمع بهذا المعنى للكذب شعرا ، لاقديما ولا محدثا ، سوى بيت المتنبي •

(٢) لساحيه على الاحداث خفش كايدي الخيل ابصرت المخالي

الساحي : الناشر • وسميت المسماة به لانها تنشر وجه الارض • والخفش : مصدر خفش السيل خفشا ، اذا جمع الماء من كل جانب الى المستنقع • وقد لاحظ « الصاحب بن عباد » ـ فيما نقل الثعالبي ـ أن مما يتعاطاه « المتنبي » التناصح بالالفاظ النافرة والكلمات الشــاذة حتى كأن المتنبي وليد ضباء (يعني ابن صحراء) ، ولم يطأ الحضر •• ومما اخذ (الصاحب بن عباد) على المتنبي قوله :

(٣) أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ الى الاكل

والتوراب : التراب ، ومعنى البيت : « ايفطمه التراب قبل ان تفطمه أمه ويأكله التراب قبل ان يبلغ سن الاكل » .
(انظر : الدكتور بدوي طبانة : الصاحب بن عباد ٢٥٦ وما بعدها)

ومن لغاته الشاذة وكلماته النافرة ، ومما أخذه عليه « الصاحب » قوله :

(٤) كل آخائه كرام بني الدنـ ـيا ولكنه كريم الكرام

فقد استعمل لفظة آخائه ، التي تقبح في كل كلام ، فكيف اذا جمع اليها قوله :

(٥) قد سمعنا ما قلت في الاحلام فاجزناك بدرة في المنام ؟!

ومن أقوال المتنبي التي تجمع استكراه الالفاظ وسقوط المعنى :

(٦) وماامطرتنيه من البيض والقنا وروم العبدى هاطلات غمامه

والعبدي ، بكسرتين ودال مشددة : العبيد . ويريد أن يقول الممدوح : « اني ساثر كذلك ، فما تمطرني به من سحاب جودك من سيوف ورماح يحملها العبيد ، فانت وهبت لي العبيد وسلاحهم .. »
(أنظر : الدكتور بدوي طبانة : المصدر السابق) .

ومن القصائد التي جمعت القبح من أطرافه لما فيها من الفاظ نافرة وشاذة ، هي أقرب الى روح اللغة الفارسية منها الى روح العربية ، قصيدته الزائية التي مطلعها :

كامرتدى فرند سيفي الجـــــراز لـــــذة العـــين عـــدة للبـــراز

ومنها قوله يخاطب الممدوح :

يا مزيل الظــــلام عني وروضي يوم شربي ومعقـــــلي في البـــراز
ولم احملـــك معلمـــــا هـــكذا الا بضـــرب الرقـــاب والاجـــواز
ليس كـل الســـراة « بالروذبار ي » ولا كل ما يطـــير ببـــاز
فارسي لــــــه من المجـــد تاج كـــان من جوهـــر على ابرواز
كيف لا يشتكي وكيف تشـــكوا وبــــه لا بمن شـــكاها المرازي
ايهـــا الواسع الفنـــاء وما فيـــه مبيـــت لمالـــك المجتـــاز
بك أضحى شبا الاسنة عنـــدي كشبا اسوق الجـــراد النوازي
وانثنى عنـــي الرديني حتـــى دار دور الحـــروف في هـــواز
فحكى في اللحـــوم فعلك في الوفـــر فـــاودى العنتريس الكنـــاز
ملـــك منشـــد القـــريض لديه واضـــع الثـــوب في يدى بـــزاز
ولدن النـــاس من يجوز عليـــه شـــعراء كأنهـــا الخـــازباز
ويرى انـــه البصـــير بهـــذا وهـــو في العمى ضـــائع العكاز

فقد جمع فيها « المتنبي » من الالفاظ النافرة والقبيحة الجرس من

مثل : مرندي الجراز ، والاجواز ، وابرواز ، والتماز والاقواز والـكناز ، والخازباز ... وغيرها ، ما ليس بعدها زيادة لمستزيد .

وليس في لقصيدة خروج على ما يقتضيه علم النحو كما ترى ولـكن القصيدة (جملة) قبيحة ، بل من اقبح ما قال المتنبي قطعا . فاين علم النحو ، واين قواعد النظم ؟!

مناقشة النتيجة الثانية من نظرية عبدالقاهر الجرجاني

اما قصر كل جمال في التعبير على ما يقرره علم النحو ، وما يتصل بالمعنى مع اهدار كل قيمة للفظ .. فهو رأي فيه مغالاة على أقل تقدير ! لاننا نرى أن جانبنا كبيرا من جمال ومزية الشعر لا يرجع الى ما فيه من مطابقة لعلم النحو وقواعده ، وانما يرجع الى ما فيه من « تناسق التعبير مع الشعور وتطابق الانفعال مع شحنات الالفاظ واستنفاد العبارة اللفظية للطاقة الشعورية » والفنان الموهوب البارع هو الذي يهيىء للالفاظ نظاما ونسقا وجوا يسمح لها بان تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والايقاع ، وان تتناسق ظلالها وايقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه . والا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية . والا يقيم اختياره للالفاظ على هذا الاساس » (سيد قطب : النقد الادبي ٣٧) .

ونعود مرة اخرى الى قصيدة « محمد صالح باويه » لنأخذها شاهدا على ما قررنا .

فاسلوب القصيدة قوي متين ، فيه ازيز الطائرات ... وقصف المدافع واضطرام النيران .. وشظايا القنابل .. ودمدمة الرعود ، وعنف اللهيب .. وتناثر الاشلاء .. وهدير الثأر .. وتكسير القيود .. وتحطيم الاغلال .

وتجد العزم القوي .. والقسم الاكيد !

تجد الوالدة الرؤوم تشترك مع فلذة كبدها في المعركة ، وتدخل معه أتونها .. وترضع ابنه لا في البيت (الذي يكون مأوى الطفولة والامومة الوادعة) بل في ميدان الكفاح .. في ضفاف الموت .. في عنف اللهيب !

انها لم تثبط عزيمة ولدها الحبيب .. انها لم تمسح دموعه رفقا به بل اقسمت أن تمسح الرشاش بمنديل دموعه ! وأقسمت أن ترضع الحرية (والفجر رمز عن الحرية) من دماء الضحايا .. ليلد فجر الحرية ! أي صورة فنية ، وأي جمال ؟! أي روح تسري في هذه الابيات وأي فنان هو الشاعر الاصيل ! ومن يستطيع أن يعبر عن هذه التجربة الثورية الرائعة .. الثورة الاسلامية الخالدة بمثل ما عبر به هذا الشاعر الصادق الاحساس بهذه الثورة العارمة ، التي اقتلعت جذور المستعمر الكافر ، وبمثل هذا القسم المكرر المؤكد :

أقسمت أمي بقيـدي بجروحـي   سوف لا تمسـح من عيني دموعي

أقسمت أن تمسح الرصاص وتلثم ، والجسر يصغي لصوتي
أقسمت أن نحمـــل المدفع مثلي   أن ترش الدرب بالعطر الخضيب
أقسمت أن ترضع الفجر واختي   في ضفاف الموت في عنف اللهيب

أما عبارات الشاعر فقد ساهمت بالتعبير عن هذه التجربة بتصديقه فأي صدق في قوله : « نحمل الفجر بأيد داميات » و « ترش الدرب بالعطر الخضيب » وترضع الفجر واختي في ضفاف الموت .. وفي « عنف اللهيب » وضربتي نارا تناغي امنياتي » .

أما مقاطعها الصوتية فقصيرة أولا ، كأنها موسيقى حرب ليس فيها انسياب في الجرس ، انها مقاطع نشيد لابطال هبوا لانقاذ بلادهم ، بعزم وقوة وبأس ، ومتوالية ثانيا ، كما تتوالى موسيقى الجيش ، ليكون تأثيرها أقوى وإثارتها للنفوس أعظم ، ومكررة ثالثا تستقر في النفوس وتؤكد فيها « الثورة » .

ولن يجد المرء سرعة في الجرس الموسيقي وسرعة في توالي المقاطع مثل قوله :

عبر « أوراس » نشيدي وعروقي   وعتـــادي وعصـــاري ذكـرياتي

ويلاحظ القارئ الكسرة التي تشبه الياء في قوله « نشيدي » عروقي ، عتادي ، ذكرياتي » ، والتي تعبر عن الاصرار والعزم « هتا » ، وكأن الانسان يصك اسنانه ويقبض على تواجده حين يلفظها ، كما يفعل من يصمم على أمر ويقدم على فعله في الحال .. دون مبالاة بالاخطار ! .

وما أسرع توالي المقاطع في مثل قوله :

« جبـــار ورعـــد وانفجـــار   احمـــل الفجـــر بأيد داميـــات

كأنها دقات طبول .. تنذر بالخطر .. والموت والدمار ! .

فأي علاقة بين « قواعد النظم عند عبدالقاهر الجرجاني » وهذه المعاني من اختيار للالفاظ المعبرة عن التجربة الشعورية أصدق تعبير ، ومن اختيار للمقاطع المتوالية والقصيرة والمكررة التي تؤكد معاني الثورة ، ومن موسيقى قوية عنيفة يعطي جرسها أزيز الطائرات وانفجار القنابل بحيث تتناسق ظلالها وايقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه هذه القصيدة .

ولهذا نتبين بعد « نظرية النظم النحوي » عن الصواب في جانبها الذي يختص بالشعر فقط ، لاننا قد قلنا ــ فيما سبق ــ أن جانبها اللغوي (واعني باللغوي المعنى الفني الحديث لهذه الكلمة) ، طريف ، وطريف جدا ! .

الموسيقى الداخلية والدلالة الصوتية :

والموسيقى الداخلية هي محصلة موسيقى الالفاظ والمقاطع الصوتية

مجتمعه وكأنها السمفونية التي تمثل مجموعة الحان موسيقية ، ويمكن ادراك هذه الموسيقى بما قرره الاستاذ « لامبورن » في كتابه « أسس النقد الادبي » حيث رأى أن « الموسيقى الداخلية » تظهر في جانبين هي :

(١) اختيار الالفاظ وترتيبها من جهة .

(٢) والمشاكلة بين أصوات هذه الكلمات والمعاني التي تدل عليها .

أما الجانب الاول وهو اختيار الالفاظ وترتيبها فقد اهتم به الادباء العباسيون — كما يقول الاستاذ شوقي ضيف في كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » — اهتماما شديدا وجعلوه الجانب المهم من الفصاحة والبلاغة . ونرى « الجاحظ » يهتم به في « البيان والتبيين » كثيرا . فهو يقول : « اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض .. واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضيا ، كان على اللسان عند انشاد ذلك مؤونة .

وكان لهذا الجانب اهمية كبيرة في النقد الادبي . مما جعل النقاد يراعونه . ويفضلون شاعرا على آخر لانه يفضل صاحبه في هذا الجانب . وقد وصف « الامدي في الموازنة » شعر « البحتري » بانه : « صحيح السبك حسن الديباجة ، ليس فيه سفساف ولا رديء ولا مطروح ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا » . أو يصف البحتري بحلاوة اللفظ وحسن التخلص ، ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة السبك ، وقرب المأتى وانكشاف المعاني . أو انه « حسن العبارة حلو اللفظ كثير الماء والرونق » . وكلها عبارات متعاربة . ولم يأخذ على « البحتري » لفظا واحدا غثا ولا ركيكا ولا مستعملا في غير موضعه على كثرة ما أخذ على « أبي تمام » وهذا دليل على ظهور أهمية « الالفاظ » في النقد الادبي في هذا العصر الذي نتحدث عنه .

والجانب الثاني ، وهو المشاكلة بين اللفظ والمعنى ، هو الآخر أكد عليه النقاد أمثال صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » أو « الآمدي » صاحب « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » . يلاحظ تأكيد النقاد على هذه الناحية كما أكدوا على الناحية الاولى — أو الجانب الاول . ويلاحظ أيضا ، أن النقاد أكدوا على أن « البحتري » هو أكثر الشعراء استيفاء لهما . وان « أبا تمام والمتنبي » لم يبلغا — على ما لهما من قدرة على التعمق في المعاني — ما بلغه البحتري .

ويظهر أن البحتري كان على علم تام بهذين الجانبين ، واهميتهما في البناء الشعري وأثرهما في نقل التجربة الشعورية بصورة موحية . فهو يرى أن اللفظ حلي المعنى وان هناك فروقا واضحة بين الالفاظ في تادية المعنى الواحد ، ولهذا يجب أن يختار أحسن الالفاظ لاحسن المعاني كما يختار الانسان معدن الذهب من سائر المعادن ليضعه في صدر خود حسناء .

واللفظ حلـــي المعنى وليس يريـ ـك الصفر حسنا يريكه ذهبـــه

وقصائده بحق هي :

قصائد يطرب من تهدى لـــــه ولذة النفس من العيش الطـــرب
جـــاءت كـــدر في سماط لؤلؤ في جيد خود او كعقيان الذهــب

ويذكر « الآمدي » في « الموازنة » انه حتى من يفضلون ابا تمـام لا يدفعون البحتري عن حلو اللفظ وجودة المعنى ، وحسن الديباجة وكثرة الماء • اذ ليس الشعر عندهم الا « حسن التأتي وقرب المأخـذ واختيـار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان تورد المعنى باللفظ المعتاد في مثله • وتلك طريقة البحتري » •

ومع ذلك فاننا نستطيع ان نلاحظ ــ بوضوح ــ ان « البحتري » كان يشاكل بين الالفاظ والمعاني مشاكلة دقيقة . ففي قصيدته التي يصف بها « البركة » ، والتي يقول فيها :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات اذا لاحـــت مغانيهـــا
يحسبها أنهـــا في فضل رتبتهـــا تعـد واحـــدة والبحر ثانيهـــا
ما بال دجلة كالغيرى تنافسهـــا في الحسن طورا واطوارا تباهيهـا
كأن جـــن سليمـــان الذين ولوا ابداعهـــا فادقوا في معانيهـــا
فلو تمر بها بلقيس عـــن عرض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود المـــاء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريهـا
كأنمـــا الفضة البيضاء ســـائلة من السبائك تجري في مجاريهـــا
اذا علتها الصبا أبدت لهـا حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيهـا
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكهـــا وريق الغيث احيـــانا يباكيهـــا
اذا النجـــوم تراءت في جوانبهـــا ليلا حسبت سماء ركبت فيهـــا

تجد ان البحتري قد أودع هذه القصيدة أجمـل ما يمكـن من حلي الصوت وزينته • فالالفاظ تعبـر بانفاسها عن معانيهـا • « فالحسن » ومشتقاته يتكرر في القصيدة وفي مكانه المناسب المعبر عن المعنى أجمـل تعبير واروعه • « والانسات » اذا لاحت معانيها •• بهذه الوسوسة التي تشبه وسوسة الحلي ، الذي يليق بصدور الانسات ، وما يتبعها من هذا الامتداد في كلمتي « لاحت » و « مغانيها » (أو قل هذا الانسيات الصوتي . الذي يسمعك أعذب الالحان • ويزيد الحسن سحرا وجاذبية ، حين يقرن هذا الوصف بذكر (بلقيس) ، الملكة اليمنية الحسناء المعاصرة لسليمان بن داود النبي ، الذي دعاها الى الله فلبت الدعوة ، وحين دخلت القصر (أو الصرح) تعجبت من بديع الهندسة وجمال الزخرفة ، فبهرها حسنه فحسبته لجة « وكشفت عن ساقيها • قيل : انه صرح ممرد من قوارير » • الى هذه القصة الجميلة العميقة الدلالة يشير البحتري بقوله :

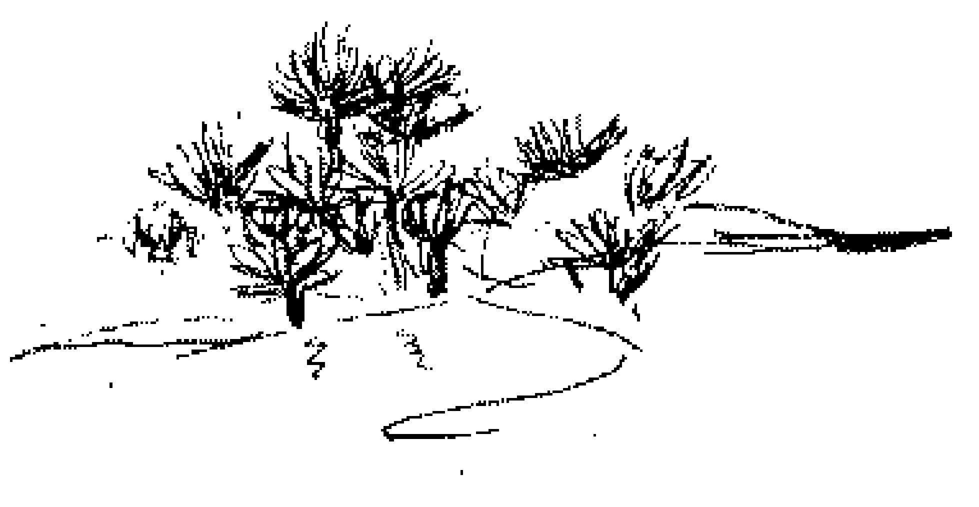
فلو تمر بها « بلقيس » عن عرض قالت : هي الصرح تمثيلا وتشبيها

ولا يخفى ما في قصة « بلقيس » أمام « سليمان » ، الذي اعطاه الله ملكا عظيما ، من جاذبية واثارة للتجربة الشعورية .. وتنبيهها الى جمال هذه البحيرة الساحرة الرائعة ويزيدها حسنا هذه الديباجة من الالفاظ الرائعة ، أمثال « الفضة السائلة والسبائك ـ وما احلى كلمة السبائك في جرسها العذب : والصبا ، والحباك والجواشن المصقولة الحواشي ، وحاجب الشمس الضاحك وريق الغيث .. » التي دفعت « ابن الاثير » أن يقول في « المثل السائر » عن هذه الديباجة : (كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين باصناف الحلي) وموسيقاها الداخلية عذبة رقراقة تحس وانت تقرؤها ـ متذوقا ـ كأنها موسيقى تصويرية كماء تجري سلسلا بين الرياض كسين زاهرا .

وهذا ما جعل النقاد قديما وحديثا يجمعون على أن البحتري هو أصدق من عبر عن هذه الموسيقى احسن تعبير بحيث لا يجاريه احد من شعراء العربية على مر العصور والازمان .

المراجع :

١ ـ الآمدي : الموازنة بين ابي تمام والبحتري .
٢ ـ ابن الاثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .
٣ ـ البحتري : ديوان البحتري .
٤ ـ الدكتور بدوي طبانة : الصاحب بن عباد .
٥ ـ الثعالبي : يتيمة الدهر .
٦ ـ الجاحظ : البيان والتبيين .
٧ ـ الجرجاني « عبدالقاهر » : دلائل الاعجاز .
٨ ـ الجرجاني « عبدالعزيز » : الوساطة بين المتنبي وخصومه .
٩ ـ سيد قطب : النقد الادبي .
١٠ـ شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي .
١١ـ شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الاموي .
١٢ـ المتنبي : ديوان المتنبي .



ماري ملكة اسكتلندة

مدحت الجادر

ان محاكمة ماري ملكة اسكتلندة ثم اعدامها ، انما هي خاتمة المنافسة الطويلة التي حلت بينها وبين الملكة اليزابيث . فقد كانت ماري تتحدى حق اليزابيث في العرش من قبل ان تلجأ الى انكلترا في عام ١٥٦٨ ، فلما هربت من اسكتلندة ولجأت الى انكلترا وضعت امام اليزابيث صعوبة جديدة ينبغي قهرها .

واليزابيث التي كانت قد قضت يومئذ حوالي عشر سنين في الحكم ، هي ابنة [آن بولين] . لذلك اعتبرها بعض النبلاء غير شرعية وغاصبة للحكم . ثم زادت هي الطين بلة بتأييدها للبروتستانتية . ومع ان تشريعا قد صدر باعتبارها ابنة شرعية ، الا ان صفة مكتسبة بهذه الصورة يمكن نقضها بسهولة اذا سمحت الظروف ، لاسيما اذا جعل البابا الكاثوليك في حل من الولاء لها ، وهذا ماحدث فعلا فيما بعد .

وحين اعتلت اليزابيث العرش ، بدا كان عهدا جديدا يطلع على البلاد . ولكن كانت هناك غيوم تتجمع من كل جانب ، فأصبح الحكم يحتاج الى المهارة الفائقة ، وبعد النظر ، وسعة الحيلة .

وكانت وراثة العرش اعقد ما واجهت اليزابيث من المشاكل ، اذ كان عليها ان تتزوج لتنجب هذا الوارث . ولكن من هو الزوج الذي تختاره ؟ انها ان اعطت هذه الفرصة لطامع في عرشها من الدول المجاورة ، حالت دون لجوئه الى القوة لتحقيق غرضه . واذا مدت يدها الى احد امراء الدول المتنافسة على بلدها فقد يمنع ذلك الاخرين من اعلان الحرب على انكلترا . ومهما يكن من امر فهناك هذه الحقيقة المرة - انها اذا لم تنجب وارثا للعرش كانت ماري اقرب من يمكن ان يطالب به . ولقد طلب البرلمان اليها اكثر من مرة ان تسمي وارثا للعرش فامتنعت مخافة ان يثور من تختاره في

زوجها ، او انها اذا اختارت شخصا بعيدا عنها ، سخط من هو اقرب اليها منه . وربما لجأ الى الحرب .

اما ماري فقد خلفت والدها جيمس الخامس ، ابن عم اليزابيث ،على العرش وهي طفلة عمرها اسبوع واحد . وقد حاول هنري الثامن ان يتخذها زوجا لابنه وهي ماتزال في سن الطفولة ، فارسل جيشا الى اسكتلنــــدة ليأتي بها الى انكلترا . فأخفق في هذه المحاولة . وارسلت ماري الى فرنسا وهي في السادسة من عمرها . وهناك نشأت نشأة كاثوليكية بين أفـــراد الاسرة المالكة الفرنسية ، فانقطعت كل صلة لها بوطنها الاصلي الذي نمت فيه آنئذ الحركة البروتستانتية . ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت من ولي عهد فرنسا ، بيد ان زوجها قد توفي بعد قليل فعادت الى اسكتلندة عـــام ١٥٦١ وحيدة غريبة . ولم يكن الاسكتلنديون يومئذ مستعدين لقبولهـــا ملكة عليهم ، اذ كانت غريبة عنهم في الدين والعاطفة . ومع انها قد ظفرت بحب القليل من افراد شعبها غير انها اخفقت في ان تضع نفسها في طليعـــة الحركة الوطنية ، فتوحد العناصر السياسية المختلفة في ولاء مشترك للعرش . وكان وجودها في اسكتلندة خطرا يهدد انكلترا ، اذ كان بوسعها ان توجه ضربة شديدة اذا سمحت الظروف . وعلى ذلك ، اخذ الجواسيس الانكليـــز يتوافدون على اسكتلندا ، فزادوا في متاعبها ، واصبحوا محط سخط وتذمر ومصدر معارضة قوية .

وتحت هذه الظروف اصبح لزاما عليها ان تجد لها زوجـــا يقف الى جانبها . فوقع اختيارها على هنري لورد دارنلي البروتستانتي . وكان هذا احمق طائشا فلم يستطع ان يقدم النصح والعون لزوجته الذكية الحسناء . وسرعان ما اكتشف النبلاء مواطن النقص فيه ، فاستغلوا غيرته ودفعوه الى قتل شخص يدعى [ريزيو] في حضرتها ، فافترقت عنه من غير ان تعلــن هذه الفرقة . وبعد ولادة ابنها جيمس ، قتل زوجها في ظروف غامضة القت الشبهات عليهـــا . وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحادث وقعت ماري في حب [ايرل بوثول] فتزوجها بسرعة خالية من الذوق والحشمة ، وبصورة يشك في شرعيتها . فانتهز المعارضون هذه الفرصـــة ، فرفعوا السلاح ضد هذا الزواج المفتعل ، واستطاعوا في بحر شهر واحد ان يأسروها وينفوا زوجها . ثم فرض عليها التنازل عن العرش الى ابنها ، والقيت في غيابة السجن قدمها النسيان ، ولكنها هربت في السنة التالية ، وشرعت تقاوم مع فريق مــن انصارها حتى دحروا ، فلجأت الى انكلترا وطلبت الى اليزابيث المساعدة .

ووقعت ملكة انكلترا في حيرة ، لقد صارت ماري في قبضتها ، ولـكنها كانت ملكة وليست من الرعايا . ثم ان وجودها في انكلترا يجعلها حتمــا محورا للثورة والتآمر ، كما ان وجودها خارج انكلترا يجعلها بعيدة عــن رقابتها . وكان اول ما حاولته اليزابيث هو تشويه سمعة ماري امام العالم . فعقدت مؤتمرا لبحث التهم التي وجهها الاسكتلنديون اليها . وقد تألف من

اعضاء اختارتهم اليزابيث وآخرين يمثلون اسكتلندة وماري نفسها . وكانت حجة اليزابيث في عقد هذا المؤتمر هي عدم استطاعتها ايواء ماري حتى تنجلي التهم الموجهة اليها . ولم ينته المؤتمر الى نتيجة . ولكن حين رجع ممثلو اسكتلندة الى بلدهم لم يدخروا وسعا في تلويث سمعة ملكتهم . وفي نفس الوقت بذلت أقصى الجهود لتمكين الوصي في اسكتلندة من الاحتفاظ بمنصبه وايجاد المبررات للملكة اليزابيث لكي تحجز ماري لديها . وهكذا بقيت الملكة التعسة في انكلترا ضيفة في الظاهر ، سجينة في الواقع .

ومضت عليها وهي في هذه الحال ، ثمانية عشر عاما ، كانت خلالها تحاول بكل جهدها ان تهرب من الاسر . فقد تآمرت لكي تحل محل ابنها في اسكتلندة او تشترك معه في الحكم ، وحاولت ان تتصالح مع اليزابيث او تعمل على خلعها .

ولجأت الى فرنسا واسبانيا والبابا طالبة المساعدة . ومرت عليها فترة ابدت فيها استعدادها لتغيير دينها ومعتقدها . ولكن هذه المحاولات جميعها باءت بالفشل ، لان الدول الكبرى آثرت يومئذ ان تستفيد من مؤامرة ناجحة في الداخل ، فان ذلك افضل من التدخل مباشرة والتورط في مغامرة لاتعرف مغبتها . ولقد دبرت فعلا عدة مؤامرات ضد اليزابيث كان بعضها يدور حول انقاذ ماري واعتلائها العرش .

وفي عام ١٥٧٠ فصل البابا اليزابيث من الكنيسة الكاثوليكية وبذلك اصبح الكاثوليك في حل من ولائهم لها . فراحوا يتآمرون ضدها باستمرار ، وزادهم تماديا في ذلك ما اتخذ ضدهم من اجراءات القمع والانتقام . وكان الاعتقاد السائد ان ماري لابد ان تكون لها يد في تلك المؤامرات ، فنصح الوزراء اليزابيث بان تمضي الى النهاية في التخلص من ماري اذا اتيح لها المبرر المقبول .

وقد ثار الرأي العام البريطاني ضد تلك المؤامرات ، فلما اكتشفت مؤامرة جديدة بادر الى العمل فورا . ففي عام ١٥٨٤ الف البروتستانت الانكليز جمعية تعهدت بالدفاع عن الملكة والانتقام لها . وبموجب نظام الجمعية هذه نذروا أجسامهم ونفوسهم وما ملكت ايديهم للوقوف ضد أية محاولة للاعتداء على الملكة ، وصرحوا بانه اذا نجحت محاولة من هذا القبيل ، فانهم لن يرضوا بالخلف الذي تدبر المؤامرة لمصلحته ، وانهم سوف يتعقبون المعتدين حتى يقضوا عليهم . وعرفت ماري انها هي المقصودة بهذه الاجراءات فعرضت ان توقع على قانون الجمعية فلم يسمح لها بذلك .

ثم أصدر البرلمان قانونا خاصا لحماية شخص الملكة . وقد نص القانون المذكور على تأليف لجنة من أربعة وعشرين عضوا من النبلاء والمستشارين الخاصين للتحقيق في أية مؤامرة تدبر في المستقبل بقصد غزو انكلترا ، أو القيام بثورة في داخلها ، أو أية محاولة لايذاء الملكة من قبل

أي شخص يطالب أو يمكن ان يطالب بعرش انكلترا . واذا ما صدق الحكم الذي تصدره هذه اللجنة ، ترتب عليه أمران :ـ الاول : حرمان من تثبت ادانته من الوصول الى العرش بصورة مطلقة . والثاني : اهدار دمه واعطاء الحق لاي شخص بالقضاء عليه من غير ان يعتبر ذلك قتلا .

ومنذ ذلك الحين بدأت اليزابيث أو بعض مستشاريها بالبحث عن حجة لاطلاق يد تلك اللجنة في التحقيق .

وفي خلال عامي ١٥٨٥ و١٥٨٦ كانت ماري تتراسل بالشفرة مع الامراء الاجانب بواسطة سكرتيريها . وكان هدفها الاول الخلاص من الاسر بأية وسيلة . وقد زعم انها ابدت استعدادها في تلك الرسائل للتنازل عن حقها في عرش انكلترا الى ملك اسبانيا ، ورحبت بغزو مسلح لانفاذها . واذا صدقت البينات التي قدمت في محاكمتها فهي تدل على انها كانت تشجع الخيانة والاغتيال أيضا لتحقيق هذا الهدف . وفي هـذه الفترة اكتشفت مؤامرة دبرها (انتوني بابنكتن) وآخرون لاغتيال الملـكة اليزابيث واحلال ماري محلها كملـكة كاثوليكية وقد اعترفوا بأنهم قد تراسلوا مع الملـكة الاسـيرة . يضاف الى ذلك ان سكرتيريها قدما اعترافات أخرى تنـم عن التآمر ، كما وضعت اليد على رسائلها المشبوهة ؛ فأعلن هذا كله على الملأ .

وقد ظهر ان هناك شخصين هما [سيسيل] و [ولسنكهام] كانا قد كلف بمراقبة تنفيذ المؤامرة ، والاطلاع على الرسائل السرية المتعلقة بها ويقال ان [ولسنكهام] قد دبر المؤامرة تدبيرا تحقيقا لأهدافه الخاصة . وعلى كل حال فقد القي القبض على المتآمرين ثم حوكموا ثم اعدموا . ولم يبق سوى التخلص من الملـكة الاسيرة .

وهنا واجه رجال القانون قضية معقدة . فهل تعتبر ماري ملـكة في تلك الفترة ؟ واذا كانت كذلك فهل يمكن محاكمتها في انكلترا ؟ وقد ذهب البعض الى ان ملـكة انكلترا ، بوصفها رئيسا اقطاعيا للمملـكة الاسكتلندية لها الولاية القانونية عليها ، وان كان الفقيه [بانوكبرن] قد افتى بخلاف ذلك قبل ثلاثمائة سنة تقريبا . وكانت السوابق القضائية قليلة ، وبحوث الفقهاء ضئيلة ، ومع ذلك لم تكن لهـذا أهمية كبيرة . ذلك ان الجـواب القانوني لهذه الاسئلة قد اعد مقدما . ولم تكن مهمة رجال القانون سوى ايجاد المبررات لذلك الجواب بغض النظر عما اذا كان صحيحا أو غـير صحيح . وكان الرأي الذي ظفر ببعض التأييد هو ان الحاكم الذي يستغل ضيافة قطر آخر فيعمد للخيانة والتآمر ، انما يجعل نفسه خاضعا لقوانين ذلك القطر . ولـكن هذا الرأي يعيبه أمران : الاول ان ماري كانت طوال الوقت سجينة في قبضة السلطات الانكليزية فمن المتعذر عليها ان تتآمر ، والثاني ان علاج التآمر في مثل هذه الحالة هو الابعاد لا غـير . ومهما يكن من شيء ، فأن فكرة امكان محاكمة ماري في انكلترا قد وجدت لها صدى حـسنا في نفوس أولي الامر فراحوا يعملون على تنفيذها . وهنـا ظهـرت

مشكلتان : ما هي الجريمة التي يمكن اتهام ماري بها ؟ وأي محكمة تستطيع محاكمتها ؟ لقد كان بالامكان اتهامها بالخيانة ثم سوقها الى المحكمة المختصة ، ولكن هذا الاتجاه تعترضه صعوبات جمة • ذلك ان ماري ليست من رعايا التاج البريطاني بالولادة ، ولم تقسم يمين الولاء له ، ولم تكتسب الجنسية البريطانية ، بل هي ليست مقيمة في بريطانيا بملء ارادتها واختيارها ثم من ذا الذي سوف يحاكمها ؟ انها ليست من النبلاء فلا يكن محاكمتها أمام مجلس اللوردات ، وفي الوقت نفسه هي أعلى رتبة من اللوردات فلا يمكن محاكمتها أمام هيئة محلفين عادية • وكان هناك مبدأ قانوني مفاده انه من الممكن محاكمة أي متهم في انكلترا أمام من هم انداد له • ولم يكن لماري من ند في بريطانيا سوى الملكة اليزابيث نفسها • كل هذه المصاعب كانت تشغل مستشاري اليزابيث فراحوا يلتمسون مخرجا منها . بتجنب احكام القانون العادي واللجوء الى حلول استثنائية تستنتج قسرا وتكلفا •

تم القي القبض على ماري بصورة رسمية واقتيدت الى [فوذرنكهاي] حيث اودعت تحت حراسة سر امياس بوليت • ثم ألفت لجنة من بعض أعضاء مجلس شورى الملك ، وكبار الحكام ، والوزراء الذين هيأوا الدعوى ضد ماري ، وسجانها : وقد حددت مهمتها بايجاز زعم فيه انه منذ صدور القانون الخاص بحماية الملكة ، اخذت ماري وآخرون بتشجيع منهما ، يتآمرون على الحاق الاذى بصاحبة الجلالة ، فعلى اللجنة ان تحقق في الادلة ، فتصدر قرارها وفقا لها • ولم يكن هناك مجال للتأخير ، فانطلقت اللجنة في الحادي عشر من تشرين الاول عام ١٥٨٧ الى [فوذرنكهاي] تصطحب محاميها • والوثائق التي اعدت للعمل الفوري •

وكانت الملكة اليزابيث قد اعدت من قبل رسالة تخبر فيها ماري بالتهمة الموجهة لها ، وتبلغها رسميا بانها ما دامت قد اقامت تحت حمايتها ، فانها اصبحت خاضعة لقوانين البلاد ، ويمكن محاكمتها بموجبها ، وهي ترجوها ان تجيب على التهمة • وكان جواب ماري ان ابدت أسفهـا على وصول معلومات كاذبة عنها الى الملكة ، وذكرتها بأنها قد تنبأت منـذ صدور قانون حماية الملكة بانه مهما وقع ، فسوف تتحمل هي اللوم كله ، اذ كان لها أعـداء خطرون في البـلاط • ثم أكدت انها كملـكة لا يمكن محاكمتها ، وانه لم يكن من مصلحتها أن تقوم بأي عمل من شانه أن يضر بشخصها ، أو بمن هو في منزلتها ، أو بأبنها • ثم ابدت شكواها من انها تجهـل قوانين انكلترا ومن سيقوم بمحاكمتها ، ومن ان جميع أوراقهـا ومذكراتها قد انتزعت منها ، ومن انه ليس هناك من يجرأ على الدفاع عنها • وقد ختمت جوابها قائلة : « اني بريئة من كل جرم اقترف ضد الملكة • واني لم احرض أي انسان ضدها وما ينبغي ان اتهم الا بما قلته بلساني أو سطرته بقلمي ، وليس هناك شيء من هذا • »

وفي اليوم التالي عرض عليها جوابها مكتوبا بشكله النهائي فأيدت

صحته ، وأضافت اليه انها لم تحظ بحماية القانون الانكليزي منذ ان لجأت الى انكلترا طالبة المساعدة • وانها قد أضحت سجينة منذ ذلك الحين • ثم جحدت صلاحية اللجنة في التحقيق معها ، فوضعت بذلك عقبة أمامها ، فأقبل بعض أعضاء اللجنة مع محامي الاتهام لمواجهتها ، فأصرت على اعتراضها ، وبينت انها سوف تستمع الى وجهة نظرهم تبادلا للرأي لا اقتناعا بصحته من الناحية القانونية • واستمرت هذه المناقشات يومين كاملين ، ثم اعلنت ماري انها سوف تجيب على كل شيء أمام البرلمان ، فلربما أقر الاخير حقها في وراثة العرش ، ولكنها لن تسلم نفسها لحكم خصومها اللذين تعلم حق العلم انهم سوف يرفضون كل دفاع عنها • وعبثا حاولت اللجنة تهديدها بأنها سوف تستمر في التحقيق بغيابها ، حتى اتفق أخيرا على ان تتسلم اللجنة اعتراضها دون ان يعتبر ذلك قبولا له ، وفي مقابل ذلك وافقت ماري على المثول أمامها رغبة في دحض التهمة الموجهة اليها •

واجتمعت اللجنة وفق مراسيم خاصة اعدت مقدما • ووضع كرسي على المنصة للملكة انكلترا التي لم تحضر الجلسات • ووضع كرسي آخر لماري في وسط القاعة مقابل كرسي الملكة • فلما دخلت الاخيرة القاعة صرخت قائلة : « اني ملكة بالولادة ، ومكاني يجب ان يكون هناك عند المنصة » • ثم كررت احتجاجها بدون جدوى • وقد حرمت من محام يدافع عنها ، وأوراق لتسجل فيها ما تريد تسجيله • ثم افتتح الجلسة القاضي [كودي] عارضا القضية وكأنه ممثل للاتهام • وقد أصر على انها كانت على علم بمؤامرة [بابنكتن] ، وانها قد وعدت بتأييدها ، ورسمت السبل والوسائل لتحقيقها • وانكرت ماري علمها بالمؤامرة المذكورة ، وكل اتصال بصاحبها ، وطلبت ابراز ادلة بخط يدها لاثبات ذلك • وعندئذ تليت عليها فقرات من اعتراف [بابنكتن] ، فأوضحت ان رسائل عديدة قد تبودلت بينها وبين أشخاص كثيرين ، ولكن هذا لا يجعل منها شريكة لهم في مقاصدهم السيئة • ثم تليت نسخ من رسائلها الى [بابنكتن] بزعم ان الرسائل الاصلية قد سمح بأيصالها الى المرسل اليه • وقد اظهرت رسائل [بابنكتن] ان هناك اجراءات تتخذ للقيام بثورة وانقاذ ماري بقوة السلاح واغتيال اليزابيث •

وقد انكرت ماري تسلم هذه الرسائل ، وذكرت انه كانت هناك رزمة من الرسائل حجزت عنها سنة كاملة ثم دفعت اليها من غير ان تعلم من الذي ارسلها • وانكرت كذلك انها قد اجابت على تلك الرسائل ، وبينت انه من السهل تزوير الشفرات ، وابدت خشيتها من ان يكون ذلك من عمل [ولسنكهام] بقصد القضاء عليها • ولما جوبهت بشهادات سكرتيريها اللذين لم يسمح لها بمواجهتهما ، أجابت بأن احدهما ، ويدعى [نان] ، من السهل ان يتقدم بشهادة زور لقاء أمل أو رهبة وانه كثيرا ما كتب غير ما تمليه عليه • اما الآخر ويدعى كيرل فقد كان يكتب كل ما يأمره به

نان . ثم اضافت : « ان سلامة الامراء تهوي الى الارض اذا استندت الى تصرفات السكرتيرين وشهاداتهم . وما ينبغي ان أدان أنا الا بما قلت أو كتبت ، واذا كان هناك من كتب ما فيه ضرر لشقيقتي الملكة فاني لا علم لي بذلك ، وعلى ذلك الكاتب وحده تقع تبعة هذه الجرأة الطائشة . »

اما تهمة محاولتها نقل حقها في عرش انكلترا الى اسبانيا ، فقد أجابت عليها بانها ليس لديها عرش تستطيع نقل حقها فيه . واما ما يتعلق بمراسلاتها بالشفرة ، فقد اعترفت بانها قد فعلت ذلك ، ولكنها انكرت اعترافات سكرتيريها حولها ، وأكدت انها لا تعرف | بابنكتن | وزمرته المتآمرين على حياة الملكة .

ثم ابرزت لها رسائل كانت قد ارسلتها الى الخارج طالبة المساعدات الاجنبية . فاجابت بأنها لم تقصد بذلك القضاء على اليزابيث ، واذا كان هناك بعض الاجانب قد حاولوا اطلاق سراحها بمحض رغبتهم ومقاصدهم الخاصة ، فليس من العدل ان تتحمل هي وزر ذلك . وقد بينت انها لم تخف عن الملكة سعيها المتواصل لنيل حريتها .

وفي اليوم التالي ابدت احتجاجها على ان اللجنة تسيء استعمال الصلاحيات الممنوحة لها ، فهي تقحم نفسها في عقيدتها الدينية ، وتتجاهل حصانة الامراء الاجانب ، وتتدخل في حياتها الخاصة . وشكت أيضا من انها قد جردت من حرمتها ، وارغمت على الظهور كفرد عادي أمام المحكمة بقصد حرمانها من حقها في وراثة العرش ، وانها انما قبلت بهذا الوضع دفاعا عن شرفها وتاكيدا لبراءتها . واخيرا طلبت تعيين محام لها ، وان تصدق بكلامها لكونها اميرة ، ثم أضافت : « انه لمن الحمق المفرط ان اطمئن الى حكم من رأيت بكل وضوح انهم يحملون التعصب ضدي . » وقد رد | برليه | احد أعضاء اللجنة على ذلك بان قصد اللجنة هو الوصول الى الحقيقة فقط ، فقاطعته قائلة ان الحقيقة التي ينشدونها لا يمكن اثباتها . وان اعترافات السكرتيرين انما انتزعت منهم اما مخافة التعذيب او املا في المكافأة أو العفو . ثم كررت شكواها من تجريدها من أوراقها الشخصية وعدم وجود سكرتير لها يساعدها في محنتها . وأخيرا طلبت ان تمثل امام البرلمان ، أو تواجه الملكة ومجلس الشورى .

وبذلك انتهت الاجراءات في | فوذر نكهاي | ، فأجلت اللجنة اجتماعاتها ثم استأنفتها في | وستمنستر | في الخامس والعشرين من تشرين الاول . ولم تحضر ماري هذه الاجتماعات ، اذ كان القصد منها مناقشة سكرتيريها | نان | و | كيرل | حول صحة الرسائل والنسخ المأخوذة عنها . ثم اعلنت اللجنة ان التهمة الموجهة الى ماري قائمة وصحيحة . وقد احتج | نان | فيما بعد بانه لم يدل بشهادة ضد سيدته ، بل انه على العكس من ذلك قد شهد لصالحها ، ولكن السجلات الرسمية لا تؤيد هذا الزعم . وعلى الرغم من ان الادلة كانت موجهة ضد ماري فقط ، فقد وجد من الافضل

ان يصرح بأن الحكم سوف لا يمس ابنها الملك [جيمس] بأية صورة من الصور . وكان هذا التصريح ضروريا للتخفيف من وقع الحكم عليه . وفي الوقت نفسه ، اتخذت الاجراءات للحيلولة دون قيامه بمحاولة مسلحة لانقاذ والدته أو الانتقام لها . ولكن الملك [جيمس] لم يقم بشيء من ذلك وسجل على نفسه العار باكتفائه بالاحتجاجات الشفوية .

وقد كان موقف الملكة اليزابيث من الحكم متذبذبا ، لذلك راح مستشاروها يحملونها على تصديقه بكل وسيلة . وكان البرلمان قد صدق الحكم ، ثم رفع المجلسان اليها مذكرة يطلبان فيها اصدار الامر اللازم لتنفيذه . فجعلت اليزابث تراوغ وتحاول التخلص من الاجابة ، وبعد اثني عشر يوما أعطت ردها الذي وصفته هي نفسها بانه [جواب لا اجابة فيه] . وعلى أثر ذلك طلب رئيس القضاة ، ورئيس المجلس ، مقابلتها فأوضحا لها الاسباب التي تدعو البرلمان الى التمسك بقراره ، فرجت اليهما ان يجدا حلا آخر . غير انها حين وجدت في النهاية نفسها محرجة عمدت الى تعطيل المجلس . وقد كان الدبلوماسيون الاجانب في تلك الفترة ، يعملون كل حسب مصلحته ، ولاسيما السفير الفرنسي الذي كان يبذل كل جهده لمنع تنفيذ الاعدام . وظلت الملكة مصرة على عدم اتخاذ قرار نهائي من جانبها ، بل انها كتبت الى [امياس بوليت] تطلب اليه ان يخلصها من المشكلة بان يقوم هو بقتل ماري فرفض القيام بذلك . وكان هذا الطلب مشروعا ، لان اعلان التهمة وقرار اللجنة الخاصة ، كانا كافيين حسب احكام قانون حماية الملكة لكي يقتل أي شخص ماري من دون ان يعتبر ذلك جريمة . ومع ذلك فان تلك المحاولة من قبل اليزابيث ستظل تلقى عليها مسحة من الضعة والهوان . وعجزت اليزابيث في النهاية عن أن تجد لهسا مخرجا من تلك الورطة ، فوقعت حكم الاعدام ، فتولى [ديفسن] وزير الخارجية اصداره . ومع ذلك حاولت اليزابيث بعدئذ استرداد تصديقها للحكم ، أو انها قد تظاهرت بذلك ، ارضاء للاقطار الاخرى ، وقد جعلت محاولتهسا هذه من [ديفسن] كبش الفداء فوقع عليه اللوم كله .

وكان تنفيذ الحكم مؤثرا حقا . فمهما كانت الاخطاء التي ارتكبتها ماري فأنها ظلت في محنتها الاخيرة محافظة على شجاعتها ووقارها . وكانت جميع تصرفاتها في تلك الفترة من قول وفعل تلقي عليها هالة من قوة الشخصية ومتانة الارادة ، تعوضان عما لوث سمعتها . وقد توجهت الى الموت واثقة من براءتها ، وتركت في نفوس الناس منظرا لن ينسوه : منظر ملكة جميلة تعسة وقعت ضحية لمنافس حسود .

● ●

التعليم في وادي الرافدين في العصور القديمة

علي الحسيني

تمهيـــد :

كان علماء اوروبا ومثقفوها في القرون الوسطى يعتقدون بان الحضارة اليونانية هي اولى حضارات العالم واكثرها ايغالا في القدم ، اما الامم التي سبقت اليونان بالعديد من القرون فلم تكن – في رأيهم – أمما انشــأت الحضارات ، بل هي غارقة في الجهل والبدائية . ولكن هذا الاعتقاد ما لبث ان تهاوى على أثر اكتشافات علم الاثار الشرقية ، اذ تبين ان الحضـــارة اليونانية ذاتها هي امتداد لحضارات أقدم منها نشأت بصورة خاصة في بلاد الجزيرة – أي المسافات واسعة الامتداد التي تقع بين النهرين الموغلين في القدم : دجلة والفرات – وكذلك حول نهر النيل وفي بلاد فارس ايضا .

وقد لاحظ علماء الاثار الشرقية ان هذه الامم التي سبقت اليونان في بناء حضاراتها اعتنت عناية بالغة بالتعليم . فكيف كانت هذه الامم تعلم أجيالها الصاعدة ؟ وكيف كانت مدارسهم ؟ وأية أهداف استهدفتها نظمهم التعليمية ؟

ذلك ما نحاول ايضاحه في هذا البحث الوجيز .

التعليم عند السومريين :

ان اولى الحضارات التي نشأت في بلاد الرافدين هي الحضـــارة السومرية ، ومن أشهر المدن السومرية اور ونيبور (نفر) وكانت اور قريبة جدا الى البحر الشرقي (الخليج العربي) ، وتدلنا الابحاث التي كتبها علماء الاثار عن السومريين أنهم بلغوا كعبا عالية في مضمار التقدم ، ولم يـــكن

تقدمهم قاصرا على نظام الحكم لديهم وحسب ، وانما تعداه الى الاداب والفنون ايضاً .

وقد نشأت الحاجة الى الكتابة بازدياد نفوذ السومريين على ماجاورهم من القبائل والمدن ، فقد مكنهم هذا النفوذ السياسي من جباية الضرائب والاتاوات التي فرضوها على المدن والاقاليم الواقعة تحت سيطرتهم ، وقد احتاجوا الى الكتبة ليسجلوا مجموع هذه الضرائب ولارسال الرسائل والاوامر الملكية الى حكام المدن والاقاليم الخاضعة لسيطرة الملك السومري. وبالاضافة الى ذلك احتاج الملوك الى الكتبة الذين يدونون اعمالهم التي قاموا بها ، فقد دلتنا الآثار التاريخية التي اكتشفها المنقبون على ان الملوك كانوا يامرون الكتبة بتسجيل أعمالهم على تماثيلهم أو في ألواح طينية خاصة ، وفي المتحف العراقي تمثال سومري من حجم الديوريت لحاكم مدينة لكش القديمة (على كتفه الايمن وظهره حقول من الكتابة المسمارية التي تذكر اسم هذا الحاكم وألقابه وأعماله البارزة)[١].

ومن هنا نشأت الحاجة الى تعلم الكتابة وتعليمها[٢] في مدارس خاصة، وقد دلتنا أبحاث علماء الاثار على ان هذه المدارس كانت عبارة عن غرفة أو بضعة غرف ملحقة بالهياكل الدينية[٣] ولذلك سميت بمدارس الهياكل، ويبدو أن الكهنة هم الذين كانوا يقومون بمهمات التدريس[٤] .

ومن الجلي أن تتأثر المدارس هذه بالنظام القائم آنذاك ، فقد كان المجتمع منقسما الى ثلاث مراتب ، الاولى مرتبة الاحرار وهي تشمل رجال الدين وكبار موظفي الحكومة . والثانية مرتبة الاحرار الاقل من منزلة المرتبة الاولى ، والثالثة مرتبة العبيد[٥] . ويبدو ان أبناء المرتبة الاولى كانوا يتمتعون بقسط وافر من التعليم ، اذ ان تعليمهم يستهدف غرضين : الاول تمكينهم من أن يكونوا رجالا للدين في مستقبل أيامهم[٦] والثاني تمكينهم من أن يكونوا موظفين كبار في الدولة وكتبة معروفين في الاوساط الحكومية العليا . وبهذا تكون أغراض التعليم متقسمة الى قسمين : الاول هو الغرض الديني الذى يستهدف بث الايمان الديني في نفوس الشباب وتنشأتهم للدفاع عن هذا الدين ، والثاني هو الغرض الادارى الذى يستهدف تزويد الدولة بالموظفين القادرين على أداء المهام الموكولة اليهم .

أما أبناء المرتبة الثانية والثالثة فيبدو أنهم حرموا من هذا النوع من التعليم ، ولكن لايجوز لنا أن نعتبر هذا الحرمان نهائيا ، اذ ان الدولة ليست في حاجة الى رجال الدين والموظفين فحسب ، وانما هي في حاجة الى الجنود الذين يدافعون عن ممتلكاتها ويحمونها من غارات المعتدين وتمرد المدن الخاضعة لسيطرة الدولة . ولهذا السبب فنحن نستطيع ان نستنتج وجود ضرب من أضرب التعليم الحربي الذي يعلم فنون القتال . وليس من المستبعد أن يكون تعلم فنون القتال واجبا مفروضا على جميع أبناء طبقات المجتمع كما هو الحال عند الفرس الاقدمين[٧] .

وهناك ميزة تميز التعليم عند السومريين ، فقد كان هذا التعليم يشمل البنين والبنات وقد ذكر السير ليونارد وولي Sir Leonard Woolley في أبحاثه عن حضارة وادي الرافدين مايلي : « كانت في المعابد حجرات منعزلة تتلقى فيها الفتيات فن الموسيقى على أيدي الكاهنات ليصبحن محترفات فيها »(٨) .

والظاهر من هذا الكلام ومن دراسة أوضاع المجتمع السومري ، ان الحاجة الاقتصادية والدينية هي التي كانت تحدد مناهج التعليم لديهم : فالحاجة الى تنظيم الضرائب واستحصالها دفعت الكهنة الى تعليم الارقام والمسائل الحسابية التي تتصف ببساطة تركيبها ، وقد عثر علماء الاثار على الواح طينية مدرسية « وعليها جداول للضرب والقسمة والجذور التربيعية والتكعيبية ومسائل في الهندسة التطبيقية »(٩) .

والحاجة الى انشاد الترانيم الدينية في الهياكل في اوقات تقديم القرابين للآلهة وفي الاعياد والاحتفالات العامة ، هي التي دفعتهم الى تعليم الفتيات الفنون الموسيقية . ويستفاد من الابحاث الاثرية ان الالات الموسيقية التي عرفها السومريون كثيرة : ومنها المزمار والقيثارة والطبل والصنج والعود والطار(١٠) وفي المتحف العراقي قيثارة سومرية ذات شكل يتصف بوجود رأس ثور من الذهب ذي عينين من الصدف وحجر اللازورد ينتهي بلحية شعر ناصية .(١١)

ولا ريب ان دراسة اللغة كانت تتم لديهم بطريقة بدائية ساذجة ،وهي تعلم الكلمات . وهذا راجع الى ان اللغة لم تتطور تطورا كافيا يتيح لها ان تكون ذات قواعد خاصة ، وقد اكد وولي في أبحاثه عدم وجود قواعد للغة(١٢) وبالاضافة الى ان المناهج الدراسية كانت تضم دراسة الكلمات والحساب والهندسة والموسيقى ، فهي تضم دراسة التاريخ أيضا ، وقد عثر على ألواح طينية وجدت فيها معلومات تاريخية ، وجاء في أحد هذه الالواح الطينية حديث عن بداية الخليقة ورد فيه مايلي :« ان الانسان في اول خلقه لم يكن يعرف شيئا عن خبز يؤكل او ثياب تلبس ، فكان الناس مكبين على وجوههم يقتلعون الاعشاب بأفواههم ليقتاتوا بها كما يقتات بها الاغنام ، ويشربون الماء من حفر في الارض »(١٣)

وربما كانت هناك دروس خاصة للادب والشعر فـ « ان بعض ماعثر عليه من سجلات الملوك كان مكتوبا بلغة شعرية ، ويبدو لنا انه لم تكن هناك قافية للشعر بل تتألف القصيدة من مقطوعات يتكون كل منها من بيتين لهما وزن واحد ويعبران عن أفكار مترابطة »(١٤) .

ولم نجد في مصادر بحثنا ما يدلنا على طرق التعليم السائدة عند السومريين ، ولكننا نستطيع ان نفترض ان هذه الطرق لاتختلف بحال من الاحوال عن طرق التعليم السائدة في مصر أيام الفراعنة حيث كان « الاملاء ونقل النصوص من أهم طرق التعليم »(١٥) عندهم ، ولا يغرب عن البال

ان لهذه الفرضية ما يبررها . وهو تشابه النظم التعليمية في سومر ومصر آنذاك ، فقد ذكر لنا ول ديورانت Edward Chiera عند حديثه عن مصر أيام الفراعنة ان « الكهنة كانوا يلقنون أبناء الاسر الغنية مبادىء العلوم في مدارس ملحقة بالهياكل » وان « عمل المدرس في تلك الايام هو تخريج الكتبة للقيام بأعمال الدولة »(١٦) فيكون قريبا الى المعقول ان نفترض ان طـــرق التعليم كانت متشابهة في كل من سومر ومصر آنذاك مادامت غاية التعليم وامكنته متشابهة .

ويجدر بنا قبل ان نختتم حديثنا عن التعليم عند السامريين أن نذكر شيئا عن « قرطاسية » مدارس الهياكل أيامذاك ، نبت بما لايقبل الجدل انهم كتبوا على ألواح طينية ، وقد اكتشف من هذه الالواح العدد الكبير. كما انهم كتبوا ايضا على الخشب وقد « وجد في خرائب بعض المـــدن القديمة في وسط آسية عدد كبير من ألواح الخشب الطويلة »(١٧) ويميل أدوارد كييرا الى الاعتقاد بأن السومريين استخدموا الخشب في نفس الغرض الذي استخدموا فيه الطين ، أي للكتابة عليه .

من كل ما تقدم نستطيع ان نقول ان اهتمام السومريين بالتعليم علامة من علامات مدنيتهم وحضارتهم ويمكن للمؤرخين ان يقولوا في ثقة تامة ان بذور الثقافة العصرية انما غرسها الرجال الاقدمون الذين عاشوا في بـــلاد سومر الجميلة .

التعليم عند البابليين :

ها نحن ننتقل الى بابل ذات الحدائق المعلقة ومهد الحضارة الثاني في أرض الرافدين وحيث تعود الذاكرة بنا فورا الى اسم المشرع القـــانوني العظيم : حمورابي .

لقد اخذ البابليون حضارة سومر وقاموا بانماء جوانب واسعة منها ، كما انهم بالاضافة الى ذلك وضعوا اللبنات الاولى في ابنية بعض العـــلوم وهذا كله دفع بادوارد كييرا الى ان يهتف بقوله « ان العقل البابلي لم يكن له مثيل »(١٨)

واذا كنا قد وجدنا التعليم عند السومريين منحصرا في مدارس الهياكل لايتعداها الى امكنة اخرى ، فاننا نجد ان البابليين قد وسعوا مجالات التعليم: فهناك مدارس نظامية ملحقة بالهياكل الدينية وهي عبارة عن غرفة او بضعة غرف من بناء الهيكل نفسه . واذا ما علمنا ان جميع المدن الكبيرة والصغيرة كان بها هياكل خاصة بها ادركنا على الفور ان مدارس الهياكل النظامية ــ التي يتولى فيها التدريس الكهنة انفسهم ــ كانت منتشرة في جميع المدن . ويبدو انه كلما كان المعبد كبيرا كلما كان مستوى المدرسة العلمي مرتفعا. فقد ذكر لنا كييرا ان « امكانيات تدريس العلوم والاداب لم تكن تتوفر الا في أحياء المعابد الكبيرة »(١٩) . وقد كشفت مديرية الاثار العامة قبل فترة

وجيزة ألواحا طينية « تتضمن معرفة مدهشة بخصائص الاشكال الهندسية وقوانين العدد الاساسية » مما حمل الاختصائيين العراقيين الى الاعتقـــاد « بأن هذا الموضع ــ تل حرمل ــ كان بمثابة أكاديمية أو كلية اسمهاالقديم (شاد بوم) • ويكون تل الضباعي بدوره ايضا كلية اخرى من مراكـــز العلوم التي ازدهرت في حضارة وادي الرافدين قبل اربعة الاف عام »[٢٠] وهذا يشير ايضا الى وجود معبدين كبيرين في هذين الموضعين •

وبالاضافة الى مدارس الهياكل هذه ، كان ثمة تعليم خصوصي ، وقد انتشر التعليم الخصوصي انتشارا واسعا اذ كان المعلمون منتشرين في سائر المدن والقرى ، ويذكرنا هذا النوع من التعليم بالمدارس الاهليـــــة التي يؤسسها الافراد او المنظمات في أيامنا هذه •

وكان التلميذ البابلي حرا في اختيار نوع التعليم الذي يرغب فيه ، فقد كان بامكانه ان ينتمي الى احدى مدارس الهياكل ، كما كان بامـــكانه ايضا ان ينتمي الى احد المعلمين الخصوصيين • وأقول « ينتمي » لان المعلم الخاص كان يتبنى تلميذه ويعامله معاملة الاب لابنه ويستمر هذا التبني الى ان يصبح التلميذ في مرتبة استاذه في الكفاءة العلمية[٢١] •

والظاهر ان التعليم الخصوصي كان ذا وظيفة مزدوجة ، فهو من جانب يعد التلميذ الذي يطمح الى الاستزادة من المعرفة للدخول في مدارس الهياكل ومن جانب اخر يعد التلميذ لاشغال مهنة الكتابة للاعمال التجارية واعمال الدولة • ومن هنا نستطيع الاستنتاج ان التعليم الخصوصي عند البابليين كان قاصرا على تعليم الكتابة والقراءة ، فهو يشبه في بعض وجوهه التعليم الابتدائي عندنا • ويمكن ان يضاف الى تعليم القراءة والكتابة تعليم المهنة ، وقد اجازت قوانين حمورابي (المادة ١٨٨) للصانع ان يتبنى ولدا ويعلمه مهنته وعند ذاك لايكون من حق أبيه الحقيقي المطالبة باسترجاعه بينما يكون له هذا الحق اذا رفض الصانع تعليم ولده المتبنى مهنته ، واجازت المـــادة (١٨٥) أن يتبنى المواطن البابلي ولدا باسمه شريطة تربيته ، فاذا رباه لايستطيع ابوه الحقيقي المطالبة باسترجاعه •[٢٢]

ولا يوجد في قوانين حمورابي مادة قانونية تتعلق بالتعليم النظامي ، وليس من المستبعد ان تكون بعض المواد المخربة تتعلق بهذا النوع من التعليم ولكن من الجائز ايضا ان عدم عناية هذه القوانين بالتعليم النظامي ناشئة عن كون هذا التعليم يتم في معابد الالهة ، فاربما منعت قدسية هذه المعابد المشرع القانوني من التدخل في شؤونها •

ومادام التعليم ينقسم الى صنفين ــ كما اوضحنا ــ فان المدرســـين بدورهم كانوا ينقسمون الى صنفين أيضا :

الاول هم الكهنة الذين يقومـــون بأداء المهام التعليميـــــة في مدارس الهياكل[٢٣] ويبدو ان الكهنة كانوا يهتمون بتعليم المبادىء الدينية والحث على التمسك باهداب الفضيلة ، فقد كشفت التنقيبات الاثرية عن غرفـــة

دراسية وجدت فيها ألواح طينية حكم أخلاقية ونصائح باتباع تعاليم الالهة ·(٢٤) أما الصنف الثاني من المدرسين فهم الخصوصيون ·

واذا اردنا معرفة مناهج الدراسة ، فان منهج اللغة البابلية سيكون الاول في ترتيب هذه المناهج ، وذلك عائد الى ان اللغة البابلية اكتسبت أهمية استثنائية ، فهي قد أصبحت اللغة الدبلوماسية الرسمية في الشرق الادنى في ذلك الحين(٢٥) ، ولاريب ان سبب ذلك هو قوة النفوذ السياسي لمملكة بابل - ويبدو ان الخط كان من أهم الطرق لتعلم اللغة ، فقد كان الاستاذ يخط بضعة كلمات في الجهة اليسرى من رقيم الطين ثم يطلب من تلميذه أن يقلد خطه هذا في الجهة اليمنى(٢٦) واذا تيسر للتلميذ بعد ذلك ان يتعلم القراءة والكتابة أمكنه ان يتلقى دروسا أوسع لتعلم اللغة ، ومن هذه الدروس كتابة مزامير الابطال أو الملاحم او التراتيم الدينية باتقان أو تلقي تمرينات خاصة في الاملاء(٢٧) .

وتشهد الاثار التاريخية المتخلفة والتي عثر عليها المنقبون على ان البابليين ، أولوا العلوم الرياضية أهمية خاصة ، وقد أظهرت تنقيبات مديرية الاثار في تل الضباعي وتل حرمل هذه الحقيقة بشكل واضح جدا ، فقد ورد في بيان المديرية في ١٩٦٢/٩/٩ مايلي : « لقد استطعنا ان نحل أحد تلك الالواح حلا كاملا وهو يتضمن مسألة جبرية هندسية تدور على مستطيل عرف ممره ومساحته وطلب معرفة طوله وعرضه · وقد اتبع الرياضي العراقي القديم في ايجاد المجهولين طرقا جبرية بارعة تطابع طرق الجبر الحديثة مما يتبعه طلابنا في العصر الحديث الى درجة تدعو الى الدهشة فانه أولا يستخدم علاقة مربعي ضلعي المثلث القائم الزاوية بمربع وتره وهو مما يعرف الان بنظرية فيثاغورس ـ القرن الثالث قبل الميلاد ـ ولكن هذه المسألة ومسائل اخرى معروفة سابقا من رياضيات العراق القديم تدل على سبق رياضيي العراق القديم في معرفتهم بتلك النظرية بما يزيد على (١٥٠٠) عام · وبالاضافة الى استعمال ذلك الرياضي القديم لنظرية فيثاغورس فانه يستخدم في حل تلك المسألة قوانين اساسية في علم الجبر الحديث مثل قانون مربع مجموع عددين وقانون مربع الفرق بين عددين لتكوين معادلات جبرية آنية في ايجاد المجهولين »

وليس أدل على اهتمام البابليين بالعلوم الرياضية من ان جوستاف لوبون عندما أراد ان يوضح الفارق بين الحضارة البابلية والحضارة الاشورية قال : « ان بابل لم تتفوق الا من حيث التهذيب العقلي ، اما نينوى فكان تفوقها بقوة جيوشها »(٢٨) بل انه ذهب الى القول بان العلوم الرياضية انما ترعرعت في بابل ومنها انتشرت الى نينوى(٢٩) ، ويرى كيبرا ان البابليين هم الذين وضعوا القوانين الاساسية للرياضيات(٣٠) وانهم بلغوا مرتبة عالية في علمي الجبر والهندسة(٣١) .

وقد اهتم البابليون ايضا بعلم الفلك ، وكان هذا العلم مرتبطا ارتباطا

وثيقا بالتنجيم والكشف عن الطالع وعن المستقبل ، ومع ذلك فان التنقيبات الاثرية أظهرت انهم هم الذين وضعوا أسس هذا العلم[٣٢] وقد ذكر لوبون في كتابه عن حضارة بابل وآشور ان البابليين أقاموا مراصد هرمية عالية وذلك الى جانب قصور الملوك أو في المعابد الكبيرة ، وكان الملك بنفسه يشرف على عمل الراصدين فيقرأ تقاريرهم ويبدي رأيه في كل أمر من امورهم[٣٣] وربما يعود اهتمامه هذا الى ان الراصدين كانوا يكشفون باستمرار عن طالع الملك ومستقبله .

وقد ادى اهتمام البابليين بكتابة الاساطير عن آلهتهم الى تكوين الادب البابلي وتأليف الكتب الادبية الرفيعة التي استخدمت في أحايين كثيرة لتعليم الكتابة في مدارس بابل[٣٤] وربما تكون ملحمة جلجامش من اهم الاساطير البابلية المكتوبة ، ويليها في الاهمية قصة الخليقة التي عثر على عدة نسخ منها ، وتتميز هذه القصة بآراء قديمة عن الكون فيها أسس فلسفية . أما المزامير والتراتيم البابلية فقد كانت تتجه الى « تمجيد الآلهة والملوك المؤلهين ايضا .. ويبين عدد من هذه المزامير سلالم الغناء والنغمة التي يجب استعمالها »[٣٥] . وهكذا نرى ان الاهتمام بتاليف التراتيم والمزامير قادهم الى الاهتمام بالفنون الموسيقية ، ولا ريب ان البابليين كانوا يعرفون الالات الموسيقية التي سبق للسومريين ان عرفوها ، وربما اخترعوا آلات اخرى لم يتم اكتشافها بعد .

ويمكن الاستدلال على تقدم علم الطب من مراجعة قوانين حمورابي ، وقد حددت هذه القوانين أجرة الطبيب لكل عملية جراحية ، كما فرضت على الطبيب عقوبات خاصة اذا ما أخفق في عمله ، وهذه العقوبات متباينة وفقا للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المريض ولدرجة خطورة العملية .

ويمكن ان نضيف الى علوم البابليين : علوم التاريخ والفلسفة والاثار ايضا .[٣٦]

ولا ريب في ان غالبية « قرطاسية » البابليين كانت تتالف من رقم الطين ، وقد كانوا يستخدمون هذه الرقم الطينية لا لكتابة مؤلفاتهم ورسائلهم وأساطيرهم فقط وانما « لكتابة وثائق البيع والشراء وكتابة سجلات المقايضة والمعاملات التجارية »[٣٧] أيضا .

وقد اهتم البابليون بتعليم البنات وكان هذا الاهتمام يماثل تماما اهتمامهم بتعليم الاولاد[٣٨] وهم في هذه الناحية يشبهون السومريين ، وربما أصبحت البنت المتعلمة كاتبة تدر عليها مهنتها المال .

من كل ما تقدم تستطيع ان نشير الى وجود نهضة تعليمية وعلمية تتميز بها الحضارة البابلية ، وقد استطعنا الالمام بهذه النهضة عن طريق وصول العديد من الاثار القديمة الينا ، ولاريب ان اعظم هذه الاثار هي مكتبة آشور بانيبال ، وسياتي الكلام عنها .

التعليم عند الاشوريين :

انتقلت الحضارة في وادي الرافدين - في باديء الامر - من سومر في جنوب العراق الى بابل في وسطه ، ثم مالبثت ان انتقلت باتجاه الشمال الى نينوى ، ونينوى هي عاصمة الامبراطورية الاشورية المترامية الاطراف، ولا ريب ان من أعظم ملوك الاشوريين ملكان : الاول هو سرجون الثاني (٧٥٠ - ٧٢١ ق·م) والثاني آشور بانيبال ·

وقد اهتم الاشوريون بالتعليم ايضا ولكن يبدو ان هذا الاهتمام لم يكن عظيما ، اذ قلل منه اعتمادهم على القوة الحربية في بسط نفوذهم على المدن والاقاليم المجاورة لهم ، وانشغالهم في سبيل الحفاظ على هيبة الامبراطورية بالحروب وحملات الفتح وقمع الثورات · وقد وصلت الينا - عن طريق رقم الطين - الكثير من المعلومات عن حروب الاشوريين ، ولكن مع الاسف لم تصل الينا من المعلومات عن التعليم عندهم الا القليل ·

ومن القليل الذي وصلنا من هذه المعلومات نستطيع ان نستدل على ان مدارس الهياكل كانت منتشرة لديهم فقد عثر المنقبون في مدينة (دور شروكين) - حاليا خرسباد على يمين الطريق بين الموصل وعين سفني - على معبد صغير وجدت فيه مدرسة « تتكون من صف مستطيل فيه مقاعد من اللبن »(٣٩) وهذا يشير الى ان الاشوريين اتبعوا نفس الخطى التي خطاها البابليون ومن قبلهم السومريون - في نظمهم التعليمية ، وعلى هذا فنستطيع القول ان التعليم لديهم كان يتم في المعابد ، وان الكهنة هم الذين كانوا يتولون مهام التدريس وليس من المستبعد ان يكون لديهم ضرب من أضرب التعليم الخصوصي ، وان كنا الى الان لانعرف ماهية هذا التعليم اذ لم تصلنا معلومات بخصوصه ·

ويذكر ادوارد كييرا ان بلاطات ملوك الاشوريين « كانت في تلك الازمان مراكز مهمة للثقافة »(٤٠) وعلى هذا الاساس فليس من المستبعد ان بعض ملوكهم أسسوا مدارس خاصة في بلاطاتهم ، فاذا صح ذلك يكون سرجون الثاني وكذلك آشور بانيبال هما اللذان ساندا بقوة احتمال وجود هذا النوع من التعليم - أي في البلاطات الملكية - فقد عرف عن سرجون الثاني كونه نصيرا من أنصار الفنون ، وكذلك أمكن للمؤرخين ان يلاحظوا « نهضة وتذوقا للادب » في عهده(٤١)

ومن المؤكد ان النهضة الثقافية ازدهرت في عهد آشور بانيبال - وهو من ملوك الاشوريين المتأخرين زمنيا - وكان آشور بانيبال هذا من أعظم الملوك الذين شغفوا بالمعرفة حتى انه أسس في بلاطه الملكي مكتبة عظيمة كشف المنقبون عن بعضها ، ويحتوي هذا «البعض» على واحد وثلاثين الفا من رقم الطين في مختلف العلوم والاداب ، ففيها كتب ادبية وطبية ورياضية وفلكية وجغرافية وتاريخية وفلسفية ، بالاضافة الى الكتب الدينية والاساطير وأخبار ملوك الاشوريين · وقد ادت هذه المكتبة فضلا لاينكر في

الكشف عن الاداب السومرية والبابلية ، اذ انها هي التي حفظت لنا هـذه الآداب ، فقد عهد آشور بانيبال الى كتبته بمهمة ترجمة المؤلفات السومرية والبابلية الى اللغة الاشورية ، كما عهد الى هؤلاء والى جميع ولاته في المدن بمهمة جمع المؤلفات السومرية والبابلية واستنساخها ، فكان الكتـــاب يتجولون في جميع المدن بقصد جمع المؤلفات التي كانت محفوظةفي المعابد(٤٢)

وقد بلغ شغف آشور بانيبال بالمعرفة حدا جعله يقوم بنفسه بترجمة الكتب السومرية والبابلية ، فكان مما ترجمه المؤلفات التي كتبها الملك السومري سرجون Sarrukinu (٤٣) كما انه ـ أي اشور بانيبال ـ كان يفتخر بتردده على مكتبته الكبيرة وبالقيام باستنساخ رقم الطين السومرية والبابلية(٤٤) .

وليس لدينا من المعلومات عن مناهج التعليم عند الاشوريين الا النادر جدا ، ومن هذا النادر نستطيع ان نعلم انهم كانوا يتذوقون الشعر ، بل انهم كانوا يكتبون ألوانا من الشعر الغنائي في تمجيد آلهتهم ويقومـــون بانشاده بالاستعانة ببعض آلات الطرف(٤٥) وقد وصلت الينـــا بعض أقاصيصهم ولا ريب انها متأثرة بالاساطير السومرية والبابلية .

وعلى أية حال ، فان أعمال التنقيبات الاثرية في المستقبل ستكشـــف بالتأكيد معلومات وافرة عن نظامهم التعليمية ، والاقرب الى المعقول ان تكشف هذه التنقيبات عن وجود نوع من أنواع التعليم الحربي لديهم اذ ان طبيعة دولتهم القائمة على القوة الحربية نحتم عليهم تعليم أولادهم ـ وربما بناتهم أيضا ـ فنون الحرب ، والدليل على هذا الاحتمال ان دولتهم ما لبثت ان انهارت بعد سنوات قليلة من ضعف قوتهم الحربية .

خاتمة : بين وادي الرافدين ووادي النيل :

كان علماء الاثار الشرقية في مطلع هذا القرن يرون ان منشأ الحضارة كان في وادي النيل أولا ومن ثم انتقل الى وادي الرافدين ، ولكن الاكتشافات الاثرية ما لبثت ان دلت على سبق حضارة السومريين لحضارة وادي النيل . وقد ذهب بعض الاخصائيين الى القول بان المصريين الفراعنة تعلموا الكثير من انجازات وادي الرافدين الحضارية ، فقد ذكر هنري فرانكفـــورت Henri Frankfort «ان سومر كانت تقدم (لمصر) الافكار الثقافية»(٤٦) وهو يميل الى الاعتقاد بأن منشأ الكتابة كان في بلاد الرافدين ، ويأتي ببعض الدلائل على انتقال الكتابة بعدئذ الى وادي النيل(٤٧) . فاذا صح ذلك ـ وأظنه أقرب الى الصحة منه الى الخطأ ـ يكون التأثير الثقافي لحضارة وادي الرافدين في حضارة وادي النيل كبيرا جدا . ولنا بعد هذا ان نردد مـــع فرانكفورت قوله « يمكن اغفال تأثير ما بين النهرين (في مصر) كليـا في ميدان الكتابة »(٤٨)

ومهما كان الحال فمن المؤكد ان التنقيبات الاثرية ستكشف في المستقبل

القريب عن الكثير من الدلائل التي تؤيد ان العراق كان في العصور القديمة شمسا باهرة في فجر الحضارة ٠

●

الملاحظات ومصادر البحث :

(١) دليل المتحف العراقي ص٣ ، بغداد ١٩٣٧ ٠

(٢) يرى سبايزر E. A. Speiser ان غريزة التملك عند الافراد هي التي قادت السومريين الى تمييز الممتلكات « بواسطة علامات شخصية منقوشة على اختامهم الاسطوانية » وهو يرى أن هذه النقوش قد تطورت بصورة تدريجية لتصبح فيما بعد اللغة السومرية وليكتب بها « أقدم السجلات المكتوبة » و « أقدم أشكال الكتابة الفعلية في أي مكان » ٠
سبايزر : العراق القديم نور لم ينطفىء ، اصدار وزارة الارشاد ص١٦ ــ ١٧ ٠

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ج٢ تعريب محمد بدران ، القاهرة ١٩٥٠ ص٣١ ٠

(٤) نفس المصدر والصفحة ٠

(٥) ليونارد وولي : وادي الرافدين مهد الحضارة ، تعريب أحمد عبد الباقي ، بغداد ١٩٤٨ ص٤٤ ٠

(٦) ول ديورانت ج٢ ص٣١ ٠

(٧) نفس المصدر ص٢٣٣ ٠

(٨) وولي ص٨٢ ٠

(٩) ديورانت ج٢ ص٣١ ٠

(١٠) وولي ص٨٢ ٠

(١١) دليل المتحف ص٤٣ ــ ٤٤ ٠

(١٢) وولي ص٣٠٣

(١٣) ديورانت ج٢ ص٣١ ٠

(١٤) وولي ص٨١ ٠

(١٥) ديورانت ج٢ ص١٠٥ ٠

(١٦) نفس المصدر ص١٠٤ ــ ١٠٥ ٠

(١٧) ادوارد كييرا : كتبوا على الطين ، تعريب الدكتور محمود الامين ، بغداد ١٩٦٢ ص٧٧ ٠

(١٨) كييرا ص٩٣ ٠

(١٩) نفس المصدر ص١٦٠ ٠

(٢٠) بيان مديرية الاثار بتاريخ ٩ــ٩ــ١٩٦٢ ٠

(٢١) كييرا ص١٨٩ ٠

(٢٢) الدكتور محمود الامين : قوانين حمورابي ، مجلة كلية الآداب العدد ٣ كانون الثاني ١٩٦١ ص٥٨ ٠

(٢٣) ديورانت ج٢ ص٢٢٨ ٠

(٢٤) نفس المصدر والصفحة ٠

(٢٥) كييرا ص٢٣٧ ٠

(٢٦) نفس المصدر ص١٩١ ٠

(٢٧) نفس المصدر ص١٩٦ ٠

(٢٨) جوستاف لوبون : حضارة بابل وآشور ، تعريب محمود خيرت المحامي ، القاهرة

١٩٣٧ ص٢٩ ·

(٢٩) نفس المصدر ص٦١ ·

(٣٠) كبيرا ص١٧٧ ·

(٣١) نفس المصدر ص١٨٠ ·

(٣٢) نفس المصدر ص١٨١ ·

(٣٣) لوبون ص٥٣ ·

(٣٤) كبيرا ص٢٣٨ ·

(٣٥) نفس المصدر ص١٣١ ·

(٣٦) ديورانت ج٢ ص٢٦٢ ·

(٣٧) كبيرا ص٨٧ ·

(٣٨) ديورانت ج٢ ص٢٢٣ ·

(٣٩) من تعليق للدكتور محمود الامين في ترجمته لكتاب كبيرا ص١٩٢ ·

(٤٠) كبيرا ص١٩٦ ·

(٤١) نفس المصدر ص١٩٩ ·

(٤٢) نفس المصدر ص١٩٩ ·

(٤٣) لوبون ص٣٣ ·

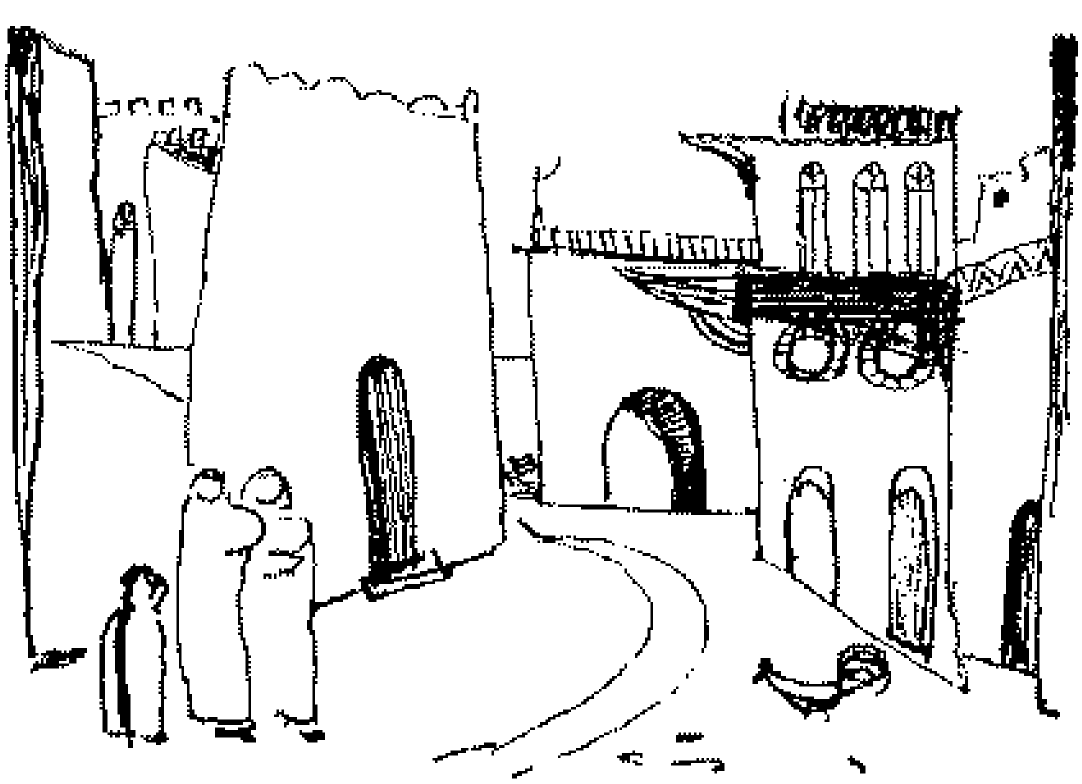
(٤٤) من تعليق للدكتور محمود الامين في ص١٩٩ من كتاب كبيرا ·

(٤٥) لوبون ص٥٠ ·

(٤٦) هنري فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى ، تعريب ميخائيل خوري ، بيروت ١٩٥٩ ص١٠٣ ·

(٤٧) نفس المصدر ص١٣٥ ــ ١٣٨ ·

(٤٨) نفس المصدر ص١٤٢ ·



الشاعر

نور الدين محمود

قلب اليتيم اذا بكى   او ظل يندب في سكون
وفم المعذب ان شكا   ار اخرسته مدى السنين
كشف المظالم والشرور

* * *

والوردة البيضاء في ألق الصباح ومهجة الفجر المنير
والسوسن الريان من معنى الالوهة صاغ رفرفة العبير

* * *

والفجر يخلع عنه اردية الظلام ويوقظ الكون النؤوم
فتنازل الاطيار اطياف الاشعة في غناء مستديم

* * *

والصبح في اسنى ضيا   فيه انتفاضات الحياه
في سحره دفق السنا   كالفيض من نبع الاله ..
تتدفق الاكوان نور

* * *

في هدأة الريش المنعم ، كالنعاس وفي ارتعاشات الضياء
في سكرة العذراء عبر التيه ... عبر خيالها الصافي المضاء

* * *

في سحر نيسان الجميل وفوق كفيه الربيع الناضر
يمشي ، كما يهوى ، وفي شفتيه يبتسم الوجود العاطر

* * *

في سرب نحل حائم   فوق الزهور يرنم
مثل الفراش الحالم   تلك الزهور تبتسم
في ثغر نيسان الغرير

* * *

في حـــرقة الام الحنـــون على فتاهـــا ، كالرياح النائحـــه
قطفت تأوهها من اللهب المؤجـــج والسمـــوم اللافحـــه

* * *

في حـــيرة المـــلاح مزقت الرياح شراعه وســـط البحـــار
فغـــدا شريدا كالغمـــائم في السمـــاء فمـــا لـــه ابدا قـــرار

* * *

في كـــل آيات الحيـــاة يحيـــا بقلـــب خافـــق
في روحـــه ســـر الالـــه أعطـــى معـــاني الخـــالق
كالزهـــر يطفـــح بالعبـــير

* * *

في ثغـــره شـــوق لقبلة آدم في ثغـــر حـــواء الجميـــل
وبصـــدره طعنـــات قابيـــل لهابيـــل تدفق كالسيـــول

* * *

في سمعه تدوي المطارق وهي تكسو بالدما كفي « يســـوع »
في سمعه خطو لناقة « احمـــد » تطوي الفيـــافي في خشـــوع

* * *

في قبلـــه يحيـــا الوجـــود وتلـــوح اســـرار العـــدم
عرف الطريق الى الخلـــود فســـرى عـــلى درب النغـــم
كالنحـــل يجـــذبه العبـــير

* * *

الشـــاعر الفنـــان بعض كيـــانه هـــذي المشاعر والفكـــر
والشـــاعر الموهـــوب بعض ألوهـــة خلاقـــة بين البشـــر

* * *

يا بذرة النور الوضيء ، على خطـــاك مشـــاعل تمحو الضـــلال
انت الذي يهـــدي الأنام وانت انت على المـــدى عبـــر الخيـــال
يا زورقـــا في نهـــر طيب يسري بـــه سرب الفراش
كـــم ود لو ضـــل الدروب في نهره الهادي وعاش ...
كاللحـــن في شفـــة الطيـــور

تونس ـ نورالدين صمود

تالب هـــذه القصيدة جائزة الجامعة اللبنانية في مسابقة حـــكمها : فؤاد افرام البستاني وبطرس البستاني والدكتور جبرائيل جبور والدكتور عباس علم الدين وغيرهم .. سنة ١٩٥٩ ـ السنة التي تخرج فيها الشاعر من تلك الجامعة .

البيت الجديد

للكاتب الامريكي

ارسكين كالدويل

ترجمة

عبد الله نيازي

توقف « ديفي ميلارد » بالقرب من المستنقع ، ثم جعل يغسل يديه ووجهه بالماء الصافي الذي كان يجري هادئا في الساقية مخترقا الممر الخشبي .. لقد كان ، في كل ليلة تقريبا ، وهو في طريقه الى البيت ، يقف عند الساقية ويغتسل بمائها ، وكان بامكانه ان يدرك ان مياهها تتناقص شيئا فشيئا عما كانت عليه من قبل .

منذ شهرين ، حينما شرع في نحت الاخشاب التي يحتاجها البيت الذي يقوم بتشييده ، كان الماء يندفع في مسارب الرمل بقوة كافية لان يدفع معه فروع الاشجار وجذوعها التي تغرس في المستنقع ، ولكن منذ ان توقفت أمطار الشتاء عن الهطول ، ومياه المستنقع تتناقص ، وقد كان الغرين الناعم يبدو بوضوح في قعره ولم يكن كذلك مؤذيا لما كان يغطيه من حشائش . وكان نبات السرخس الاخضر ، والنباتات المتسلقة التي ازدهرت في الربيع والصيف تملأ الفجوات وتنتشر في الارض الصلبة .

ولقد كان ديفي يعيش طوال حياته بالقرب من المستنقع ، وكان يحس احساسا غريزيا بخطورة العيش هناك ..

وبعد ان اجتاز بحذر سلسلة الاعشاب وعبر الجانب الآخر من المستنقع أخذ ديفي يعدو ما تبقى من المسافة التي ما كانت تزيد على الميل عن البيت ، ولكن الممر المؤدي اليه من خلال أشجار الصنوبر الكثيفة كان ضيقا وملتويا بعض الشيء .

كان القمر آنذاك يتوسط كبد السماء ويرسل نوره على الطبيعة فتضحى الغابة التي كان يتخللها الضوء اللجيني كما لو انها تسبح في فيض من النور .. وما كاد ديفي يبصر طريقه بوضوح حتى أخذ يسرع في العدو ..

وكان المكان الذي يقام فيه بيته هادئا ساكنا سكون غابة الصنوبر التي تحيط به . ولم يكن هناك ما يعكر ذلك الهدوء ، حتى الدخان الذي يتصاعد من المداخن المجاورة كان قد انقطع ولم يبد منه شيء .. ولو لم

يكن ديفي قد اعتاد ان يرى تلك البقعة في الليل ويعرفها جيدا لقال عنها انها منطقة مهجورة ..

واصغى ديفي لحظة وهو يفتح الباب بهدوء ، ومن خلال الشباك المكسور كان نور القمر يتسلل الى الغرفة المظلمة ويستقر عند قوائم السرير وبعد ان اغلق الباب خلفه خطا بصمت الى وسط الغرفة ، ولاحت له الكراسي والمنضدة والسرير في العتمة كما لو انها كانت متدثرة بطبقة كثيفة من التراب .

واتجه ديفي الى الصندوق الخشبي وهو يتلمس طريقه في الظلام ، وما ان عثر على المصباح الصنوبري حتى اشعله بعود من الثقاب ، ثم رمى القتيل الذي اخذ يتوهج في المدفأة ، وحينما استدار ، كانت الحياة قد دبت في الغرفة بتأثير ذلك الضوء الاصفر المرتعش ، وعادت المنضدة والكراسي والسرير تلمع لمعانها الاول حين جاء بها الى البيت .

وانتصبت « جيني » على الفراش مذعورة ، فسقط الغطاء عن كتفيها ، وانزلق شالها عن صدرها ، وقبل ان تفتح عينيها جيدا راحت تبسم لديفي .. واجتاز ديفي الغرفة وظل يتملاها وهي تزيح عن وجهها خصلات شعرها .

ثم قال متسائلا :

ـ منذ متى وانت نائمة يا جيني ؟ ..

فابتسمت له ثانية وهي تهز رأسها .. واضاف معتذرا :

ـ اظنني تأخرت ثانية هذه الليلة .. لقد بزغ القمر حالما غابت الشمس ، ولكنني ظللت مستغرقا في العمل ، فأنا أريد ان افرغ من البيت الجديد بأسرع وقت ..

أزاحت جيني الغطاء عنها ثم انزلقت عن السرير وأصابع قدميها تمس أرض الغرفة الباردة .

ـ لقد حاولت ان اجعل النار تشتعل في الموقد اطول وقت ممكن ، ولكنني لم أستطع ان اغالب النعاس لاظل يقظة . وأخشى ان يكون عشاؤك قد برد الآن ..

ولقد كان ديفي ينظر اليها وابتسامة عريضة تملأ وجهه كله . وما كادت جيني تمد قدميها لتذهب الى المطبخ ، حتى حملها ديفي بين ذراعيه القويتين وعاد بها الى السرير ، ولقد ظل يحضنها وهو واقف بالقرب من السرير ، ثم ضمها اليه بقوة حتى كاد يمنع عنها التنفس . وجعل يقبلها بشوق ثم القى بها على السرير ، وشعرت جيني كما لو انها تسقط من علو شاهق لا من بعد قدمين فقط ..

وقال ديفي ضاحكا ووجهه لصق وجهها :

ـ لا تأبهي لعشائي .. سأتناوله باردا ..

ثم غادرها الى المطبخ ، وأخذ يتلمس الاشياء في الظلام ، وحين عثر على

الخبز والبطاطة وبعض الحلويات ، عاد وجلس يأكل الى جانب السرير ، وكانت جيني ، أثناء ذلك ، قد استيقظت تماما ..

وتساءلت جيني قائلة :

ــ ألم ينته البيت بعد يا ديفي ؟ .. لقد ضقت ذرعا بالوحدة التي اعانيها هنا طوال اليوم ؟ ..

فاجابها وهو مطرق :

ــ سيكون مهيأ للسكنى خلال أسبوع أو أقل من ذلك ، فحالما انتهي من رصف الغرف نذهب اليه .. اما اطر النوافذ فبامكانها ان تنتظر حتى بعد ذهابنا ، ومهما يكن ، فان تركيب الاطر لا يستغرق أكثر من يومين ..

وكان المصباح الصنوبري في المدفأة يخفق ويضيء بصعوبة ، ذلك لان الفتيلة كانت على وشك الاحتراق .

وحالما حمل ديفي قشور البطاطة الى المطبخ ورجع ، خلع ملابسه بسرعة واندس في الفراش ..

وظلا مضطجعين لفترة دون أن يقول أحدهما شيئا ، وكانت جيني تقترب منه وتلتصق به شيئا فشيئا .. ثم دفن ديفي وجهه في شعرها ..

ولقد كان ديفي على وشك الاغفاء حين همست جيني بشيء ما ..

فرفع ديفي رأسه اليها بعض الشيء وهمس :

ــ لم اسمعك ؟ ..

فقالت جيني بهمس مكتوم :

ــ ذلك الفضولي القديم « بوني كنك » .. جاء هنا ثانية ، هذا اليوم ؟ ..

فاستدار ديفي ثم جلس مستعينا بمرفقه ، وراح ينظر ، خلال الظلام الى وجه جيني .

ــ ماذا يريد ؟ ..

ــ لقد اخبرته بعدم وجود علاقة له معي ، فلا أهمية لما يريد ..

ــ وماذا قال ؟ ..

ــ لم أعر قوله انتباها ، وأخبرته أن يذهب ويعتني بشؤونه ، ولكنه ضحك ساخرا وظل جالسا ..

وازاح ديفي مرفقيه وغرق في الوسادة ، ثم أخذ يتحدث ببطء ويتوقف بين كلمة وأخرى لكي يجعل نفسه ينتظم :

ــ ربما يظن « بوني » انني قد اهجرك حالما أغادر هذ المكان .. أو ربما يظن انني ابني البيت الجديد في الجانب الآخر من المستنقع من أجل فتاة جديدة ..

والتصقت جيني به أكثر لتدفيء رأسها . وكان وجهها يضغط رقبته بقوة ، ثم قالت وهي ترتجف :

ــ أنا لا أعير أهميــة لظنونه ، ولكنني لا أريده ان يجيء كل يوم

ويجلس العصر كله ينظر الي ·· ان ذلك يضايقني جدا ، ولست أدري ما قد يحدث نتيجة ذلك ، فلقد شعرت اليوم برغبة تدفعني الى التقاط عصا وتلقينه درسا لا ينساه ··

وانتصب ديفي على مرفقيه وراح يحملق في الظلام الذي يهيمن على الغرفة ، وكانت جيني ما تزال مستلقية بصمت الى جانبه ، وظل صامتا لم ينفوه بشيء حتى شعر بجيني ترتجف ثانية ··

— اخبري « بوني » اذا جاء هنا ثانية ، انه اذا لم يكف عن مضايقته لك ، فانني ساجعله يأسف ··

— انه ما انفك يردد ، في كل مرة أراه فيها ، فيما اذا كنت اشعر بأسف لانني تزوجتك بدلا منه ··

— وما كان جوابك له يا جيني ؟ ··

— لقد افهمته اليوم ، انني لو لم اقترن بك ، لما اقترنت بأحد غيرك في الريف ··

وطوقها ديفي بذراعيه وشدها اليه بقوة ، وأجهشت جيني قليلا ثم استلقت ساكنة والهدوء يظللها بجناحيه ·· ولم يلبث ديفي حتى شعر بانتظام انفاسها فخمن انها قد استعادت حالتها الطبيعية ، فضغط خدها بشفتيه ثم اغلق عينيه ··

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حين استيقظ ديفي فجأة ، وسرعان ما وجد ان النعاس قد زايله تماما ، فارهف اذنه وهو يرفع رأسه عن الوسادة علّه يقف على الشيء الذي جعله يستيقظ فجأة ، ولكنه لم يسمع اي شيء ، فقد كانت أشجار الصنوبر الموحشة ، خارج الغرفة ، تمتد على اتساع الجهات ميلا بعد ميل ، ولم تكن هناك بيوت على بعد اثني عشر ميلا · والشيء الوحيد الذي كان ديفي يسمعه في مثل تلك الحالات ، هو الخشخشة الاعتيادية لتساقط الاوراق الميتة ، أو مواء يأتي من بعيد لقطة تبحث عن مأوى ، ولكنه في تلك اللحظة لم يكن يسمع شيئا أبدا ··

وحاول ديفي ان يغفو ثانية ولكنه لم يستطع ، فظل مستلقيا باذلا جهده في الا يوقظ جيني ··

وبينما هو كذلك يرقب الفجر ، كانت افكاره تتركز في « بوني كنك » وعزا الارق الذي يشعر به اليه ثم تيقن منه حين كان تفكيره يتجه اليه ويتركز فيه ، وانه هو السبب في ايقاظه بعد منتصف الليل فاستدار الى الوراء قليلا وراح ينظر من خلال شقوق النافذة الى القمر يرسل نوره الى أشجار الصنوبر من الجانب الآخر عبر الحديقة ·

منذ سنة تقريبا وبوني كنك يحاول ان يوجد له المتاعب ، ولكنه كان موقنا ان كل شيء سيزول اذا أحس « بوني » ان الفشل سيكون حليفه وانه اضعف من ان يغوي جيني أو يحملها على الذهاب معه ·· وتتابعت الحوادث أمام ديفي ، فتذكر كيف ان جيني ظلت لثلاثة أسابيع تقريبا تخبره عن

مجيء بوني لمضايقتها في الوقت الذي يكون فيه غارقا في عمل البيت الجديد ..

كان بوني عامل زيت يسكن في الجانب الشرقي من مستنقع « اوجيجوبي » وكان ما انفك يردد ، كلما لقي جيني ، من انه سيعمل المستحيل لاغوائها حتى تنصاع له وتتخلى عن ديفي لتعيش معه .. بل انه ما كان يتورع عن مواجهة ديفي بهذا التحدي ، حتى انه صارحه بالشيء ذاته تقريبا حين رآه واقفا امام دكان في الجانب الشرقي من المستنقع . غير ان ديفي سخر منه ولم يعره اهتماما .. ولكن بوني عاود المجيء الى البيت القديم منذ بضعة أسابيع بل انه كان يتعمد المجيء يوميا تقريبا .

وحين بلغ ديفي هذه النقطة من التفكير في بوني اضطجع ثانية وهو يفكر في طريقة يستطيع معها ابعاده عن طريقه ، وقد كان يعلم انه ليس بمقدوره مغادرة المستنقع ذلك لانه لا يملك غير ذلك الكوخ القديم الذي يضمه وجيني معا .

وحين نهض وارتدى ملابسه كان الفجر لما يرسل نوره بعد ، فلم يوقظ جيني فذهب الى المطبخ وتناول شيئا من الخبز البارد والبطاطا ، وقبل ان يغادر ديفي البيت القى نظرة على الغرفة المجاورة ، وكانت الشمس آنذاك ترسل اولى خيوط أشعتها الوردية . فالفى جيني ما تزال غارقة في احلامها الطرية ، ثم راح يختلس الخطو ويدلف بهدوء حتى بلغ الشارع ، فحث الخطو ليواجه عمل يوم آخر في البيت الجديد الذي يبعد ثلاثة أميال تقريبا .

ولم تستيقظ جيني الا بعد مرور ساعة من مغادرة ديفي البيت ، فاستدارت لتتأكد فيما اذا كان ديفي يقظا أم لا ، وحين لم تجده قفزت من السرير واسرعت الى المطبخ ، وكان النعاس قد غادرها فادركت ان ديفي ترك البيت وذهب الى العمل .

وكان الصباح قد انتصف حين فرغت جيني من تناول الفطور وتنظيف البيت ، فذهبت الى الحديقة وشرعت تجتث بعض الحشائش بمنجل صغير .. وكانت الخضروات التي زرعها ديفي منذ ما يقارب الشهر قد نمت وازدهرت في الارض الرخوة والشمس الدافئة .

وقبل ان ينتصف النهار . وقد كانت جيني ما تزال تجتث بعض الحشائش بمنجلها ، رفعت بصرها تتطلع حولها فأبصرت « بوني كنك » جالسا على شجرة من أشجار الصنوبر في الجانب الآخر من الحديقة . ولم تتفوه بحرف حينما رأته للوهلة الاولى ، ولم تكن كذلك تعلم كم مضى على وجوده هناك ، وحاولت ان ترمي المنجل وتعدو الى المطبخ ، ولكنها ايقنت ، ان هي فعلت ذلك ، ان بوني سيتبعها الى أي مكان تذهب اليه ، فآثرت البقاء بانتظار ما قد يحدث ..

وكان الوقت يمضي بطيئا وجيني لم تبرح مكانها ولم تحاول ان تتجه بنظرها الى الجهة التي فيها بوني ، وقد كانت تعلم انه ما يزال يجلس على

جذع احدى أشجار الصنوبر ، فقد كانت تلمح ظلاله بزاوية عينها ، ولكنها صممت الا تنظر اليه وان ظل اليوم كله جالسا هناك ..

ولكنها لم تطق ان تتحمل أكثر مما فعلت ، فقد كان بوني غير بعيد عنها منذ أكثر من ساعة ، يعبث بعصا كانت في يده ، ويبتسم لها ابتسامة الواثق من نفسه ، فالقت بالمنجل وراحت تحملق في وجهه .

وصرخت فيه وهي تضرب فخذها بكفها وتدق الارض بقدمها :

ـ هل لي ان اسألك عن سبب وجودك هنا اليوم يا بوني ؟ ..

فزاد بوني من ابتسامته لها ولم يجبها .

فقالت بغضب :

ـ وددت لو ابتعدت عن هذا المكان وتركتني وديفي بسلام .. فنحن لا نحبك مقدار شعرة ..

فقال بوني وهو يبعد ساقيه عن الشجرة :

ـ ديفي لا يحبني ، هذا صحيح .. ولكنك تحبينني .. اليس كذلك يا جيني ؟ ..

فصرخت وهي تحاول ان تحبس بكاءها :

ـ تلك هي احدى أكاذيبك الكبار ـ فانت تحاول ان تعقد الامور بالنسبة لي لاني تزوجت ديفي دونك ..

وازاح بوني بعض الحشائش عن ملابسه وقال :

ـ الاحسن ان تغيري أفكارك كلها يا جيني ، واظن ان الوقت جد مناسب لتعملي ذلك الآن ، خاصة واني قد اكملت بناء البيت الجديد في حين لم ينته ديفي منه بعد .

فقالت جيني :

ـ وهذه اكذوبة أخرى من أكاذيبك الوقحة .. فانت لم تشرع بعد بالبناء ، وتعرف ذلك جيدا ..

فقال :

ـ وكيف تهيأ لك ان تعلمي ما اعمل وما لا اعمل ؟ ..

ـ ان ديفي هو الذي اخبرني ..

ـ لم يقل لك ديفي الحقيقة ، فقد شرعت في بناء البيت منذ امد بعيد ..

وبالرغم من ان جيني كانت تدرك ان بوني يحاورها لمجرد حثها على الكلام الا انه لم يعد بامكانها ان تمتنع عن الاجابة بعد :

ـ ان ديفي يكاد يفرغ من بناء بيتنا الجديد ، في حين انك لم تبدأ العمل بعد يا بوني كنك ؟ ..

وكان بوني قد نهض واجتاز الحديقة ، فوقف الى جانبها وامال برأسه نحوها وقال :

ـ ان البيت لا ينتهي اذا ظل ديفي يدفع بالجذوع عبر المستنقع في

الميل .. ومهما يكن فان هنــاك بعض الاخطار تنتظر الرجل الذي يعبر المستنقع في الظلام .. فاذا صادف وحجبت سحابة القمر في اللحظة التي يكون فيها قد اجتاز المستنقع الى منتصفه فانه سيتعذر عليه رؤية بقيــة الطريق ، خاصة اذا كان يدفع أمامه تلك الجذوع الـكبيرة ، واذا حاول الاسراع ليلحق بها فانه قد ينزلق في احدى الفجوات الغرينية التي تحجبها الاعشاب والنباتات المتسلقة .. فانا أعلم كم يشتد الظلام وسط المستنقع حتى يكاد يكون من المتعذر عليك ان تبصري يدك .

وانحنت جيني لتلتقط المنجل ، ولـكن بوني اسرع ووضع قدمه على قبضته فحال دون ذلك . ثم قال وهو يدنو برأسه منها :

ـ ليس تلفيقا ، ما قلته لك .. انه الحقيقة ؟ ..

فأجابت جيني ببطء :

ـ سيأخذ ديفي حذره ..

فقال وهو يهز رأسه :

ـ انه قد لا ينجو اذا هو ضل طريقه وانزلق جذع الى احد الثقوب الغرينية ، في ذلك الظلام المخيف ، ولقد سـبق وشاهدت حادثة كهـذه من قبل ..

وأغمضت جيني عينيها للحظة . وقد عزمت على أن تمنع ديفي من العمل في البيت ليلا .

وأخبرها بوني :

ـ ان بعض الناس لا يأخذون حذرهم الا بعد فوات الاوان .

وكان قد خطا نحوها عدة خطوات ، وقبل ان تأخذ حذرها منه وتبتعد عنه اقترب منها وأحاطها بذراعه ، وخشيت جيني ان يتمزق ثوبها العتيق ان هي حاولت التخلص منه ، فطوقها بوني بكلتا يديه وهم بتقبيلها ، فقالت :

ـ انك ما كنت تستطيع ان تفعل ذلك لو ان ديفي هنا ! ..

فأجاب ضاحكا :

ـ لماذا لا أستطيع .. وماذا بامكانه ان يفعل الآن ؟ ..

ودفعته جيني بمرفقيها ثم جعلت تضربه بجماع كفيها ، في حين كان بوني يضحك ملء شدقيه وقال :

ـ انني أحب الفتاة المشاكسة ..

وحـاول ان يضمها اليه ، ولـكنه ما كاد يفعـل حتى تمزق ردائها كصحيفة قديمة . فسقط عن كتفيها وصدرها وانحدر الى خصرها .. ولقد حاولت عبثا ان تستر جسدها لما كانت تحسه من قوة عضلاته ..

وسخر منها لمحاولتها في ربط طرفي ثوبها الممزق :

ـ كلما تماديت في العراك ، كلما اتسع الخرق ..

وكان ثوبها قد انخرق من رقبتها الى خصرها من الخلف ، فاحست

بحرارة الشمس تلذع جسدها العاري .. واضاف بوني قائلا :

ـ وقد يتمزق أكثر من ذلك .. فان العراك يجعله يتمزق بطبيعته شيئا فشيئا ..

فاستشاطت جني غضبا فاندفعت تضربه بكل ما تملك من قوة ، مما اضطر بوني على التقهقر متعثرا بخطواته ، ثم رأته يسقط على قفاه ويرفس الهواء بقدميه . فانتهزت الفرصة فضمت ثوبها اليها وراحت تعدو نحو المطبخ فاطبقت الباب خلفها بقوة ووضعت دونه المنضدة .

وراح بوني يطوف حول الدار ككلب يدور حول حيوان غريب ليمنعه من الفرار .. ثم جعل ينظر من خلال النوافذ الخلفية والامامية دون ان يفتحها .. ولم يلبث أن قعد على جذع شجرة تبعد عن الباب ست خطوات وصرخ قائلا :

ـ لو اردت الدخول لما منعني شيء ، فانا أستطيع ان احطم هذه النوافذ بيسر ، وهذا كل ما يلزمني فعله ، ولكني احسب اني سانتظر قليـــلا .

وكانت جيني ترتجف الى جانب السرير وتبكي ،

وخيل اليها ، بعد برهة ، انها تسمع شيئا ما يتحرك خارج الدار ، فزحفت ببطء الى النافذة وراحت تنظر من خلال الشقوق .. لقد كان بوني يدلف باتجاه الممر المؤدي الى المستنقع ، ولم يحـــاول خـــلال ذلك ، ان ينظر الى الوراء .. فاستجمعت قوتها وعادت تزحف ثانية الى السرير ، وما كادت تبلغـه حتى ارتمت على الفراش وغــرقت في بكاء مؤلم حتى كادت تفقد وعيها ..

كان الظلام قد هيمن على السكون تماما حين افاقت جيني من ذهولها ، واسرعت الى النافذة فادركت ان وقتا طويلا قد مضى على غروب الشمس . وقد كانت قطع الغيوم الداكنة تندفع باتجاه القمر ..

ولقد ظلت جني تدور في الغرفة دونما شعور منها وتحملق في اللاشيء ، والضعف يكاد يشل جسدها كله فسقطت على الارض خائرة القوى تنشج وترتجف ..

وبشيء من الجهد استطاعت جيني ان تستجمع قواها فنهضت وخرجت في أمل البحث عن ديفي في الاماكن التي يغشاها نور القمر ، ولما لم تجد له أثرا اخذت تعدو دونما اتجاه وتجهد فكرها في ما ينبغي عليها ان تفعل ، ولم يطل بها التردد فاستدارت باتجاه الطريق المؤدي الى المستنقع وراحت تعدو بكل قوتها نحوه .

وعلى بعد عدة أمتار منه توقفت جيني فجاة عند الممر الخشبي الوحيد الموجود هناك ، والذي كان ديفي يجتازه حين يعبر بها المستنقع حاملا اياها بين يديه .. فنظرت بقلق الى المستنقع الذي كان يمتد أمامها ملتويا ، ثم أخذت تدلف ببطء وهي تتحسس موقع خطواتها في الجذوع اللزجة العارية

من المحاء ، وقبل ان تجتاز الجذع الاول الطويل شعرت بيدين ترفعانها عن الارض .

ولم تستطع جيني في بادىء الامر ان تستدير حولها ، ولكنها احست ان اليدين اللتين تطوقان خصرها غريبتان ، فادركت ان بوني هو الذي يحملها بين ذراعيه ، فلزمت الهدوء ولم تنبس بحرف حتى عاد بها الى الارض خارج المستنقع .

وما كاد بوني يريحها من بين ذراعيه حتى استدار لرؤيتها وقد كانت نفس الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيه عصر ذلك اليوم ترتجف على شفتيه .. وقال :

— لقد جئت متأخرة قليلا ..

فصرخت :

— اين هو ديفي ؟ ..

— ديفي ؟ .. لقد كنت أنا نفسي أتساءل نفس هذا السؤال منذ برهة .. واصارحك القول انني لا أعلم اين هو ..

— بل انت تعلم يا بوني ! .. اين هو ديفي ؟ ..

وجذبها نحوه بقوة ثم طوق خصرها بذراعيه وقال :

— لقد راودني ظن ولكنني لا أستطيع ان أجزم به . ذلك لاني لم أبصره بعيني .. ان الظلام هنا يكون شديدا جدا اذا حجبت الغيوم القمر . حتى انه يتعذر عليك رؤية يدك اذا رفعتها أمامك ..

ولم تمهله جيني فصرخت وهي تضربه بجماع كفيها :

— هلا اخبرتني اين هو ديفي ! ..

— كنت على وشك ان أقول لك انه ربما زلقت قدمه فسقط وهو يحاول عبور المستنقع ، ان من الغباء ان يحاول أحد عبور المستنقع في ليلة حالكة السواد كهذه ، وأخشى ان يكون قد سقط في احدى الفجوات .. وددت لو كنت أنا الذي سقط ! ..

وابتعدت عنه جيني ثم فجأة انطلقت تعدو مذعورة ، فتبعها بوني ولكنها لم تمكنه منها وكانت تتوغل في المستنقع ، ثم لم يلبث بوني أن فقد اثرها ولم يعد يراها ، وقد كان بامكانه ان يسمع الخشخشة التي تحدثها غير انه كان من المتعذر عليه تماما ان يعلم الاتجاه الذي تأتي منه تلك الاصوات .

وهتف صارخا :

— جيني ! .. جيني ! .. عليك ان تعودي .. انك حمقاء .. ليس بامكانك ان تعبري المستنقع ! .. يجب ان تعودي .. جيني ! ..

وحين لم تجبه جيني أخذ يطأ جذع الممر الطويل بحذر ، ولكنه ما كاد يفعل ويخطو عدة خطوات حتى توقف حين وجد انه لم يعد بامكانه أن يتحسس طريقه في الظلام أكثر مما فعل ، وراح يرهف اذنه علّه يسمع

شيئا يصدر عن جيني ، ولكن السكون كان قد خيم ولم يعد يسمع أي شيء ·· وبيأس مطبق اثنى ساقيه وراح يتلمس جذوع الاشجار اللزجة بحذر ويتحسس طريقه بين الفجوات المملوءة بالغرين الناعم ·· وبين هنيهة وأخرى ينادي جيني ثم يصغي بانتباه علّه يعثر على صوت يأتي منها ··

وفي الغبش ، عاد بوني بقنوط ، والطين يغطيه ، الى الارض الصلبة ، في نهاية الممر ·· فجلس ينتظر بيأس قاتل بزوغ الشمس ، ويفكر كم سيمضي من الوقت حتى يقف على أثر لجيني ·· أو لديفي ···

●

كلمة شكر ··· وتقدير

بناء على كثرة مشاغل الاستاذين الفاضلين الدكتور مصطفى جواد والدكتور عبدالرحمن القيسي فقد اعتذرا عن مواصلة مشاركتهما في هيئة تحرير مجلة الاقلام ·

وهيئة التحرير اذ تثمن الجهود المشكورة التي قدماها للمجلة تأمل استمرار تعاونهما معها في المجال الذي يسمح به الوقت مع خالص تقديرها وعاطر تحياتها ·

●

لقاء مع الفنان



فائق حسن

كان لقاء هذا الجزء من « الاقلام » مع الفنان المعروف الاستاذ فائق حسن رئيس قسم الفنون التشكيلية في معهد الفنون الجميلة ببغداد (اعداد المدرسين – القسم العالي) .

... قبل بدء الاستجواب دار مع الفنان حديث عن بداية هوايته وكيف اتجه هذا الاتجاه .

قال الفنان :

كنت وانا صبي احس بدافع قوي عارم يدفعني لتقليد ما أراه من رسوم ورسم ما أجده أمامي من مرئيات ... وأذكر ان رغباتي العارمة تلك بلغت حدا جعلني لا استطيع منها فكاكا فقد سيطرت علي واخذت بمجامع نفسي .

... الحقيقة انني لا استطيع ان احدد كيف بدأت، فهي فترة من حياتي يكتنفها ضباب كثيف الا انني اذكر حتى الساعة ان الرسام الرائد الذي فتحت عيني فوجدته شاخصا امامي كان هو المرحوم (عبدالقادر الرسام) .

لقد اعجبت به ايما اعجاب وحاولت ان اتصل به ، وفعلا زرته في بيته بمحلة القرهغول في بغداد على ما أذكر وشاهدت مرسمه وتمثلت لوحاته ورأيت كيف تبدع الريشة الفنانة النتاج الجميل .

ثم كان معاصروه ومن تلاه من الفنانين ، اذكر منهم اكرم القيماقجي واكرم شكري وشوكت الرسام ورشاد سليم ممن سبقوني في المضمار الفني .

لقد كانت – في الحقيقة – فترة غير واضحة الخطوط ، تأثرت فيهما بمشاهداتي للصور التي تردنا من الغرب وبالمعارض النادرة التي كانت تقام في ذلك الوقت ، وغيرها .. وغيرها .. والمعروف ان الحركة الفنية في العراق ظلت محصورة في نطاق ضيق بدون دراسة ولا مشكلة حتى بدأت فكرة ايفاد البعوث الفنية الى الخارج تأخذ طابع التنفيذ الامر الذي نفث فيها دما جديدا وحياة جديدة ، ثم كانت الحرب العالمية الثانية وكان مجيء الفنانين البولونيين الى العراق وواضح لدى كل المشتغلين في الحركة الفنية العراقية ان مجيء الفنانين البولونيين فتح امام الفنان العراقي آفاقا جديدة واطلعه على مباديء فنية صحيحة غير اكاديمية . ذلك لانها جوهرية واصيلة . جذورها التاريخ ودعائمها التفكير والتطور .

ان (الاكاديمية) في الواقع لا تتعدى الدراسات المدرسية وذلك يعني انها (معضلة) بدون (مشكلة) الامر الذي يجعلها ظاهرة فنية لا تبعث على التفكير .

وعودة الى تاريخنا الفني تظهر لنا ان تراثنا في هذا المضمار كان فنا أصيلا مبدعا وخلاقا . ومدرسة يحيى الواسطي التي تحتل جزءا من المرحلة الاسلامية في فن الرســـم والتي امتدت رقعتهـــا الى سوريـــا ومصر والاردن ووسعت ارض العراق نابعة من واسط ومنطلقة من بغداد خير دليل على ذلك .

وبقدر ما يتعلق الامر بي فقد بدأت – على مستوى البداية الفني – نحاتا ، ومن ثم انصرفت لفن الرسم بشكل نهائي وسأبقى كذلك بعون الله .

ثم سألت (الاقلام) الفنــــان فائق حسن – بعــد هذا الاستطراد – عن رأيه في مكانة العراق الفنية بين الدول العربية فقال :

« بدون أي تردد أو مقدمات أستطيع القول ان العراق هو في الصف

الاول في فن الرسم في الشرق الأوسط كله ·

واتني اذ اذهب هذا المذهب وادلي بهذا الرأي اعتمد على خبرة سابقة طويلة كونتها استمرارية العمل ومعايشة الأجواء الفنية في عراقنا وفي الخارج ·

ان المواهب الفنانة بالعراق غنية وخصبة وهي لو فسح لها المجال لامكنها ان تقدم عطاءا فنيا ثرا لكنني أرى ان عزلة العراق ـ الجغرافية ـ ان صح التعبير ، وبعده عن الغرب جعل نشاطاته محصورة في داخل حدوده ·

والواقع انني أجد هنا ملاحظة تفرض نفسها ولابد من ذكرها تلك هي مسؤولية الدولة في محاولة نشر نتاجنا الفني واطلاع العالم عليه بشكل أوسع مما هو حاصل في الوقت الحاضر ·

ولست اشك في ان نتاجات الفنان العراقي ، لو اتيح لها ان تطل على الاجواء العالمية ، لكانت خير دليل يفرض منطقه المقنع على العالم كله مؤكدا مدى ما حققنا من نجاحات فنية ومقدار ما في نتاجاتنا العراقية من اصالة وصدق وابداع ·

ان اهم وسيلة للنهوض بمستوى الفنان هي الاخذ بيده وعرض نتاجاته وتقييمها والعناية بها والمعارض ـ لا شك ـ هي الوسيلة الاجدى في هذا التشجيع ، ذلك لان الفنان عندما يعرض انتاجه يواجه الجمهور المشاهد وجها لوجه حيث يثمن المشاهد الجودة ويعاف الهرجلة ، وعندي ان وسائل العرض ـ كل وسائل العرض ، هي التي تفتح الطريق امام الفنان لتحقيق أهدافه · ولئن كان للمعارض المحلية جدواها ـ المحلي ـ فان للمعارض العالمية صداها الدولي ، ولوحة واحدة اصيلة مبدعة لفنان يشاهدها المعجبون في معرض دولي لها من الاثر الدعائي لتقدم البلاد ورقيها ما لا يقيم بثمن ولا يقدر بمال ، وهذا الامر بالذات هو الذي يعطي الاهمية البالغة للاخذ بيد المبدعين لكيما يحققوا النتاج الافضل ، وبالتالي لكيما يعكسوا السمعة الاحسن لبلادنا في الخارج ·

ما من شك في ان حركة العرض في عراقنا اليوم تتمتع بخير وافر بالنسبة لما كان قبلا لكننا ما زلنا نطمع بالمزيد محليا ، ونطالب بالحاح وتأكيد على أن ترعى الدولة اهمية المعارض الخارجية وجدواها ·

ان هذا الاستطراد يقودنا للحديث عن المشاركات الفنية في المعارض العالمية الدائمة مثل معارض اليونيسكو والبينالة ·

من المعروف ان العراق اسهم في مؤتمرات اليونيسكو الفنية في جنيف والهند وغيرها لكنه لم يشارك هذا العام لانه لم يدفع المشاركة النقدية التي كان من المفروض ان يقدمها ·

ومؤتمرات اليونيسكو هذه لقاءات فنية على مستوى رفيع تطرح فيها قضايا الفن وتناقش مسائله من لدن كبار الفنانيين في العالم · والمساهمة في مثل هذه اللقاءات تمنح البلد المسهم فيها تجارب جديدة وتغني فنونه

بأجواء جديدة. ولعل ذلك يؤكد ضرورة مواصلة الاستمرار في مشاركة العراق بمؤتمرات اليونيسكو الدولية . اما (البينالة) فهو معرض يقام في فينيس بايطاليا كل عامين ويبقى فاتحا ابوابه لجمهور المشاهدين مدة ثلاثة اشهر . وهذا المعرض مقام على ارض رحبة انشأت عليها الدول المشاركة فيـــه أجنحتها الخاصة لعرض فنونها بالشكل والسعة التي تشاء .

ولعل من المؤسف القول ان الدول العربية ـ عدا الجمهورية العربية المتحدة ـ لم تشارك لحد الآن في (البينالة) . اما العربية المتحدة فان لها جناحا قارها في المعرض يعكس بصدق واصالة المدى الفني الذي حققه الفنان العربي في القطر الشقيق . ولست أجد وصفا أدق لمعرض البينالة من كونه (سفارة فنية) للبلد المشارك فيه ، ذلك لانه مهرجان فني ضخم يؤمه المعجبون بالفنون من كل بلاد العالم ويدرس أكابر النقاد العالميين النتاجات المعروضة اضافة الى ما يمنحه المعرض للفنانيين من تجارب وخبر من شأنها النهوض بمستوى الفنون عالميا .

... الخلاصة ، ان الحركة الفنية في العراق ـ كحركة ـ لها ما لها من مقومات الصدق والابداع والاصالة الا انها تعاني ، كما أشرت ، من ظروف العرض ـ على المستويين ، العربي والعالمي . كما انها بحاجة الى نشاطات اوسع في صفوف الجمعيات العاملة في العراق .



« زقاق بغدادي قديم »
من أعمال الفنان
ناظم حسين

فعلى سبيل المثال ان (الجمعية الوطنية للفنون التشكيلية في العراق) شبه مشلولة النشاط بينما كان من الممكن ان تؤدي دورها الكبير في خدمة الحركة الفنية خصوصا على المستوى العالمي لو انها استطاعت ان تدفع الاشتراكات الاصولية المترتبة عليها . ثم هناك دور الصحافة ووسائل الاعلام الاخرى في الاخذ بيد الفنان العراقي وتعريفه الى الجمهور المشاهد .

... واخيرا ، سألت الاقلام الفنان فائق حسن عن رأيه في المستوى الذي حققه الفنانون الشباب باعتباره استاذهم ورئيس فرع الرسم في معهد الفنون الجميلة فقال :

« الواقع اقول ان قليلا من شبابنا من اسبغ على فنه سمة الاصالة والابداع ، اما نتاج الكثرة الغالبة فلا اتردد في ان اصفه بالتفاهة ، لكن تلك ظاهرة طبيعية ولا شك . ذلك لان المشاركة في المعارض الفنية لا تعني ــ بشكلها المجرد ــ الابداع أو النبوغ . فالعبرة في كل انتاج (الكيف) لا (الكم) . الا انه مهما يكن من شيء فان هذه الاستمرارية التي نلاحظها لدى الفنانين الشباب بشارة خير وبارقة امل في تحقيق المستوى الفني المنشود . فان مواصلة الدراسة والتتبع والبحث من اجل تحقيق المستوى الافضل لابد أن تؤتي أكلها يوما وتثمر ثمرتها المرجوة .

جملة الامر اننا في امس الحاجة الى الاستمرار ، ومواصلة الجهود ، ثم الى الناقد النزيه الذي يأخذ بيد الفنان ويوجهه لا النقد الذي يهدم ولا يبني ، يخرب ولا يعمر . واصارحك ان اغلب نقدنا ــ المحلي ــ مع الاسف الشديد ، بهذا المستوى . لان النقد الفني دراسة وخبرة ثم انه اختصاص يعتمد على دراسة عالية واطلاع واسع ومستمر لكنني ارى ــ برغم كل ذلك ــ ان الفن العراقي مقبل على خير وافر وانه فارض وجوده ــ غالبا ــ في المستقبل القريب .

- ولد عام ١٩١٤ في بغداد .
- بعد ان اتقن الفرنسية سافر لدراسة فن الرسم في باريس .
- حصل على دبلوم المدرسة الوطنية للفنون الجميلة العليا بعد دراسة دامت اربع سنوات .
- امتهن تدريس الرسم في المتوسطات والثانويات ودور المعلمين ثم عهد اليه فتح فرع الرسم في معهد الفنون الجميلة عام ١٩٤٠ .
- شارك في فرنسا في بعض المعارض المحليــة وفي العراق في اغلب المعارض التي اقيمت فيه .
- كما اشترك في المعرض الفني المقام في الهند عام ١٩٥٥ وفي معرض اليونيسكو بلبنان عام ١٥٩٧ ومعرض فناني الشرق الاوسط بالقاهرة وبيروت . ثم شارك في معارض بـ (بولونيا ، روسيا ، بلغاريا ، يوغوسلافيا ، والمعرض المتنقل لفناني الشرق الاوسط في امريكا)
- اقتنت المكتبة الوطنية الاهلية في شيكاغو تخطيطا لتحفها من انتاجه ومنح مؤخرا المدالية الذهبية لمؤسسة كولبنكيان لاحسن فنان عراقي .

آراء وتعقيبات

تعليق

في الجزء السادس من مجلة الاقلام الغراء السنة الاولى ١٩٦٥ تفضل الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق فادلى برأيه في موضوع (الاسلام والفن الجميل) · وقد جاء مقاله رغم اقتضابه ممتلأ ثرا وذلك لما تضمنه من رأي طريف وصريح في ما يزيل عن الاذهان طوق العماء ويزيل عن العين غشاوة العمى · وحرصا على اتمام الفائدة اذكر بعض النقاط :

١ ـ يبني الدكتور الفاضل رأيه في فلسفة الفن الاسلامي على معنى [الزينة والجمال] كما هو وارد في القرآن الكريم [الآيات] وذلك لما فيه من علاقة بتهذيب الذوق [حتى تصل الى حب الجمال] [برؤية مظاهر الجمال فيما أبدعه الله ، وفيما سوته يد الانسان ، وباممان النظر في هذه المظاهر ، ومحاولة الوقوف على سر الجمال فيها ، والتأمل فيما يتجلى فيها من تكوين محكم متسق بديع ··] والواقع ان مثل هذا الرأي بوضحه أكثر فاكثر [وليس بمعناه الحرفي] معنى الآية الكريمة ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، واعتدنا لهم عذابا اليما] فليست الزينة لتقتصر على التجميل في [المصابيح] الكونية ·· ولكنها جعلت ايضا (اشراقا) يحول دون التعرض لنزوات (الشياطين) ان الزينة أو الجمال بمعنى (التجميل أو التجمل) فحسب لا يستقيم ومعناه (كابداع) متناسق (للوصول) الى الحقيقة كما هو حال الفني كتعبير (ايجابي) بل كتعبير (متعادل) · ذلك انه بجميع بجميع اشكاله المشروعة في الاسلام لم يكن (بالوسيلة) ولا (بالمتعة) فحسب وانما هو (شكر للنعمة) و (ذكر لله) : نعمة السمع والبصر وجميع ما اسبغها الله سبحانه وتعالى على الكائنات من (القابليات) وذكر الخالق الصمد بما هو هل له من (المقدرات) والمهارات المتبلورة في النفوس · أي استخدام المواهب الفنية بما لا يتنافى وعبادة البارى عز وجل · فتفسير

الفن على انه المقصود بالزينة (الزينة = العناية بالفن = وسيلة لتهذيب الذوق = حب الجمال) قد يفهم عنه مجرد الممارسة ، من العمل الفني ما تمارسه المرأة من ملامحها ، وليس ما يمارسه الرجل من مواهبه · وقد يكون فهما (ظاهريا) للزينة على حد تعبير الدكتور ، وحرفية وعي المجهود الفني بل اي مجهود حضاري آخر : من فلسفة أو علم أو أدب على انه (وسيلة) تقليدية ، وليس كاختراع · والواقع ان العمل الفني في الاسلام كأي (فعل) آخر كان أكثر من وسيلة نستعين بها على (تجميل) حياتنا الدنيوية لانه كان (ديناميا) كأي سلوك انساني عبادي ·· كان تفكيرا فعليا : أي (انفتاحا) داخليا على المعنى الفني وتفكرا (ظاهرانيا)[1] و (كشفا) ايمانيا · وان الجمال الذي (يشرف) به هو الجمال المجرد (وهو بالطبع لا يمكن الوصول اليه في الحياة الدنيا) لانه ليس الا نعمة الشكر والتفكر · وكمال التوكل ·· انه (التوحيد) ·

٢ – يتطرق الدكتور ايضا في عجالة تاريخية الى استعانة المسلمين بسكان البلاد المفتوحة (لان ايديهم كانت فارغة من المهارة في الاخراج)[2] ولعله كان يقصد ان العرب الذين رفعوا راية الاسلام في النصف الاول من القرن السابع لم يكونوا قد طوروا من فنونهم سوى الجانب الانساني والزمني منها وليس التشكيلي · ومن هنا فقد احتاجوا الى فترة ما قبل ان ينتبهوا الى امكانية انجاز الفن من جديد بروح اسلامية وبأيد اسلامية ولكنها ليست عربية (بالمعنى البشري) لان انصهار سكان الشعوب الاسلامية غير العربية لم يتم في طرفة عين · وفي غضون فترة التحول هذه قام فنانون غير مسلمين بممارسته (أو مسلمون مقلدون وليسوا مبدعين) ومهما يكن من امر فالذي يدفعنا الى التساؤل هو القول بفن زخرفي طبيعي قبل الاسلام وفن زخرفي بعده ·· ان فلسفة الفن الزخرفي في اساسها تفترض الاستغناء عن القيم الطبيعية بقيم (مجردة) ، وبذور الفن الاسلامي اذن لم تبدأ منذ العصر الاسلامي الا انها بلغت ذروتها فيه ذلك ان بدايتها كانت منذ بدء الخليقة (والعصر الحجري الحديث لم يخلو من الآثار الزخرفية) · فليس الامر هو أمر ايمان بفن جديد يهدف الى تجميل الحياة وانه قد يتحقق بالتصرف في رسم العناصر الزخرفية وفي تهذيبها وتحويرها ، ولكنه أمر انفتاح روحي على التجريد في الفن واعتباره مجال (وصول) وليس مجال متعة · وهذا هو معنى التجديد فيه خلال المرحلة الاخيرة من الاسلام ·

(١) النسبة هنا الى فلسفة الظواهر أو الفينومونولوجي ·
(٢) جميع ما بين الاقواس مقتبس عما ورد في نص المقال ·

بقي ان اشير الى ان التحليل الوارد في مناقشة الدكتور مرزوق لموقف الاسلام من التصوير كان صريحا وفذا في دحض التحريم البات عنه . وسواء اذا تعامل المسلمون بدراهم الفرس أم لم يتعاملوا ، وسواء اتحرج رجال الدولة الاموية عن تزيين قصورهم بالصور المسطحة والتماثيل أم لم يتحرجوا فان الاصالة الاسلامية في اتخاذ الفن كمجال (للفعل) أو التسوية — على حد تعبير الدكتور — وليس (للخلق) ، كابداع وليس كبدعة هو المحك الحقيقي لمعرفة موقف الدين بصراحة (من جانبنا بالطبع) . وليس في القرآن أو الحديث ما يقطع بتحريم التصوير(٣) (من رسم أو نحت) الا اذا حال ذلك دون عبادة الله أو أدى الى هتك الحرمات . وأحسب ان أي فـــن (ليس بالتشخيص) لا يستهدف ذلك (فالفقر هو الغنى بالله) كما يقول الشيخ أبو سعيد ، و (والغني من أغناه الله) وما نعمة الفن سوى ان يغنينا الله عما سواه . وليس ان يفقرنا بانفسنا عنه .

شاكر حسن آل سعيد

٭

بين الرباط وبغـــداد

كتب الدكتور صلاح الدين المنجد الكلمة التالية في جريدة (الحياة) اللبنانية آثرنا أن يطلع عليهما القارئ الكريم لما فيها من تنويه لمجلتي « البحث العلمي » ومجلة « الاقلام » .

مجلتان أحب أن انوه بهما في — زاويتي — ، أعجبت بهما في هذه الآونة التي افتقدنا بها المجلات التي نريدها .

واعني — بالتي نريدها — المجلات التي تصل حاضرنا بماضينا ، ثم تكشف لنا عن حقيقة الماضي وما كان فيه من محصول حضاري بناء ، وتجارب غنية ، وغايات صحيحة سليمة .

واعني بها أيضا المجلات التي تبصر المعاصرين بحاضرهم ، وما فيه من

(٣) لا ريب أن معنى التصوير في الاسلام يختص بالشكل الفني الأكثر تعقيدا ، عن سواه ، وأحسب انه كان يطلق على النحت دون سواه .

اخطاء ، أو انحراف ، على ضوء القيم الحضارية التي كانت في تاريخنا ٠

واعتقد ان العرب لم يصابوا في هذه الاونة الحديثة بهذا الاضطراب الفكري ، والشك في ابداعهم التاريخي ، والضعف أمام النظريات المستوردة ، الا لجهلهم بتراثهم ، وحضارتهم ، وتجارب أجدادهم ، وابتعادهم عن قيمهم الروحية الاصيلة ٠ فلو انهم عرفوها معرفة عميقة لكان فيها للشباب منعة تبعد عنهم الامراض الفكرية ، وللشيوخ هدى في مجتمعهم وسلوكهم واخلاقهم ٠

وأعود الى المجلتين ٠ فاما الاولى فهي مغربية، اسمها «البحث العلمي» ٠ تصدرها جامعة الرباط ٠ وهي من حسنات عميد الجامعة الاستاذ محمد الفاسي، الرجل الدائم الحركة ، المتواصل النشاط ٠ وقد صدر من هذه المجلة عددان فيهما دراسات لاشك في أن بعضها يدخل في «البحث العلمي» بأوسع معانيه ، من حيث النهج ، والدقة ، والموضوعية ، والتنقيب ٠ ومعرفة المصادر على اختلاف انواعها ٠ وفيها ايضا «محاولات» تقترب من الجودة او الكمال ٠ وما من شك ان المجلة انطلقت انطلاقا صحيحا ، وسدت ما نحتاج اليه من معرفة عن المغرب الاقصى في ماضيه وحضارته ٠

أما المجلة الثانية فهي عراقية ٠ اسمها «الاقلام» ، تصدرها وزارة الثقافة والارشاد ببغداد ٠ وهي في افاقها اكثر سعة من الاولى ، لانها لم تقتصر في مباحثها على العراق وحده ، كما اختصت الاولى بالمغرب وحده ، بل انها تريد ان تحيط بالحضارة الاسلامية العربية كلها ، وهي تعني بالماضي ولا تهمل الحاضر ٠ وقد قرأت في اعدادها الخمسة – من الثاني الى السادس – التي قرأتها ، مقالات جيدة ، وقرأت مقالات مبسطة ٠ ولابد لها من ذلك لانها مجلة فكرية عامة ٠

واني انصح المثقفين بقراءة هاتين المجلتين ، فهما عملان ثقافيان جيدان ٠

وليس لي امنية اتمناها لهاتين المجلتين الا سلوك النهج العلمي الصحيح دائما ، وهذا ما يضمن لهما البقاء الطويل ، والتأثير العميق في الذين يحبون أن يقرأوا وأن يستفيدوا ٠

الدكتور صلاح المنجد

النتاج الجديد

نظرات في كتاب

البلاغة عند السكاكي

تأليف الدكتور ـ أحمد مطلوب

بقلم ـ عبدالله الجبوري

البلاغة من علوم اللغة العربية بها وبالنقد يقاس الأدب ويبين حسنه من رديئه وجميله من قبيحه ، أو هي روح الأدب والادب مادتها كما يقول الاستاذ أمين الخولي[1] .

فقد نبتت بذورها وأورق فرعها في ظلال القرآن العظيم ، وقامت لخدمة بيانه ، ولتعين ، أهل التفسير على حسل مبهم كلمه وتبيانه ، لذلك نرى ومضاتها الاولى بدت في كتب المفسرين الاول وعلماء اللغة ودهاقنة الادب ، وهذا ما نلمسه في مصنفات ، أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧هـ) في كتابه « معاني القرآن » وابي عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٨هـ) في كتابه « مجاز القرآن » ، والمبرد (٢٨٥هـ) في كامله ، وابن قتيبة (٢٧٦هـ) في « تأويل مشكل القرآن » . والجاحظ (٢٥٥هـ) في (البيان والتبيين) و (الحيوان) ... وغيرهم .

ثم أخذت تتطور نحو الكمال شيئا فشيئا على مر الملوان ، حتى وصلت الى يد السكاكي الذي هذبها وقسمها الى فنونها المعروفة من ، معان ، وبيان ومحسنات ، وبديع ، وادخل معاني النحو فيها ، والتي اقتطعها من علم النحو وذلك في كتابه المشهور « مفتاح العلوم » الذي يعتبر خلاصة لآراء المدرسة الكلامية أو الاصطلاحية أو طريقة العجم واهل الفلسفة كما يقول جلال الدين السيوطي[2] .

وقد قيل قديما ان النحو علم نضج واحترق ، الا ان البلاغة لم تنضج دراستها بعد كما صرح الاقدمون[3] .

---

(١) البلاغة عند السكاكي ص٧٥ ، ومناهج تجديد في النحو والبلاغة ص١٨٠ .

(٢) حسن المحاضرة ١/١٥٧ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مادة بلاغة للاستاذ امين الخولي ، ٤/٧٠ .

وقد بقي علماؤها والمشتغلون فيها يعيدون ما أخذوه عن السلف فيما يسطرون من الآراء ، حتى مطلع القرن العشرين الذي ذر قرنه على فجر نهضة أدبية واجتماعية وسياسية تلوح في الآفاق العربية ، حيث كان للأزهر الشريف نصيبه الوافر من هذه النهضة ، ففي هذه الآونة كانت تتردد في جنبات أروقة معاهده صيحات الامام الاستاذ الاكبر محمد عبده الذي يعتبر المجدد الاول للبلاغة في العصر الحديث وحامل لوائها بين الاعلام المجاهدين في سبيل الحرف الاخضر المعطاء ، وقد تخرج في الازهر رجال تتلمذوا للاستاذ الامام وتأثروا منهجه ، فطفقوا ينشرون آراءهم على الملأ في آثارهم المطبوعة والمسموعة ، ثم أخذت الدراسات الجامعية تتوالى في المنشور — امتدادا لدعوة الامام في التجديد والبعث — وجلها يحمل الكثير من الآراء الجديدة في البلاغة ، وفيها جدة وطرافة وعمق نقد وتحليل رائع لآراء الائمة من رجالها الاقدمين • ومن هذه الدراسات الجليلة « البلاغة عند السكاكي » للدكتور أحمد مطلوب وهي البحث الذي نال به درجة الماجستير من جامعة القاهرة •

والكتاب يقوم في أصوله من اثنتين وثمانين واربعمائة صفحة من القطع الكبير ، استأثرت فهارس الكتاب بخمس وسبعين صفحة منها ، وقد توزعت الصفحات البواقي مباحث الدراسة التي اشتملت على مقدمة للمؤلف ، وتمهيد وبابين كبيرين •

وأول ما يطالعنا في صدر الدراسة « الاهداء » ، وقد أبى المؤلف الا ان يجعل اهداءه الى « أفصح فصحاء العرب ، وابلغ بلغائهم محمد صلى الله عليه وسلم ، منقذ البشرية ، وقائد الامة العربية ، وباني مجدها الخالد » • وقد وضعت بين يدي الكتاب الدكتورة سهير القلماوي — الاستاذة المشرفة على الرسالة ورئيسة قسم اللغة العربية في كلية الآداب — جامعة القاهرة — مقدمة نفيسة رائعة اوجزت القول فيها في عرض المؤلف وصاحبه ، كما بسطت الكلام في المؤلف فيه ، وقد اختتمتها بقولها « ان في البلاغة العربية غابات بل ادغالا كلها ما زالت بكرا تنتظر الدارسين ، وما الزميل الصديق الدكتور احمد مطلوب الا عالم من الذين تدفعهم انبل العواطف واشرف الغايات لدراسة لغة العرب ، تلك اللغة التي لا يمكن ان تطاولها في سمائها لغة لقد عاشت ستة عشر قرنا لغة ادبية حية وما تزال الى اليوم بعد كل العواصف الهوجاء تعيش حياتها الثرة المثمرة » • أ هـ •

ولا أدري ما الذي حدا بالدكتورة القلماوي الى استعمال الشاذ من كلام العرب باستعمالها صفة جمع المؤنث بصيغة المفرد في قولها « العواصف الهوجاء » فانها لغة ضعيفة شاذة ، وان جرت على اسلات بعض الكتاب الفصحاء المعاصرين ثم تطالعنا مقدمة المؤلف التي استغرقت اثنتي عشر صفحة من صفحات الكتاب أفاض بالقول خلالها حول السكاكي وكتابه « مفتاح العلوم » الذي كان مدار البحث وحده للرسالة ، كما عرض للاثار

البلاغية القديمة بالنقد والتعريف وأبان عن قيمها العلمية والنقدية . ثم ينعطف على استعراض المصنفات البلاغية في العصر الحديث بدءا من مطلع القرن العشرين الى أيام الناس هذه . بدقة وشمول وتحقيق علمي فذ ، ولم أقف من قبل على مبحث في ذات الموضوع لمعاصر من الادباء والدارسين . فهذه المقدمة تعتبر — في رأيي — تاريخا موجزا للبلاغة والآثار التي ألفت فيها منذ بداية ومضاتها الى القرن العشرين .

ولا أدري كيف سها المؤلف الفاضل عن ذكر كتاب يعتبر من أظهر الدراسات البلاغية في فجر النهضة الحديثة ألا وهو « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » للمرحوم الدكتور أحمد ضيف المتوفى في سنة ١٩٤٥م ، والمطبوع في سنة ١٩٢١م — القاهرة مطبعة السفور ، والكتاب يقع في ١٨٧ صفحة من القطع الكبير ، وقد عرض للبلاغة العربية والبلاغة الفرنسية بدقة وشمول ، وأتى فيه بالكثير من الآراء التي كانت تضم في أرحامها جراثيم التجديد والبحث والجرأة في النقد العميق ، والكتاب في أصوله كان محاضرات قد ألقيت على طلاب الجامعة المصرية في سنة ١٩١٨م ، ولم يشر الى كتاب آخر للمؤلف ذاته اسمه « بلاغة العرب في الاندلس » وهو مطبوع مشهور متداول عند القوم .

ثم تسلمنا هذه المقدمة الرائعة الى تمهيد يعرض لبيئة السكاكي « خوارزم » متناولا بالبحث التاريخي لها منذ زمن الفتوحات الاسلامية الخالد ، وعن حكامها وأبرز ملامحها الحضارية وأظهر سماتها العلمية ، معتمدا بذلك على أمهات المظان الجغرافية والتاريخية ، ثم يتناول السكاكي بالبحث والتعريف بمولده ونشأته وحياته العلمية وعن شيوخه وتلامذته وعن مذهبه وعقيدته وعن ثقافته فمؤلفاته .. ثم ينتهي به المطاف الى الحديث عن مؤلفه المشهور « مفتاح العلوم » — وهو مدار البحث كما أسلفنا قبل قليل — وعن نسخه المخطوطة التي تضمنها مدرجات مكتبات المعمورة ، جهد ما وصل اليه تتبعه النادر — وبقدر ما أسعفته فهارس المخطوطات — على ندرتها — في المكتبة العربية ، ثم تكلم على طبعاته ولم يغفل الحديث عن اسلوبه ومصادره وايراد أقوال المتقدمين من العلماء والادباء التي تناثرت في شتيت المصادر والمراجع في مدحه والثناء عليه .

وبعد هذا العرض الجميل يطل علينا الباب الاول الذي احتجن مائة وأربع عشرة صفحة ، تكفلت بالكلام على البلاغة قبل السكاكي وتعريفها وأهميتها وعرج على أمهات الكتب اللغوية والادبية التي التمعت في أرجائها شذرات بلاغية هما ، المدرسة الكلامية أو الاصطلاحية أو مدرسة العجم وأهل الفلسفة وكان يتزعمها أبو يعقوب السكاكي ، والمدرسة الادبية أو مدرسة المشارقة . أو مدرسة العرب التي كان يتصدر زعامتها ابن الاثير ومن جرى في حلبته من البلاغيين ، كل ذلك انطوى تحت جناح الفصل الاول . أما الفصل الثاني فقد ضم منهج السكاكي البلاغي ، أما أثر الفلسفة

في منهجه فقد احتضنها الفصل الثالث •

وفي الباب الثاني الذي استغرق من صفحة (١٨٩ ـ ٣٩٧) تكلم فيه على منابع بلاغة السكاكي وأثره وأثر الزمخشري والوطواط والرازي وبعض معاصريهم من أمثال ، المطرزي وابن منقذ وابن الاثير ، وفي هذا الباب تتجلى براعة المؤلف في ارجاع النصوص الى أصحابها والاشارة الى مظانها ، حيث أن السكاكي ـ كما هو معلوم ـ كان قد نقل هذه النصوص في مفتـاحه دون الاشارة الى منابعها •• وهذا مما يدل دلالة قوية على سعة اطلاع المؤلف على كتب البلاغة والادب ، وقد قسا المؤلف في هذا الباب قسوة لاذعة على صاحبه ابي يعقوب السكاكي حيث نعته بالسرق والسطو •

ويأخذك العجب العاجب غداة تجيل طرفك بين أسطار الفصل الذي اقامه على بلاغة القرآن الكريم واعجازه ، وقـد أورد اراء المتـكلمين وأقوال البلاغيين في سر اعجازه ، ثم جاءنا بفصل جميل تحدث فيه عن مصطلحات البلاغة وتحديدها ، وكان خاتمة الباب الثاني الفصل الثالث الذي طوى بين جوانحه الحديث عن أثر السـكاكي في البـلاغة والنشـاط الذي أثاره « المفتاح » ثم تكلم على مدرسة مصر والشام وعرف بأظهر أعلامها من أمثال ابن الزملكاني صاحب « البيان في علم البيـان المطلع عـلى اعجاز القرآن » ـ الذي قام بنشره المؤلف ذاته وقرينته الفضلى الدكتورة خديجة الحديثي ـ وابن أبي الاصبع المصري والتنوخي وابن قيـم الجوزية والعـلوي صاحب الطراز ، وجعل مسك ختام بحثه هذا « مدرسة السكاكي البلاغية وعرف اراء المعاصرين من العلماء في البلاغة من أمثال الاساتذة الافاضل : الاديب أمين الخولي ـ رائد البلاغة في العصر الحديث ـ وأحمد الشـايب صـاحب « الاسلوب » ، وعبدالله العلايلي ، صاحب المعجم ، وختمه برأيه في دراسة البلاغة ، الذي لخصه فيما هو مقبل ، طرح الفلسفة والاصول والمنطق وعلم الكلام عن البلاغة والاستعانة ببعض الدراسات النفسية وما لها من أثر في الفن الادبي ولكن لا الى الحد الذي تتجاوز فيه البحث البلاغي وتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام على بلاغة القدماء ، وهو رأي صائب نرجو أن يوفق الله جل وتعالى ، المؤلف في بعث البلاغة العربية من جديد ويكتب لها السعادة على يديه ، وهو الفارس الكمي ، وانا لنعهد فيه كمال العدة ورباطة الجأش ومضاء العزيمة وكـل ما يتطلبـه الخوض في خضـم البحث العلمي العميق الرصين والتجديد الاصيل ••

كل هذه الفصول كانت نتيجة استقراء دقيـق لمائة وأربعـة وستين مصدرا باللغة العربية والتركية ، والفارسية ، والانكليزية والالمانية ، وقد نوه المؤلف بفضل الذين أعانوه في نقل النصوص التي لم يفقه بلاغتها في أصولها الاصلية ، كاللغة الالمانية ، واللغة التركية واللغة الفارسية ، في هامش ص٤٢٠ من كتابه • وهذا مما يدلنا على الامانة العلمية التي يتحلى بها المؤلف ، وانهـا لعمري من اظهر سجايا العلماء ، وأنعم بهـا من سجية

طيبة نأى جحود جهود ذوي المعونة والافضال ، والتي يعز علينا أن نراها اليوم مستكنة في طوايا النكران والجحود .

والدراسة محلاة بفهارس تفصيلية اشتملت على فهرس الموضوعات وفهرس الآيات والسور وفهرس القوافي وفهرس مصطلحات البلاغة وفهرس الاعلام وفهرس الكتب والاماكن ..

وتتجلى عبقرية المؤلف في نقده الآراء البلاغية الشائعة عند ذوي الصنعة من السلف الصالح . وتمحيصه لها ، فتراه في أثناء دراسته نيقدا فذا ، وحكما تدعمه النصفة والعدل في حكوماته .. وقد شدني العجب والغبطة حينما قرأت انتصار المؤلف لابن قتيبة من الخليفة الذي أدركته حرفة الادب – ابن المعتز ، في صفحة ٨٦ من كتابه ، حيث رد له حقه في أسبقيته بالكلام على فنون البلاغة في كتابه المشهور «تأويل مشكل القرآن». وكان الشائع قبل هذا أن كتاب « البديع » هو أول مؤلف يتناول الادب تناولا فنيا ، وانه يعد فتحا جديدا في عالم البلاغة .

وتحصيل الحاصل فكتاب « البلاغة عند السكاكي » من الدراسات التي تقف في طليعة الدراسات البلاغية شامخة كالطود العتيد برصانتها وعمق تحليلها وروعة نقدها ، وقد عجبت من حرص المؤلف على اخراج كتابه بالصورة التي تتساوق وقيمته العلمية ، حيث أنه قد خلا من الاخطاء الطباعية ، وتنزه عن جداول الخطأ والصواب ، وكأني بالمؤلف قد رزق ناصرتي هدهد في تصليح (ملازم) كتابه .

وختاما لابد لي من الاشارة الى هامش صفحة ٢٨٧ التي فيها « تنظر مقالة رأي في موضوع علم النحو للدكتور مهدي المخزومي ص١٠٩ » أ هـ . ويبدو لي أن هناك كلاما قد سقط من هذا الكلام ، وانه ليحار القارىء في أي المصادر يعثر على « مقالة المخزومي » علما بانه قد أشار الى ذكر وجودها في صفحة ٤١٢ ضمن مصادر الكتاب .. فكأن مطلوبا من الدكتور (مطلوب) ألا يدع سلسلة أفكار القارىء مضطربة في البحث عن ذكر المصدر كاملا . كما اني لا أرى وجها مقبولا من وجوه القناعة في اغفال المؤلف للاعلام التي وردت في هوامش صفحات الكتاب ، غير أنه علل هذا الاغفال بقوله « لم نذكر الاعلام الواردة في الهوامش ، لانها مذكورة في مصادر البحث ومراجعه في نص الكتاب » أ هـ .

وبعد ، فما هذه الاسطر القليلات الا تحية رقيقة وددت أن أتقدم بها بين يدي « البلاغة عند السكاكي » .. لتكون تعبيرا عما يجيش في حناياي من سرور بالظفر بمثل هذه الدراسة الرائعة . والتي نأمل أن تقفوها دراسات رصينات اخر لتسد الفراغ الذي ينتظر الرتق في المكتبة العربية الاسلامية .

مثالب الوزيرين

تأليف : أبو حيان التوحيدي

تحقيق : الدكتور ابراهيم الكيلاني

نشر : دار الفكر - دمشق

نقد : محمد جبار المعيبد

الى عهد قريب جدا ، وكتاب (مثالب الوزيرين) مفقود لا تعرف له نسخة مخطوطة ، غير المقتطفات التي حفظها لنا ياقوت الحموي في كتابه (ارشاد الاريب) وابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) . ومن الطريف أن ابن خلكان (٤/١٩٧) وصف هذا الكتاب بأنه « من الكتب المحذورة ، ما ملكه أحد الا وانعكست أحواله ، ولقد جربت ذلك وجربه غيري على ما أخبرني من أثق به ... » .

وعلى الرغم من كل هذا النحس الذي الصق بهذا الكتاب ، وما لاقاه مؤلفه من مرارة العيش واحراقه معظم كتبه في حياته ، فان كتاب (مثالب الوزيرين) بقي محفوظا في مكتبة أسعد أفندي باستانبول في تركيا . وهذه المرة لم يعد النحس على مقتنيها أو محققها ، وانما عاد على الكتاب نفسه ، كما سنبين فيما بعد .

والكتاب تحفة أدبية رائعة ، من أدب السخرية والهجاء في النثر العربي ، الذي خلا من هذا النوع من الفنون الادبية . وقد سبق الجاحظ التوحيدي الى هذا النوع في رسالته (التربيع والتدوير) على الرغم من اختلاف منهج الكاتبين . فقد كان الجاحظ ساخرا يصور بسخريته خصمه في صور مضحكة خالية من الالفاظ والعبارات النابية المكشوفة ، كالتي وصف بها التوحيدي خصميه ابن العميد والصاحب بن عباد . ولعل الحقد الكبير تجاه هذين الوزيرين أعماه فكتب ما كتب ، وأودع كتابه - كما يقول - « نفسه الغزير ولفظه الطويل والقصير » .

وفي الامتاع والمؤانسة (١/ ٥٤) يذكر التوحيدي كتاب (المثالب) في حديث له مع الوزير ابن سعدان (المتوفي ٣٧٥هـ) ، فيقول « على أني عملت

رسالة في أخلاقه (الصاحب) وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي العزيز ولفظي الطويل والقصير ، وهي في المسودة ولا جسارة لي على تحريرها ، فان جانبه مهيب ، ولمكره دبيب ... قال (أي ابن سعدان) : دع هذا كله وانسخ لي الرسالة من المسودة ولا يمنعك ذاك فان العين لا ترمقها والاذن لا تسمعها واليد لا تنسخها .. »

وهذا النص مهم يجيب عن كثير من الاسئلة ، خصوصا اذا أضفنا اليه نصا آخر من المثالب (ص ٢٠٧) يقول فيه « وجرت أشياء أخر ، كان عقباها انني فارقت بابه (أي الصاحب) سنة سبعين وثلثمائة راجعا الى مدينة السلام ، بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهما واحدا ... »

اذن فمفارقة التوحيدي للصاحب كانت سنة ٣٧٠هـ ، لازمه فيها ثلاث سنوات ، بدأت بسنة ٣٦٧هـ . وكتبت الرسالة ـ المثالب ـ بين سنة رجوعه الى بغداد (٣٧٠هـ) وسنة كتابة الامتاع والمؤانسة (٣٧٤هـ) . ولكنه لم يظهرها الى الناس بل أبقاها مسودة ولا جسارة له على تحريرها ، لان الصاحب كان لا يزال حيا . والظاهر انها لم تعرف ولم تنسخ الا بعد وفاة الصاحب سنة ٣٨٥هـ ، وان كان قد نسخ منها نسخة لابن سعدان كما عرفنا .

بقي أن تعرف لمن ألفت الرسالة ؟ .. الرسالة نفسها لا تفصح عن شيء من هذا ، ولا حتى كتبه الاخرى . ولكن نصا في المثالب (ص ٧) يظهر أن الكتاب ألف بطلب من أحدهم . يقول فيه « وهذه الجملة ـ أكرمك الله ـ أنت أحوجتني اليها ، وجشمتني صعبها ، حتى نشبت بها قائما وقاعدا ، وتقلبت في حافاتها مختارا ومضطرا ، وتصرفت في فنونها محسنا ومسيئا لما تابعت الي من كتاب بعد كتاب ، تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد وغيرهما ممن أدركته في عصري من هؤلاء منذ سنة خمسين وثلاثمائة الى هذه الغاية ، وزعمت أني قد خبرت هذين الرجلين عن عمار الباقين ، ووقفت على شانهما ، واستبنت دخائلهما ، وعرفت خوافي أحوالهما وغرائب مذاهبهما وأخلاقهما . ولعمري قد كان أكثر ذلك اما بالمشاهدة والصحبة ، واما بالسماع والرواية من البطانة والحاشية والندماء ... »

وان نحن بحثنا عمن صحب التوحيدي من الوزراء وغيرهم خلال عامي ٣٧٠ ـ ٣٧٤هـ لانجد غير ابن سعدان الوزير ، كما لانظن أن التوحيدي يجرأ على ذم الصاحب في حياته أمام أحد ، الا اذا أمن جانبه . والمعروف أن ابن سعدان كان من خصوم الصاحب ، ولعل التوحيدي أمن جانبه فكتب له (المثالب) بطلب منه .

وقد شك الدكتور عبدالرزاق محيي الدين في رسالته (أبو حيان

التوحيدي)[1] — قبل العثور على : مثالب الوزيرين — ، شك (أن يكون المقصود بـ (ابن العميد) الاستاذ الرئيس أبو الفضل محمد بن العميد ، وتهيأ لي أن المعني أو المذموم في الرسالة هو ولده أبو الفتح علي ابن ابي الفضل ابن العميد ، وهذا قد ولي الوزارة بعد أبيه وقبل ابن عباد ٠٠) ٠ وقد عدد أسبابا منها : أن أبا حيان لم يقصد أبا الفضل أيام وزارته ولا اتصل به في رجاء أو أمل ٠٠ « ٠ الا أن رسالة المثالب تؤكد على هذه الصحبة ، ونص سابق ذكرناه يذكر أنه صحب ابن العميد والصاحب منذ سنة ٣٥٠هـ ، بالاضافة الى ذكره ولد ابن العميد ، وهو : أبو الفتح علي ابن أبي الفضل بن العميد ٠

• • •

ذكرت ما ذكرت ، وأطلت في الحديث عن زمن كتابة الرسالة ولمن كتبت ، ٠٠ ذكرت كل هذا لخلو مقدمة المحقق الدكتور ابراهيم الكيلاني من كل ما يمت الى الرسالة بصلة ٠

ففي مقدمته (١١ صفحة) لا يذكر غير ترجمة لأبي حيان ، لا يستند فيها الى أي مصدر قديم أو حديث ، كما لا يحقق أي جانب مهم من الجوانب الخفية التي تتصل من قريب أو بعيد بحياة التوحيدي أو مؤلفاته أو الرسالة التي يقوم بتحقيقها ٠ أما الذي يشكر عليه المحقق فهو تقديمه نصا جديدا من نصوص أبي حيان المفقودة تضاف الى تراثنا العربي ، على الرغم من أن هذا التقديم لا يمت الى النشر أو التحقيق العلمي بصلة ٠

والكتاب طبع عن نسخة وحيدة محفوظة في مكتبة اسعد افندي في استانبول ، عثر عليها المستشرق (مارك برجه) فصورها وأهداها الى الاستاذ المحقق ٠ وقد أهمل الاستاذ في مقدمته وصف هذه النسخة ، وزمن نسخها وناسخها ، ووصف المجموعة التي كانت الرسالة ضمنها ٠ أما عن طريقة التحقيق ، فهو يقول « كانت عنايتنا موجهة الى النص ٠٠ » ، والواقع أن النص قد أهمل اهمالا واضحا والاخطاء لا تخلو منها أي صفحة من صفحات الكتاب ٠

وشيء آخر نذكره ، قبل مناقشة المحقق لما في الكتاب من أخطاء ، هو أن كتاب (المثالب) قد حفظت لنا منه نصوص تقرب من نصف الكتاب منتشرة في ارشاد الاريب لياقوت الحموي في ترجمة : الصاحب ابن عباد وابي الفضل ابن العميد ، وابنه ابي الفتح ابن العميد ، وكذلك بعض النصوص في وفيات الاعيان لابن خلكان في ترجمة : ابن العميد ٠ وهذه النصوص الكثيرة تحتم على المحقق أن يتخذها أصلا يقارن به نصوص نسخته الوحيدة ، ويذكر الفروق بين النصين ٠ الا أنه — رغم علمه بهذه النصوص — لم يشر اليها الا اشارات خاطفة ، وكأنه قد كلف بهذا العمل أو اجبر عليه ٠

ونستطيع أن نجمل ملاحظاتنا على هذا الكتاب في النقاط الآتية :(٢)

١ ـ عدم عنايته بالنص :

والامانة العلمية ، عند نشر النصوص ، تقتضي من المحقق خبرة بالنص ودراسة له قبل أن يقدم على نشره ، وهذه الخبرة والدراسة ، على ما يبدو ، لا يملكهما المحقق .

(١) ففي ص ٦٩ (ولي معك ان شاء الله نهار له ذيل ..) وهو تصحيف ، والصحيح (نهار له ليل) ـ أنظر ارشاد الاريب ٢/٢٨٣ .

(٢) وفي ص ٧٩ (وقل ما شئت ، وانصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف ..) والصحيح (وابصر ما أردت) ، لأن المعنى يقتضيه . ولو أراد (انصر) لقال (وانصر من أردت ..) .

(٣) في ص ٨٠ (وكان أبو الفضل ، اعني ابن العميد ، اذا رآه يقول : أحسبوا أن عينيه ركبتا من زئبق ..) والصحيح (أحسب أن عينيه ...) .

(٤) في ص ٨٥ (ثم حدف به الي وقال : ..) والصحيح (حذف) بالذال ، أي رمى .

(٥) في ص ٩١ (قال : هذا مذهب حسن ، ومن هذا الذي يأبى الضيم طائعا ويركب الهون سامعا ؟) والصحيح (يأتي الضيم ..) والمعنى يقتضيه .

(٦) في ص ١٥٧ (قال أحمد بن الطيب : فاستطرفت ذلك وعجبت منه وسألت المخبر عن انصراف قويرى أي شيء كان سببه ؟ فاجابني بأن لا أعلم . فكتب الى ابن ثوابة ...) والصحيح (فكتبت) أنظر : الارشاد ٢/٤٥ .

(٧) في ص ١٦٠ (فقلت : ما غضبكم لنصراني يشرك بالله ويتحداه من دونه الانداد ...) والصحيح (ويتخذ من دونه الانداد ..) بدليل ما جاء بعد ذلك (فقلت له : ان صديقا لي جاءني بنصراني يتخذ الانداد ..) .

(٨) وفي نفس الصفحة (فأتاني برجل قصير ، دحداح ، مجدور ، آدم ، أخنس العينين ...) والصحيح (أخفش العينين ..) أي : ضعيف البصر . والطريف أن المحقق وضع لـ (اخنس) هامشا وفسره بأنه : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الارنبة ..) مع أن النص يقول : أخنس العينين ، وليس : أخنس الانف ..

(٩) في ص ١٦٢ (.. اياي تستهويني أم حسبتني ممن يهتسر لـكايدكم ...) ، والصحيح (يهتز لـكايدكم ..) .

(١٠) في ص ١٩٨ ــ ١٩٩ (فكلامنا حسن وبليغ ، وقد أخذ من الجرأة حظا وافرا ومن البيان تصميما ظاهرا ٠٠٠) والصحيح (من الجزالة حظا وافرا ٠٠٠) ، خصوصا وهو يصف كلاما ــ انظر : الارشاد ٢/٢٩٦ ٠

(١١) في ص ٢٣٢ (٠٠ حتى حضره وسمع كلامه وعرف فضله واستبان سعته ٠٠) ، والصحيح (واستبان سعيه ٠٠) ــ الارشاد ١/٢٨١ ٠

(١٢) في ص ٢٤٨ (٠٠٠ متوجها الى اصفهان ومزلة ورامين فجاوزها الى قرية مجاورة ٠٠) ، والصحيح (ومنزله ورامين ٠٠) ــ الارشاد ٢/٢٨٨ ٠

(١٣) في ص ٢٦٢ (قال : اكتب الابيات وارفعها الي ينجاح ــ وكان خازن كتبه ــ ثم قال ٠٠) والصحيح (الى نجاح ــ وكان خازن كتبه) ٠

٢ ــ عدم العناية بضبط الاعلام :

أما أسماء الاعلام الواردة في الكتاب ، فما هي الا فوضى من الاسماء ، اليك بعضها :

(١) ص ٨٤ (الجرفادقاني) : والصحيح (الجرباذقاني) نسبة الى (جرباذقان) وهو اسم لبلدتين في فارس ــ أنظر : الانساب المتفقة ١٨٤ ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا ٩٩) ٠

(٢) في ص ٢٤٨ (النويهار) بالياء ، والصحيح (النوبهار) بالباء ٠

(٣) في ص ١٦ يقول التوحيدي(٣) (ولقد رأيت الجرجرائي في عداد الوزراء وجلة الرؤساء ، وانما قتله ابن بقية لأنه تغم له بالوزارة ٠) ٠ وقد ترجم المحقق لـ (الجرجرائي) في الهامش بأنه : محمد بن الفضل الجرجرائي ، تولى الوزارة للمتوكل توفي سنة ٢٥٠هـ ، والصحيح أن المراد ب (الجرجرائي) هو : محمد بن أحمد الجرجرائي المتوفى سنة ٣٦٣هـ ، اذ لا علاقة للجرجرائي الاول بابن بقية ، خاصة وان أكثر من قرن يفصل بينهما (أنظر : تجارب الامم ٢/٣٢١) ٠

(٤) في ص ٣٢٢ ، ذكر التوحيدي نصا عن (النوشجاني) نفهم منه أنه معاصر للمأمون ، والنص هو : (هذا ثمامة المتكلم يحكي بلسانه وهو صاحب المأمون ، قال : دخل النوشجاني على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين ٠٠٠) بينما ذكره في كتبه الاخرى على أنه من اصحابه ٠ ففي الامتاع والمؤانسة ٢/١٤ في احدى محاوراته (٠٠ وها هنا من يتفلسف وهو يهودي ، كأبي الخير ابن يعيش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم كأبي سليمان والنوشجاني وغيرهم ٠٠٠) ، وفي المقابسات ذكره في عدد من الصفحات ، منها ص ٢٧٣ (٠٠ فلما خرجنا من بين

يديه قال لي الموشجاني : أراد ان اشكانه ...) وقد ذكر السندوبي انه لم يعثر له على ترجمة .

(٥) في ص ٢٣٧ (ولهذا قال ابن أبي الثيات ...) وقد صحف اسمه في ص ٢٨٢ الى (ابن ابي السيباب) ، وورد مرة ثالثة ص ٢٧٩ باسم (عبدالرزاق بن الحسين أبو محمد بن ابي السيباب) فما كان من المحقق الا أن وضع كلا من الاسماء الثلاثة في فهرس الاعلام منفصلة وكأنها أسماء لثلاثة أعلام . وقد سماه ابن خلكان ١٩٢/٣ (أبا محمد عبدالرزاق بن الحسن المعروف بابن السيابي البغدادي اللغوي المنطقي ...) ولم يشر المحقق الى هذا الاختلاف مع اشارته الى كتاب ابن خلكان .

(٦) وظاهرة الخلط بين الاسماء فاشية في نصوص الكتاب ، فالعلم الذي يرد اسمه مرتين أو ثلاث في الكتاب بتقديم وتأخير في كنيته أو لقبه ، فانه يوضع في فهرس الاعلام منفصلا مرتين أو ثلاث أيضا ، مثلا :

أبو المسلم (الشاعر) .

(أبو المسلم) نجبة بن علي .

نجبة بن علي (أبو المسلم) .

ورد هذا العلم بهذا الشكل في نصوص الكتاب ، وقد وضع المحقق هذه الاسماء في ثلاثة أماكن من فهرس الاعلام ، وكذلك :

ابن نباتة وعبدالعزيز بن نباتة ..

ابن شاذان وأبو الحسن بن شاذان .

الحسن البصري وأبو سعيد الحسن بن ابي الحسن .

الابهري وأبو سعيد الابهري .

سليمان بن علي وسليمان بن الهاشمي .

(٧) أما ترجمة الاعلام في هوامش الكتاب ، فعناية المحقق تقوم على المشهور منهم ، وترك ما يتطلبه البحث من رجوع الى المصادر وكتب الرجال . فهو يترجم – مثلا – للمهلب بن ابي صفرة ولبيد بن ربيعة وابن بقية ومسكويه والفارابي ، ويترك : البديهي (أنظر : اليتيمة ٣٤٣/٣ والمقابسات – الفهرس) وابن جلبسات الشاعر (أنظر : الامتاع والمؤانسة ١٣٥/١ واليتيمة ٢٧٠/٢) وجعل البصري (انظر : المنتظم ١٠١/٧) ... وغيرهم من أصحاب ابي حيان الذين تردد ذكرهم في كتبه الاخرى كالامتاع والمؤانسة والمقابسات والصداقة والصديق وغيرها .

٣ ـ تخريج الشعر :

والكتاب امتلأ بشعر كثير للصاحب وابن العميد ولكثير من شعراء القرن الرابع الهجري المعاصرين للتوحيدي · ولم يحاول المحقق مراجعة هذا الشعر في مصادره كـ (يتيمة الدهر) للثعالبي و (وفيات الاعيان) لابن خلكان ، وكتب الطبقات التي تترجم لهؤلاء وتروى أشعارهم ، كما لم يحاول ، في كثير من الاحيان ، مراجعة دواوين الشعراء المطبوعة ومقابلتها بنصوص الكتاب · ومنشد الشعر ، بالنسبة له ، هو قائله · ففي ص ٧٦ (قال : انشدنا علي بن سليمان الاخفش لشاعر ··) نسب الابيات في فهرس القوافي الى الاخفش ، كما ان بعض الابيات كتبت نثرا (ص ٦١) ·

ويبدو ، أيضا ، أن الآيات القرآنية يصعب التعرف عليها ، فيشير المحقق الى بعضها دون ذكر رقم الآية ، والبعض الآخر يهمله (أنظر : ص ١٥٩ ، ٦٩) · والتوحيدي كذلك يأتي بكثير من أحاديث الصاحب بن عباد وابن العميد ، ثم يعلق عليها بسخرية ومرارة · ولم يلتفت المحقق الى هذا ، بل خلط كلام الوزيرين بالتعليق الذي بعده (ص ٨٦) ·

والفهارس ، لا أظن المحقق صنعها ، بل أؤكد أن أحدا ـ ربما تلاميذه ـ قام بصنعها ، والا اتهمناه بالجهل ·

وأخيرا : لم نذكر كل ما ذكرناه ، الا لعلمنا أن الذي قام بالتحقيق (دكتور) له صحبة طويلة مع أبي حيان من تحقيق وتأليف(٤) ، ونود منه ، في المستقبل ، أن يتثبت من موقع قدمه حينما يقدم على تحقيق كتاب من تراثنا العربي ·

●

تعليقات في الهامش

(١) أبو حيان التوحيدي ، سيرته ـ آثاره ص١٩٢ · مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٤٩ ·

(٢) تعرض الدكتور مصطفى جواد لنقد كتاب (مثالب الوزيرين) في مجلة (المكتبة) البغدادية العدد (٣٥ ـ ٣٦) ١٩٦٣ ، وقد استبعدنا ما استدركه الدكتور جواد على الكتاب من مؤاخذات ·

(٣) ناقش الدكتور جواد المحقق حول (الجرجرائي) ، ولكنه لم يعين المراد في المثالب ، واكتفى بأن (الجرجرائية) ليست نسبة لانسان واحد بعينه ·

(٤) للدكتور ابراهيم الكيلاني ، محقق (المثالب) كتاب بعنوان (أبو حيان التوحيدي) كما حقق رسائل للتوحيدي ، والصداقة والصديق له ايضا ·

عالم الفنون

القيثارة الحـــديدية

تاليف : جوزيف اوكونور

اخراج : جعفر السعدي

نقد وتقديم

عبدالرحمن مجيد الربيعي

مقدمة :

لا يزال المسرح العراقي يعيش عصره المظلم بالنسبة للفنون الاخـرى كالفن التشكيلي مثلا الذي خطا خطوات موفقة بعيدة ، وبالنظر لما للمسرح من أهمية ذوقية وتوجيهية لدى الشعوب النامية لذا رأينا النداءات الكثيرة التى يطلقها بعض المهتمين بالمسرح عندنا من اجل مده بالعون المادي والمعنوي ·

ولو تاملنا المسرح في الجمهورية العربية المتحدة مثلا احسسنا بماتبذله الدولة من مساعدات كبيرة ارفع مستواه الذى قطع اشواطا بعيدة فى (تنه) صوب العالمية ·

ومشكلة المسرح في العراق مشكلة كبيرة لانه ليس بالنشـاط الفردي بل هو فعالية جماعية مهمة ولذا وجب خلق جمهـور مسرح واع ، فالمسرح الشعبي لا زال المستقطب لاذواق النسبة الكبيرة من الناس وهم يتـابعون المسرحية الشعبية سواء من المسرح او التليفزيون ، بشوق · ولنا في مسرحية (مسألة شرف) الشعبية التي كتبها عبدالجبار ولي خير دليل فقـد كان العرض موفقا في كل لياليه ·

وقد تبدو فكرة تأسيس المسرح الطليعي في العراق مهمة صعبة · هذا المسرح الذي يأخذ على عاتقه تقديم التجارب الجديدة للكتاب الصاعدين في العراق كما حدث في مصر فقد قدمت مسارح القاهرة في العام الماضى اثنى عشر مؤلفا جديدا لم يسبق لنتاجهم ان قدم كما ذكر هذا الدكتور رشـاد رشدي في مقالة له بعدد مارت من مجلة المسرح ·· هؤلاء المؤلفون الذين لا يأملون ان يقدم نتاجهم الا بعد عشرين سنة على الاقل · لذا وجب ملاحظة هذه

النقطة المهمة ان كان في النية خلق مسرح عراقي وجمهور متابع ذكي ..
ولولا مسرحيات معهد الفنون الجميلة لحرمنا من مشاهدة اية مسرحية ولبقي المسرح عندنا مجرد نصوص نقرأها على الورق .

المسرح المدرسي

المسرح العراقي اليوم يكاد يكون معدوما ومقتصرا على المسرح المدرسي وحده ، وفي الايام الاخيرة قدمت مصلحة السينما والمسرح مسرحية (تاجر البندقية) لشكسبير ، وعسى ان تتبع هذه المبادرة الاولى محاولات اخرى ، اتمنى ان يكون فيها الاختيار واقعا على مسرحيات طليعية جديدة مستوعبة لقضايا العصر وأحداثه ويفضل أن تكون لمؤلفين عراقيين وان تبتعد ولو وقتيا عن مسرحيات سبق وان قدمت عشرات المرات .

القيثارة الحديدية

هذه المسرحية هي اول مسرحية كتبها المؤلف والممثل الايرلندي (جوزيف اوكونور) سنة ١٩٥٥ واول مسرحية ايرلندية تقدم في بغداد .

تدور احداثها خلال ثورة التحرير الايرلندية التي بدأت بقيادة (دي فاليرا) ايام اصرار انكلترا على عدم منح ايرلندا حريتها واستقلالها ، ولم تكن تلك الحرب حربا نظامية بل كانت حرب عصابات حاولت انكلترا صدها بطريقة بشعة على يد البوليس الحربي (التان والبلاك) التي كان من خطتها قتل عدد من الابرياء الايرلنديين مقابل كل انكليزي ميتا كان مركزه ..



احمد الجزراوي وعبدالعزيز محمود في مسرحية « القيثارة الحديدية »

وخلال هذه الاحداث تطرح المسرحية قضية الصراع بين الدول الصغيرة التي يظهر رمزها ببعده الضيق في ايرلندا وبين الدول الغاصبة الكبيرة التي يظهر رمزها في بعده الضيق ايضا في انكلترا .. ومن بين هذه الاحداث تبرز الخيوط الانسانية التي تسقط مفاهيم الالوان والاجناس والعداوات الموقتة وتبرز العواطف النقية والعلاقات البيضاء ، وهكذا احبت (موللي) سميا داود الضابط (جوني) فاروق فياض اسير ابن عمها الاعمى (اوريوردن) عبدالحافظ عارف ، والصداقة العميقة التي ربطت (اوريوردن) بأسيره (جوني) وقد جن جنونه عندما وقعت القرعة عليه ليعدم رميا بالرصاص مع اثنين اخرين من الاسرى وقد حاول تدبير هروبه الا ان (جوني) لم يوافق وبقي حتى حضور الضابط المكلف باعدامه .

ان تداخل هذه العلاقات الانسانية فيما بينها هو الذي اوصل الانفعالات الى قمتها في هذه الدراما الحزينة التي تنقد الوضع انذاك بسخرية مريرة كما في حالة الجنديين اللذين يدخلان ليقتلا الاعمى (اوريوردن) ونحس انهما ينويان تنفيذ العملية دون أن يدركا من حقيقتها قسطا . ان المسألة من جانبهما هي أن يقتلا دون أن يحاولا التساؤل عن هذا ..

وقضية طرح العلاقات الانسانية وانتصار الجانب النقي فيها ليست بالجديدة على المسرح فقد طرقت مرات عديدة وخير مثال لها عند شكسبير في مسرحيته (روميو وجولييت) فهما متحابان هائمان يحبهما رغم العداوة المزمنة بين اسرتيهما ، الا ان المسألة تبقى بعد ذلك مسألة اختيار جانب عن هذه العلاقات وطرحها ضمن اطار ما سواء كان هذا الاطار حربيا او عاطفيا او كوميديا .

وكان اختيار الاستاذ جعفر السعدي لهذه المسرحية اختيارا ذكيا لطرحها قضية الانسان الباحث عن سعادته الموقتة وخلاصه حتى وهو في لحظات الحصار وافواه البنادق المحشوة موجهة صوب جمجمته ، وعند اعدام الضابط (جوني) تطالعنا صرخة احتجاج عنيفة ضد الحرب ولولاها لهنأ (جوني) بعيني حبيبته (موللي) التي كانت تنتظر هروبه في محطة القطار ليبدأ معها حياة جديدة



فاروق فياض وعبدالحافظ عارف في مسرحية «القيثارة الحديدية»

لن يملأ اذانهما فيها صوت الرصاص الملعلع في الهضاب والبيوت ٠

تقع المسرحية في فصلين والمنظر واحد في كليهما ، وقد كان الممثلون اقل من مستوى المسرحية كثيرا تطغي على القائهم الخطابية ولست ادري ما الداعي لاستمساك (اوريوردن) بهذه القهقهة التي يعقبها بعد كل كلمة ! فهي تفقد شخصيته تلك الجدية التي شدت الاحداث في الاخير ، الا ان عبدالحافظ عارف (اوريوردن) كان عاملا كبيرا من عوامل نجاح المسرحية والدور كان ملائما له كل الملاءمة ، وفاروق فياض كان طبيعيا ومرنا في تمثيل دور الضابط الاسير والعاشق في الوقت نفسه ، اما سميا داود فكانت شخصيتها مهتزة لم تخضع لابعاد ثابتة ومحاولتها في ان تكون ناعمة ومحبوبة تظهرهـــا في كاريكاتورية مضحكة احيانا ٠ ولم يتبع المخرج أي تجديد في التنفيذ بل ابقاها ضمن إبعادها النامية عموديا ، وللنص تأثير كبير في هذه التقليدية ٠ وقد ابدع الاستاذ السعدي في غرس سيكولوجية ابطال المسرحية لدى الممثلين الذين لا زالوا في اول الدرب ولم يستكملوا عدتهم الفنية بعد ، وكان تحريكهم على المسرح ممتلئا لا يعاني من التخلخل ، كل حركة في مكانهـــا ولا يمكن الاحساس بزيادتها ٠

ان المسرحية كانت عملا طيبا يصلح استنادا متينا لتقوية المسرح العراقي ورفعه ٠

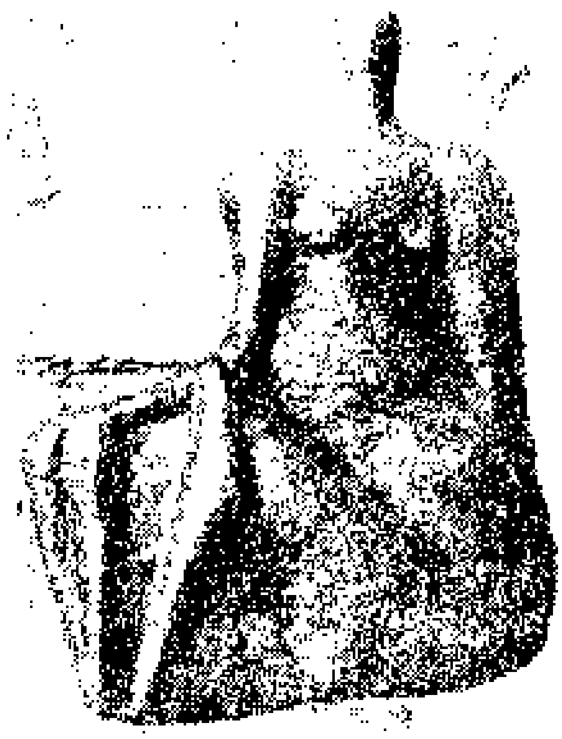
●

من المعارض

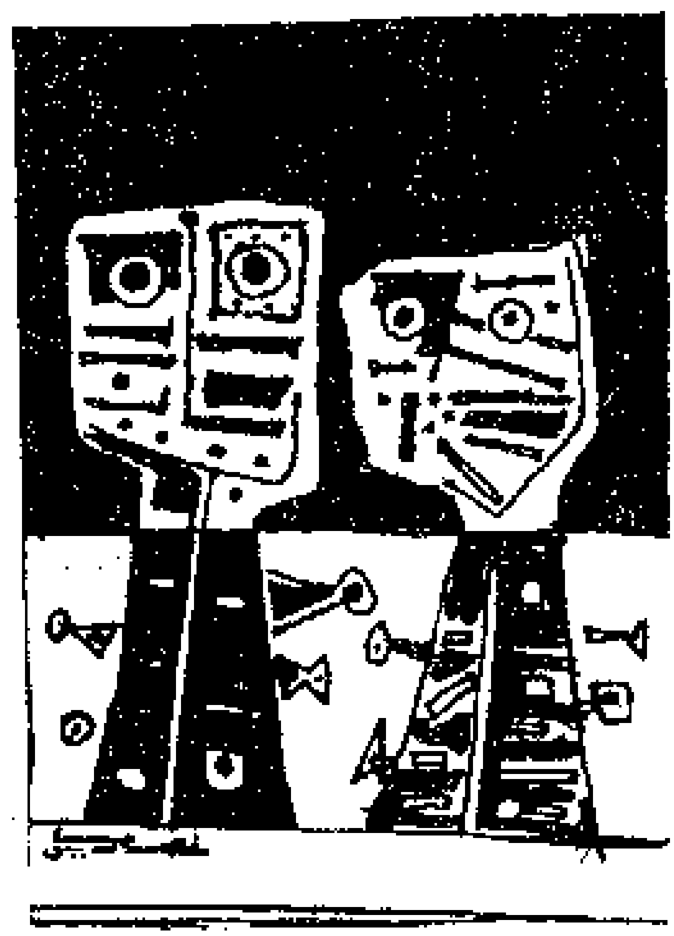
شهدت بغداد خلال الموسم الحالي ما لم تشهده من قبل من معارض كثيرة وقيمة ففي كل يوم يفتتح معرض جديد في ــكولبنكيانــ او ــاوروزدي باك ــ او قاعة الواسطي ٠٠٠ والمتتبع للحركة الفنية في العراق يجد ان المعارض الشخصية اصبحت ظاهرة بارزة بعد ان كان الفنانون يترددون امام اقامة معارض شخصية لهم ، اما انهم لا يملكون الجرأة الكافية لذلك او ان المكان غير متوفر دائما ٠٠٠ وقد كان لقاعة ــكولبنكيانــ دورها الفعال في استيعاب الكثير من المعارض وكذلك قاعة الواسطي التي انشئت حديثا ٠٠٠ ومن بين المعارض المتعاقبة احاول أن أقف عند البعض منها ٠٠

معرض المجددين
قاعة ــ كولبنكيان ــ الفن الحديث

المجددون جماعـــــة من الفنـــــانين الشبـاب الـــــذين اتفقوا على أن يكون ايجاد مدرســـــة فنيـــــة عراقيـــــة متحررة رائـــــدا لهـــــم وقد



« طرق نحاس »
نداء كاظم جواد



« بطاقة الدعوة »
لعرض المجددين

سبق لي ان قدمتهم في احدى المجلات[1] الكويتية قبل ان يبدأ معرضهم الاول وتتكون جماعة المجددين من النحاتين نداء كاظم وطالب مكي والمصور الفوتوغرافي طاهر جميل والرسامين سالم الدباغ وفائق حسين وصبحي الجرجفجي وعلي طالب وصالح الجميعي . وقد سبق معرضهم دعاية كبيرة كان مستوى المعرض اقل منها بكثير واقول ذلك بأسف عميق . ان تملك الجرأة الكافية لتقديم شيء جديد عمل رائع ولكن على اساس ان يكون هذا الجديد مدروسا وله مقومات نجاحه حتى لا يسقط في الافتعال والتهافت ويصبح بعد ذلك جهدا ضائعا ..

في الحقيقة ان نتاج الكثير منهم كان سريعا يحاولون فيه التمرد على اساتذتهم وهذا ليس بالعدل ولا هو الطريق الصحيح لان البدء في التجريد والابستراك قبل هضم الاكاديمي لايجعل للرسام اساسه المتين وبعد ذلك تأتي القضايا كتطور حتمي وليس تقليدا رخيصا ، بتعبير آخر ان عليهم ان

(١) مجلة الرائد العربي ـ العدد (٥٠) المجددون .

يبدأوا من الاساس وليس من السقف ، اننا عندما نرى صورة لسلفادوز دالي مثلا ليس المطلوب منا ان نرسم على شاكلتها ابدا لان لوحة ـ دالي ـ تملك مبرراتها ومقوماتها التي لا تنطبق في اية حال من الاحوال على لوحة لجواد سليم مثلا ، وكم كان بودي لو طرح ـ المجددون ـ التعنست جانبا وبدأوا بطريقة سليمة لكانوا مقبولين اكثر ٠٠٠ لقد ارادوا شيئا ولكن الانفصام حدث بين ما ارادوه وبين التنفيذ على اللوحة فجاءت رسومهم كلعبة بلا قواعد ومن هنا جاء عدم اهتمام الكثير من المتتبعين للفن لهذا المعرض ٠٠

معرض رافع الناصري

المركز الثقافي الجيكوسلوفاكي

وهذا فنان من الجيل الجديد المختص في الحفر ـ كرافيك ـ في احدى اكاديميات الصين ، والحفر دخل الفن العراقي حديثا وخصوصا بعد ان استحدث كدرس جديد في اكاديمية الفنون العليا ببغداد وجيء باستاذ متخصص فيه من بولندا الا وهو الاستاذ ارنموفيسكي ، وقد ظهرت نتاجات العراقيين في هذا الميدان من خلال معارض الاكاديمية في السنتين الاخيرتين حيث برز بعض الطلاب فيها ٠



وجه (حفر)
من معرض رافع الناصري



(حاملات الجرة)
من معرض رافع الناصري

يحاول رافع الناصري ان يجعل رسومه محتفظة بفولكلوريتها وانفاسها التي تربطها بالواقع العراقي رغم التجديد والجرأة في تخفيف كثافة اللون والخط ٠٠٠٠ ويميل الناصري الى البساطة والبساطة المتناهية فهو هنا كالشاعر الذي يطيق ان يقول ما يريده بكلمات قليلة ومؤثرة ٠٠ وبهذا فانه يدحض ما يظنه البعض ان روعة الفن الجديد تأتي من التعقيد الذي يحمله ٠٠ وقد برهن ان بأمكاننا ان تصل لما نريده ببساطة مع المحافظة على اللغة بين الفنان والآخرين ٠٠

ان الفنان يبحث عن جمهوره دائما وهذا الشاعر بيتس يقول : (اينما وجد المرء بيتا جميلا من الشعر فانه يود لو يقرأه لشخص ما ، ولو اتيح لنا جميعا ان ننصت كل صديق الى صديقه وكل عاشق الى محبوبه للقينا من الغناء اقله ومن المتعة اعظمها)٠

وما يقوله بيتس في الشعر ينطبق تماما على ما يريده الفنان الملتزم ، وظل الناصري يحتفظ بأنفاسه وشخصيته حتى في صوره التي رسمها في الصين من امثال (فينيسيا الصين) و (اوبرابكين) ، وقد كتبت عنه احدى صحف هونغ كونغ قائلة : (انه اول فنان عربي يجمع بين التكنيك الشرقي والمواضيع العربية وقد كانت النتيجة مفرحة)٠

معرض تركي عبدالامير

اوروزدي باك

تركي عبدالامير واحد من الفنانين الشباب الصاعدين ٠٠ وقد قدم في معرضه هذا حوالى (٣٥) لوحة تنطلق في مواضيعها من واقعية حية يأخذها الفنان من بيئته : (عائلة ريفية ، زوارق طويريج ، كاولية ، في المقهى ٠٠) هذه هي مواضيعه لكنه يحاول ان ينفذها بانعتاق اكثر فتظل في حدود الاكاديمية ٠٠

تمتاز لوحاته بمناخ لوني متقارب ينحصر في حدود الاصفر والقهوائي والاحمر تخرج من هذا المناخ لوحتان هما (حشر رقم ٢) و (خيول) ، والمشاهد للوحاته يجد ان الوانها ثقيلة جدا وتبدو كالطين المتراكم ولم يوفق في رسوم — البورتريت — لما في الوانه من موت وجمود وطبيعة التكنيك الثقيل الذي يعيده نفسه في كل الضروب سواء في الـ (ستل لايف) او المناظر ٠٠

تدرج جميع اعماله في حدود المحاولة التي احتاج لجرأة كافية ان قلت بأنها موفقة بعض الشيء ٠٠٠ ولم يستكمل بعد ملامح شخصيته الخاصة ولا يزال وجهه مدغما ٠٠ الا ان موقفه في الدرب الصحيح الذي سيقوده حتما الى تطور ناضج وذكي بعيدا عن الاخذ الاعمى من الاساليب الاوربية المعاصرة ٠٠ وحبذا لو سار على منواله الفنانون الشباب ضمن مسيرتهم الفنية الجديدة ٠

اضواء على السياسة العالمية

السياسة الداخلية

زيارة السيد رئيس الوزراء الى القاهرة

في اليوم الثالث من شهر نيسان وصل القاهرة وفد عراقي برئاسة الفريق طاهر يحيى رئيس الوزراء وعضوية السيد محسن حسين الحبيب وزير الدفاع والسيد ناجي طالب وزير الخارجية وفي اليوم الثاني من الزيارة استقبل الوفد من قبل الرئيس جمال عبدالناصر .

ويبدو من تصريح السيد رئيس الوزراء ان الغرض من هذه الزيارة هو تبادل وجهات النظر مع اخواننا المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة حول القضايا التي تخص التعاون بين الجمهوريتين الشقيقتين وكذلك القضايا العربية الراهنة .

ويرى المراقبون السياسيون ان الوفد العراقي تباحث مع المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة جملة من القضايا الهامة في الوقت الحاضر بعضها داخلي وبعضها خارجي . والمهم في الامر ان وجهات النظر كانت متفقة ، ولعل الجانب الداخلي كان الغالب في تلك المحادثات بدليل ان السيد زكريا محيي الدين نائب رئيس الجمهورية في القاهرة هو الذي حضر المقابلة التي جرت بين السيد الرئيس جمال عبدالناصر والوفد العراقي برياسة السيد رئيس الوزراء .

وفد الاتحاد الاشتراكي

وفي نفس اليوم وعلى نفس الطائرة سافر الى القاهرة وفد الاتحاد الاشتراكي برياسة السيد عبدالكريم فرحان الامين العام للاتحاد وعضوية السيد اديب الجادر والسيد فؤاد الركابي والدكتور عبدالعزيز الدوري والدكتور خيرالدين حسيب والسيد عبداللطيف الكمالي .

وقد عقد الوفد عدة اجتماعات بالسيد حسين الشافعي عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي في الجمهورية العربية المتحدة والسيد كمال الدين رفعت وفتحي الديب . وقد استعرض المجتمعون موضوعات تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي والعقبات الادارية في التنظيم

واسس الربط بين الاتحاد واجهزة الدولة والتفرغ للعمل السياسي ومراحله في كل من العراق والجمهورية العربية المتحدة ٠

ان مثل هذا اللقاء المباشر بين المسؤولين عن الاتحادين يذلل كثيرا من الصعوبات ويكسب كلا الطرفين الخبرة والمرونة في معالجة المشاكل وهو خطوة واجبة نحو تحقيق الهدف الكبير في توحيد التنظيميين بعد فترة الانتقال ٠

الوضع في شمال العراق

منذ وقت ليس بالقصير استقر رأى المسؤولين في الجمهورية العراقية على التحدث بصراحة تامة الى جمهور المواطنين عن الاوضاع في شمال الوطن دفعا لما قد تتركه الاشاعات من آثار سيئة في نفوس الناس ، ومبدأ الصراحة هذا في كشف الحقائق مارسته السلطة وحبذه الناس باعتباره عملا تمليه طبيعة الثقة المتبادلة بين الحكومة الوطنية وعامة الناس وهو مظهر يرى فيه المراقبون السياسيون انه من دواعي اعتزاز هذا الحكم وتجاوبه مع رغبات ابناء الشعب ٠

ان ابناء الشعب يرغبون رغبة اكيدة في ان تستقر احوالهم ويطمئنوا الى حياتهم ويبتعدون عن كل ما يعكر صفو هذه الحياة ، وهم كذلك حريصون على ان يعرفوا ماذا تصنع السلطة وماهي حقيقة الاحوال في كل جزء من اجزاء الوطن ٠

من هنا تأتي اهمية المحاضرة التي القاها السيد مدير الاستخبارات العسكرية وهو أحد المسؤولين المطلعين على خفايا الامور ، واستعرض امور الشمال بكثير من الدقة مبتدئا بالنواحي التاريخية التي ترتبط بين المواطن وتربة هذا الوطن ، ثم تحدث عن الدوافع الحقيقية للتمرد ، وعزا ذلك الى جملة اسباب ، في مقدمتها قانون الاصلاح الزراعي الذي قضى بدوره على الاقطاع بسبب ان الثروة التي كانت تركز لدى نفر قليل اصبحت بفضل قانون الاصلاح الزراعي توزع توزيعا عادلا على العاملين في الارض ، ثم بين المحاضر ان الاستعمار هو العامل الاساسي كذلك في حركات التمرد وذلك لاسباب اهمها :

١ ــ الهاء الجيش عن ممارسة اعماله الجسام في تحرير فلسطين ٠

٢ ــ استنزاف منتوجات العراق والدخل القومي ٠

٣ ــ مدى مالالاستعمار من مصالح مرقية في المنطقة التي يحاول الحفاظ عليها كلما تعرضت الى خطر ٠

٤ ــ واخيرا فان الاستعمار كلما شاهد ان هناك تقاربا بين العراق والدول العربية يحاول ان يضغط على العراق لالهائه ومنع حدوث التقارب بينه وبين شقيقاته الدول العربية ٠

وقد ختم المحاضر محاضرته موضحا ان الشعب والحكومة تؤمن بأنه لا انفصال وان القومية الكردية لاتذوب ولا تعرب وان العرب والاكراد عاشوا منذ الاف السنين اخوانا تربطهم مصلحة الوطن والحفاظ عليه تحت راية الاسلام ·

ان الاصابع الاجنبية تحرك المتمردين وتغريهم وهي بذلك تسوقهم الى حتفهم ، ان الحكومة سعت لعدم اراقة الدماء وحل المشكلة سلميا ،والحكومة من واجبها ان تحفظ امن المواطنين واستقرارهم وتضرب بشدة على يد كل من يعبث بمقدرات الامن ويعكر صفو الاستقرار ·

ومما تجدر الاشارة اليه ان كتابا بعنوان « اضواء على شمال العراق » الفه الاستاذ نعمان ماهر الكنعاني المدير العام بوزارة الثقافة والارشاد ، قد صدر الى الاسواق يبحث في موضوع الاكراد احتوى على وثائق واحصائيات صححت كثيرا من المفاهيم المغلوطة التي كان اعوان التفرقة يبثونها بين جمهور المواطنين ، فقد ظهر بالاحصاء ان الموظفين من الاكراد يفوقون كثيرا نسبة تعدادهم من السكان ، كما ان تعداد الاكراد لم يكن بالقدر الذى تداوله الناس من قبل ولعل الوثائق التي اثبتها المؤلف في كتابه توضح الدوافع الى تمرد البرزاني وهي تبين مدى ما يصل اليه التعاون بينه وبين الجهات الاجنبية التي تحركه كلما دعت الحاجة الى ذلك ·

ان مجموعة العشائر الكردية في الشمال تشجب بشدة حركة الانفصال التي ينادي بها البرزاني وهو لايمثل الا قلة اتخذت من الارهاب وسيلة لارغام الناس على الطاعة ·

ولا شك في ان رغبة الاكراد في العيش الآمن المطمئن تحتم عليهم شجب الحركات الانفصالية المشبوهة ·

في السياسة العربية

اجتماع وزراء الاعلام العرب :

اجتمع في عمان وزراء الاعلام العرب بدعوة من الامانة العامة لجامعة الدول العربية بمستوى مجلس الجامعة العربية ·

وقد تميزت القرارات التي اعلنها المجتمعون بايجابية ملحوظه في بعضها وفي بعضها الاخر مماطلة وتأجيل ·

ان ابناء الامة العربية ينظرون الى اجتماعات مجلس الجامعة في مثل هذه الفترة بالذات نظرة تختلف عما كان ينظر اليها في السابق ، فيرون ان الاجتماعات التي لايمكن ان تؤدي الى نتيجة ايجابية فعالة خير لها الا تعقد والسبب في ذلك ان اسرائيل تستفيد من الاجتماعات هذه من حيث انها

تؤلب الرأى العام العالمي حين تدعي ان ثلاثة عشرة دولة عربية بامكانياتها المادية والبشرية تجتمع لتخطط منهجا موحدا فيما بينها تواجه به اعداء الامة العربية . مثل هذا الكلام ـ ان لم يكن واقعا فعليا ـ تستفيد اسرائيل منه بحجة توازن القوى ـ كما ينادي ساسة الغرب اليوم ـ في ان اسرائيل يجب ان تحصل على السلاح بكميات توازي ما يحصل العرب عليه مجتمعين .

ان العرب في كل مكان ينظرون الى انفسهم قوة واحدة والشعب العربي بحاجة الى ان يشخص من يشذ عن الاجماع العربي لانه بذلك يكون عنصرا ضارا بكيان الامة واسقاطه من الحساب خير للامة لكي لايحسب في مجموعها فيستفيد اعداء الامة من تعداده ونضار فيه المجموعة العربية بكونه عضوا شاذا غير نافع .

ومن هنا تخطر على البال فكرة هي اطلاع الرأي العام العربي لا على مقررات مؤتمر وزراء الاعلام ، وانما اطلاعه على التحفظات والشذوذ عن الاجماع العربي ـ ان وجد ـ فان المرحلة التي تجتازها الامة العربية مرحلة حاسمة لاتحتمل شذوذا او تحفظا ، هذه ارادة الامة وليس من حق احد ان يحرف في هذه الارادة . اطلعوا الرأى العام واشركوه في المسؤولية .

تصريحات ابو رقيبة

من الامور الغريبه حقا ان تصدر تصريحات الرئيس ابو رقيبة في هذه الايام تنادي بتصفية القضية الفلسطينية . ان الشكل الذى ذكره الحبيب ابو رقيبة لحل هذه القضية شكل يردد ما نادى به الاستعمار ونادت به اسرائيل من قبل كسبا لصفة مشروعة وتثبيتا لوضع شاذ تفرضه سياسة الامر الواقع .

كان ابو رقيبة ينادي بالبورقيبية قبل الان والبورقيبية كما فسرها تمثل سياسة الواقع والواقعية ونحن نسأل الرئيس ابو رقيبة اي واقعية في هذه التصريحات التي أغضبت مائة مليون عربي ، ان مائة مليون عربي يخالفون الحبيب ابو رقيبة في تصريحاته فهل هذه واقعية وهل من الواقعية في شيء ان نتغاضى عن رأي مائة مليون ونتمسك برأي شخصي قرأناه أو درسناه في نشرة او كتاب ثم نسمي ذلك بورقيبية واقعية .

لقد اول الناس هذه التصريحات بانها لايمكن ان تكون تصريحات عفوية ، ولابد ان تكون مرتبطة بمشاريع استعمارية يهمها ان تصدر في هذه الفترة بالذات ويهمها ان يتصدع كيان الامة العربية وبخاصة بعد مؤتمرى القمة العربيين .

وقد اولها بعضهم بان « ابو رقيبة » قد تسلم ثمن ما اذاع الى آخر ما قيل وما يقال في هذا الصدد .

يبدو ان القاهرة لاترغب في جعل هذه التصريحات تاخذ طريقا غير

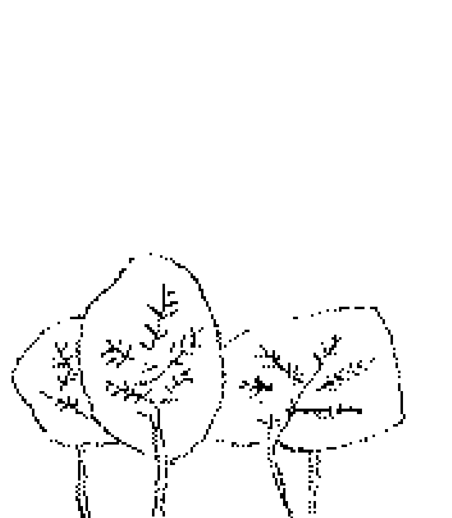
الطريق الذي سارت فيه وهي تصريحات تعارضها الجماهير العربية صاحبة الكلمة وتعارضها بصفة خاصة جماهير الفلسطينيين الذين قاسوا مـرارة التشريد واللجوء فقالوا كلمتهم في هذه التصريحات بأنها لاتمثل ارادتهـم ولا تحل مشكلتهم ولا يرضون ان يكون الرئيس ابو رقيبة وصيا عليهم .

ان ابو رقيبة لم يعش هذه المشكلة ولعله ابعد الناس عنها ، اما ان يزور اريحا وتتفتح امامه سبل الحل لهذه المشكلة فذلك امر غير وارد ولا يمكن ان تثبت اراؤه امام الواقع والمنطق والحق أن هذه المشكلة لاتحسل بالطريق الذي رسمه ابو رقيبة وانما بالطريق الذي رسمه كفـاح الامـة وتصميمها وعزمها على اعادة الحق الى اهله بالعزيمة والتصميم والكفاح .

اما البورقيبية فهي سياسة يفسرها العرب اليوم بانها سياسة مشبوهة من حيث تنفيذها لرغبات اعداء امة العرب الصهيونية والاستعمار .

السياسة الخارجية

ما تزال الحرب الدائرة في فيتنام والغـارات الامريـكية عـلى فيتنام الشمالية تعتبر في نظر المراقبين أهم الاحداث في السياسة العالمية ، ومازال خطر توسعها يتزايد بسبب اصرار الولايات المتحدة الامريكية على احتلالها لفيتنام الجنوبية واعلانها الوصاية على شعب تلك الدولة على الرغم من المظاهرات التي تقوم ضدها ولكن الولايات المتحدة مصرة على حمـاية السلام بخنق شعب فيتنام الجنوبي وضرب الشماليين بالقنابل !!



اخبار الفكر

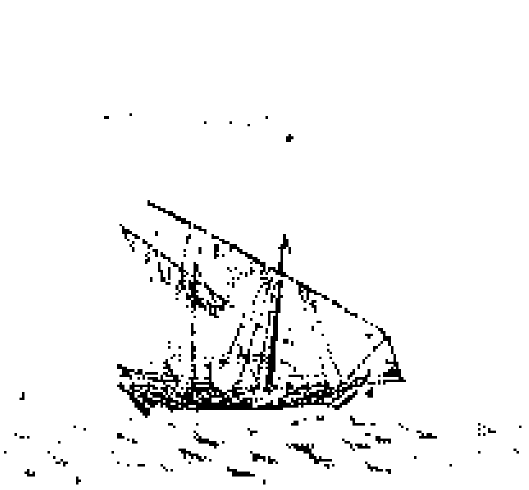
- **سلسلة الحياة الذهبية ـ ديوان شعر شعبي من تأليف كاظم الحلي صدر مؤخرا في كربلاء .**
- في سلسلة اقرأ التي تصدرها دار المعارف بمصر صدر كتاب « النقائص والنجاح » من تأليف الاستاذ ضياءالدين ابو الحب .
- **ينوي الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا طبع مجموعة تضم اغلب قصصه تحت عنوان « قصص جبرا ابراهيم جبرا » .**
- يواصل الاستاذ عبدالجبار داود البصري تسجيل دراسته الشاملة عن المرحوم بدر شاكر السياب .
- **انتهى الاستاذان خليل ابراهيم العطيه وجليل العطيه من جمعوتحقيق ديوان الشاعرة « ليلى الاخيلية » .**
- في الاسواق الان كتاب «الشرق الاوسط ، الاتجاهات الاستعمارية فيه» من تأليف الدكتور ابراهيم شريف . صدر الكتاب ضمن السلسلة السياسية التي تواصل اصدارها وزارة الثقافة والارشاد .
- **اقامت جمعية الفنانين العراقيين معرضا شخصيا لاعمال الفنان كاظم حيدر وذلك في قاعة المتحف الوطني للفن الحديث، من ٢٠ـ٢٩ نيسان.**
- مسرحية (البخيل) قدمت على مسرح معهد الفنون الجميلة ضمن النتاجات الموسم المسرحي الرابع وذلك تحت رعاية السيد وزير التربية .
- **برعاية السيد وزير التربية افتتح المعرض السنوي لقسم اعداد المدرسين والاكاديمية (الفنون التشكيلية) في معهد الفنون الجميلة .**
- الدكتور غالب علي الداودي اصدر مؤخرا الجزء الثاني من كتابه « مذكرات في مبادىء العلوم السياسية » . وقد طبع الكتاب في مطبعة الاديب في البصرة .
- **(الملاكمة ليست رياضة) كتاب جديد اصدره الاستاذ محمود القيسي معاون العميد لشؤون الطلبة في كلية التربية ، اثبت فيه ان الملاكمة**

ليست فنا من فنون الرياضة ، معتمدا على معلومات احصائية وعلمية وطبية دقيقة .

- صدر مؤخرا كتاب (معجم رجال الفكر في النجف خلال الف عام) من تاليف الاستاذ محمد هادي الامين . ويقع الكتاب في ٤٩٢ صفحة .
- **ضمن السلسلة السياسية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد سيصدر كتاب (المدخل الى اسرائيل) من تاليف آلان . أر تايلر ،وقد قام بتعريبه الاستاذ شكري محمود نديم .**
- اقيم في بيروت خلال الفترة الواقعة بين ٢-١٥ آذار ١٩٦٥ معرض للرسامين العراقيين ، شارك فيه كل من : حافظ الدروبي ، سعدي الكعبي ، ضياء العزاوي ، اسماعيل الترك ، فاضل عباس ، اسماعيل الشيخلي ، سالم الدباغ ، نوري الراوي ، سعاد العطار ، سعد الطائي فرج عبو ، كاظم حيدر ، لورنا سليم ، غازي السعودي ، فائق حسن، صلاح جمعة . وقد وزعت اثناء افتتاح المعرض نشرة تضمنت اسماء الفنانين المشتركين واعمالهم مع مقدمة موجزة عن الفن في العراق باللغتين العربية والانكليزية .
- **زارت بغداد خلال شهر نيسان فرقة امريكية للفنون الشعبية قدمت خلالها بعض فعالياتها في قاعة الخلد وفي مدينة (سلمانباك) .**
- (الفاروق القائد) كتاب جديد اصدره مؤخرا اللواء الركن المتقاعد محمود شيت خطاب .
- **(لغة الشعر بين جيلين) كتاب جديد اصدره الدكتور ابراهيم السامرائي ، اضافة الى كتبه اللغوية الجليلة . وقد طبع الكتاب في بيروت .**
- من المؤمل ان يصدر قريبا ديوان (كعب بن مالك) الذي قام بجمعه وتحقيقه الاستاذ سامي مكي العاني مع دراسة ضافية عن الشاعر .
- **(كثير عزة) اسم الكتاب الذي يعده للطبع الاستاذ احمد حسين الربيعي ، وهو الرسالة التي نال بها درجة الماجستير من جامعة القاهرة .**
- كتاب (الخيل) للاصمعي ، يقوم بتحقيقه الان الدكتور حسين نصار والاستاذ نوري حمودي القيسي بالاعتماد على النسخة الوحيدةالموجودة في استنبول .
- **اصدر الدكتور عبدالكريم زيدان كتابا جديدا بعنوان (الفرد والدولة في الشريعة الاسلامية) .**

- يقوم الاستاذ سلمان هادي الطعمة باعادة طبع كتابه (تراث كربلاء) بعد اضافة بعض المعلومات الجديدة عليه كما انه سيدفع الى المطبعة قريبا بكتابه الجديد (شعراء من كربلاء) .
- صدر في باريس اخر جزء من الاعمال الكاملة للكاتب فرانز كافكا . وقد سبق ان صدرت سبعة اجزاء منه .
- **نادي الكتاب في لندن سيصدر سلسلة جديدة بعنوان (كتب عالمية) وسيكون اول تلك الكتب محتويا لجميع قصص هيمنجواي القصيرة البالغة ٤٩ قصة .**
- اغنيات صغيرة ـ الديوان الجديد للشاعر سليمان العيسى الـذي سيصدر قريبا عن احدى دور النشر في بيروت .
- **جسر من الاوهام ـ باقة من الادب الواقعي ، من تاليف سعاد منسي .**
- (ابحاث مختارة في القومية العربية) ـ للاستاذ ساطع الحصري ، كتاب جديد صدر عن دار المعارف بمصر .
- **صدر مؤخرا ديوان شعر جديد للاستاذ محمود حسن اسماعيل بعنوان « قاب قوسين » .**
- اصدر الاستاذ توفيق الحكيم مؤخرا مذكراته بكتاب عنونه بـ (سجن العمر) تناول فيه سيرة حياته منذ الطفولة حتى اليوم .
- (القديسة جون) مسرحية للكاتب برناردشو قام بترجمتها الاستاذ محمد محبوب ضمن سلسلة « مسرحيات عالمية » .
- **قام الاستاذ مروان الجابري بترجمة كتاب (الصحافة اليوم) الـذي سبق ان الفه الاستاذ توماس بيري .**
- (سلامة موسى ـ المفكر الانسان) كتاب جديد اصدرته دار العلم للملايين وهو من تاليف الاستاذ محمود الشرقاوي .
- **اصدرت دار الهلال بمصر كتابا بعنوان (انا) من تاليف عباس محمود العقاد . وقد قدم له الاستاذ طاهر الطناحي .**
- يصدر عن الدار المصرية للتاليف والترجمة الكتب التالية : (ادباء في صور صحفية) تاليف محمد نصر و « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين » تاليف بهاءالدين بن شداد تحقيق جمال الدين الشيال و (التخطيط للتربية والتعليم) تاليف محمدعلي حافظ و (مشكلات القوام والشخصية عند الشابات وطرق علاجها) تاليف روحية محمد حسونة .

- **(التفكير عند الانسان) من تاليف الدكتور احمد فائق ، كتاب اصدرته الدار المصرية للتاليف والترجمة .**
- تقرر ان تدمج مجلتنا (الرسالة) و (الثقافة) في مجلة واحدة تحمل اسم « رسالة الثقافة » تصدر اسبوعيا ويرأس تحريرها الاستاذان احمد حسن الزيات ومحمد فريد ابو حديد .
- **نشرت مجلة (روز اليوسف) عدة مقالات تنتقد فيها المجـــلات التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي وتبين بانها لاتساير المرحلة الثورية في العربية المتحدة .**
- بوشر في بيروت بطبع (محيط المحيط) القاموس المطول الذي وضعه بطرس البستاني ويقع المعجم فيما يزيد على الفي صفحة .
- **في سلسلة اعلام العرب سيصدر كتاب (الجويني امام الحرمين) من تاليف الدكتورة فوقية حسين محمود .**
- وفي سلسلة المكتبة الثقافية سيصدر كتاب (رحلات الحيوان والطيور) تأليف الدكتور فريد يني .
- **صدر حديثا من دار الاداب في بيروت كتاب (دور العرب في تكوين الفكر الاوربي) للدكتور عبدالرحمن بدوي .**
- **وعن دار الاداب ايضا صدر ديوان شعر جديد للاستاذ حسن النجمي بعنوان (كلمات فلسطينية) .**
- المعهد الثقافي الاسباني العربي في مدريد سيصدر ديوانا شعريا بعنوان (قصائد حب عربية) باللغة الاسبانية . الديوان عبارة عن مختارات شعرية ماخوذة من دواوين الشاعر نزار قباني .



المحتويات